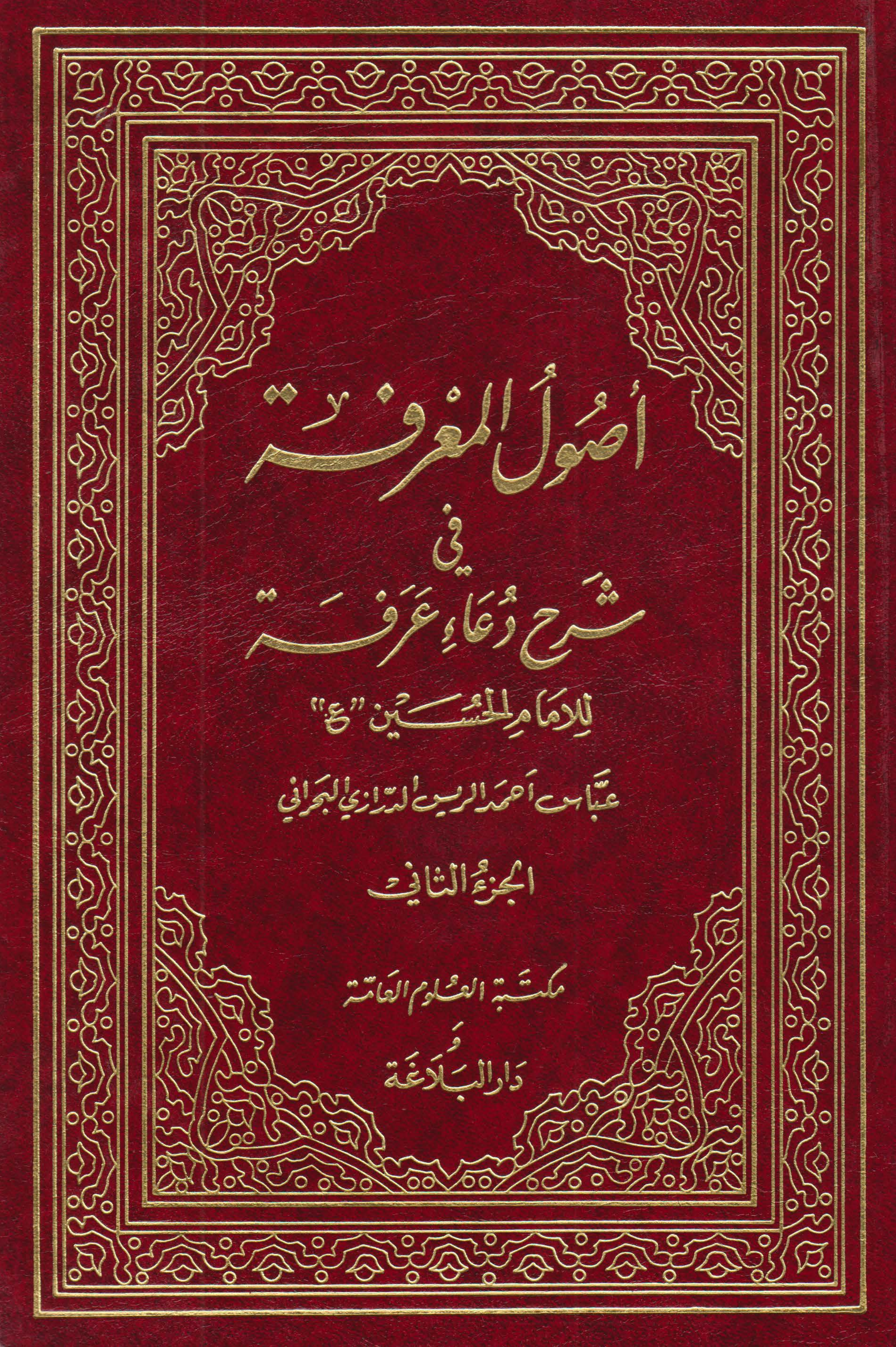
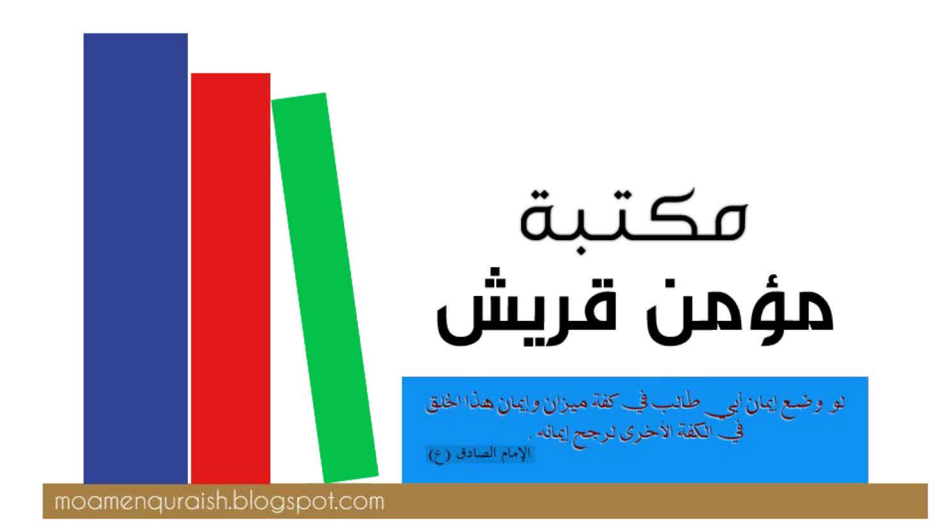

أصول المعرفة
في
شرح دعاء عرفة
للإمام الحسين "ع"
عبّاس أحمد الريس الدرّازي البحراني
الجزء الثاني
مكتبة العلوم العامة
و
دار البلاغة


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

أُصُولُ المعْرِفَة

في

شَرح دُعَاءِ عَرَفَة

أُصُولُ المعْرِفَة

في

شَرْح دُعَاءِ عَرَفَة

لِلإمامِ الحُسَين "ع"

عبّاس أحمد الريس الدّرازي البحراني

الجزءُ الثاني

دَارُ البَلاغَة

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥-٨٢٠٣٢٠-٨٣٤٢٦٥ - ص ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ .

خطبة الكتاب

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

الحمد لله الذي عرفنا نفسه[١] قبل أن يلزمنا بطاعته[٢] ، وشرح صدورنا لدعائه[٣] بوعده الصادق لإجابته ، وردعنا بوعيده عن التردي في مهالك معصيته ، ووعدنا ـ سبحانه ـ على ذلك بشمول رحمته .

أحمده حمد من أقر بالإنابة[٤] إلى الله ، وأوحده كما وحده الأواه[٥] ، وأقر على نفسي بالعبودية ، وأعترف له بالربوبية ، حمد من أوقرت[٦] ظهره خطاياه ـ ولكنه يطمع في مواهب ربّه وعطاياه ؛ لأنه الثقة به

---

(١) في ذلك إشارة إلىٰ إسم الكتاب الذي بين يدي القارىء ، وفيه تلويح إلى المكان الذي قيل فيه هذا الدعاء والزمان الذي قيل فيه وهي عرفات وعرفة .

(٢) فيه إشارة أن معرفته ـ سبحانه ـ سابقة على الطاعة ؛ لأنه لا يمكن العبادة ولا تصح بدون معرفة المعبود .

(٣) فيه إشارة إلى هذا الشرح لهذا الدعاء الشريف .

(٤) أناب إليه إنابة فهو منيب أقبل وتاب والإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة قال تعالى : ﴿وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له﴾ أي توبوا إليه وارجعوا .

(٥) الأواه : رجل أواه كثير الحزن وقيل : هو المؤمن وقيل : هو الدعاء إلى الخير وقيل : الأواه المتأوه شفقاً وفرقاً قال تعالى : ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ .

(٦) الوقر الحمل الثقيل والوقر في الأذن ذهاب السمع كله ، والوقور الثقيل .

ـ سبحانه ـ رأس التوبة ، وسوء الظن به حوبة وأي حوبة :

ثق بالإلٰه وجوده ونواله ... فهو الذي يعطي بدون حساب
وأربح فما ربحت تجارة تاجر ... إلّا به وسواه محض سراب
واحمده حمداً لا يليق بغيره ... واشكره شكر مؤملٍ أوّاب

وأشهد ألّا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له كلمة مصدقٍ بما يقول ومعتقدٍ بأمرٍ لا يحول[٧] عنه ولا يزول .

شهادة من أراد التقرب إليه في السر والنجوىٰ ، واعتصم بحبله لردّ كل بلوىٰ . وأتدرع بقوته لردّ بأس الأقوياء ، وأستعين به على كل شيءٍ كما استعان به الأصفياء ، فهو عدة الضعفاء ، وعمدة الأولياء .

شهد الجماد بما شهدت بأنه ... متفرد بالعز والجبروت
آلأؤه لا تنتهي بنهاية ... أو في زمانٍ قائم موقوت[٨]
خلق الإلٰه الخلق كي تعنو له[٩] ... في ذلّها أو عزها المنعوت

وأشهد أن محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ عبده المنتجب وأمينه المنتخب ، أرسله رحمةً للعباد ، وموطداً لحكمه في البلاد ، فصدع[٤] بين الناس بالدعوة بين اللين والقوة . فأقام عليهم حجة الله الظاهرة وعلمهم

---

(٧) التحول هو التغير وهو مأخوذ من تغير الحال ، بل الحال مأخوذة من التحول ، ومعنىٰ ذلك أنه لا يتغير عن عقيدته مهما طرأت المتغيرات .

(٨) الآلاء الآيات والبراهين الدالة علىٰ وجوده ـ سبحانه ـ ، ومنه قوله تعالى في سورة الرحمٰن : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ .

(٩) تعنو بمعنىٰ تخضع له وتذل حاكم ومحكوم وسيد ومسود والعزيز والذليل . ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ .

(١٠) صدع بمعنىٰ دهم ومنه قوله تعالى : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين﴾ .

الكتاب والحكمة الباهرة[١١] ، حتى بين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وعرفهم بالإلٰه الذي يجب أن يوحد ويعبد ، وصدع بقوله : قولوا لا إلٰه إلّا الله تفلحوا ، واعترفوا بنبوتي تنجحوا ، فإن الأصنام قد أضلت منكم اللبيب[١٢] وأبعدتكم عن المرعىٰ الخصيب[١٣] . فأسعدوا أنفسكم بعد هذا الشقاء ، وتآلفوا فيما بينكم بعد هذا الجفاء ، وازرعوا قلوبكم بالمحبة بعد هذه البغضاء ، صلى الله عليه وآله ما ناح حمام وهدل ، وما سحّ غيث وهمل .

صلىٰ عليه الله ما سجعت علىٰ أغصانها خفاقة بجناح

وحباه ربّ العالمين مكانة تسمو معاقدها مكان ضراح

وجزاه خيراً حيث بلغ صادعاً أمر الإلٰه وقد لحاه اللاحي

أما بعد : فإن الله ـ سبحانه ـ قد دعا إلى دعائه العباد ، وهداهم إلىٰ التزود بزاد المعاد[١٤] ، وأنار لهم طريق الهدىٰ بالمصابيح[١٥] النيّرة ، وأرشدهم إلىٰ طريق الخير في الدنيا والآخرة ، ونصحهم بالإقبال على

---

(١١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ والشيء الباهر الذي يعجب الإنسان منظره .

(١٢) اللبيب الفطن النبيه الذي له لب يفكر في جديات الأمور ، ومنه قوله تعالى : ﴿فاتقوني يا أولي الألباب﴾ .

(١٣) المرعىٰ الخصيب هو المكان الذي تكثر فيه الحشائش التي ترعاها الماشية ، وتكثر فيه المياه الجارية . ومعنىٰ ذلك أن الأصنام قد أبعدتكم عن مواطن الخير والبركة لأنها لا خير فيها .

(١٤) إشارة إلى كتاب زاد المعاد للعلّامة المجلسي .

(١٥) المصابيح إشارة إلى كتب أدعية معروفة بهذا الإسم مثل المصباح للكفعمي ، ومصباح المتهجد للطوسي ، ومصابيح الجنان للشيخ عباس القمي .

الأعمال[١٦] التي تقربهم إليه ، ودعائه بمهج الدعوات[١٧] والتوكل عليه فما كل سوداء تمرة ، وما كل صهباء خمرة[١٨] فإن تلقي الدعاء من فم أهله هو حياشة للخير كله . فالمعصوم يعرف كيف يخاطب ربّه ، ويشق بذلك الخطاب مسلكه ودربه . فما علىٰ المؤمن إلاّ أن يترسم خطاه ، ويأخذ مما تفضل به عليه وأعطاه . فإن طريقه أوضح طريق ، وعلمه بحر وليس بمضيق .

خذ العلم منهم إنما العلم عندهم	(وليس أخو علم كمن هو جاهل)
فعلم الفتى خير له من نضاره	وليس بباق كل ما هو راحل
إذا ما حدا الحادي وجد بك السرىٰ	فإن ظلام الليل بالنور زائل

ولقد أعطانا أبو الأحرار ، وسيد المجاهدين والثوار ، أبو عبدالله الحسين بن علي أمير المؤمنين ـ عليهما السلام ـ عطية سنية ، وتفضل علينا بنفحة من نفحاته القدسية ، وهو دعاء عرفة المنيف ، في ذلك المكان الشريف .

ولقد تعلق هذا الدعاء بقلبي منذ حجة الإسلام ، وسحرني ببيانه ذلك الإمام ، فأخذت أبحث عن توضيح لتلك الرموز والإشارات في معظم ما دخلت من المكتبات ؛ لأستعين به على فهم ما ورد في ذلك الدعاء من الغوامض ؛ ليستنير قلبي منه ولو بشعاع وامض[١٩] ، فلم أعثر من ذلك

(١٦) إشارة إلى كتاب الإقبال لابن طاووس رحمه الله .
(١٧) إشارة إلى كتاب مهج الدعوات للسيد ابن طاووس الحلي .
(١٨) إشارة إلى مثل عربي جارٍ لهذا اللفظ ومعناه أنه ليس كل كلام ينبغي أن يقيم ولا أن يوضع في مصاف كلام المعصومين .
(١٩) الشعاع الوامض هو الذي يضيء بسرعة فيخطف البصر ، ومعنى ذلك لم أحصل على شرح ولو قليل بسيط لهذا الدعاء .

على حلوٍ ولا حامض[٢٠] فرجعت صفر اليدين[٢١] وعدت كما قالوا بخفي حنين[٢٢] ، ورجعت ولم أجد لجوعي بلغة ، ولم تخلق أمالي علقة ولا مضغة[٢٣] .

وداعبني بعد هذا الشوق الملتهب حنين لشرح ذلك الدعاء ولو بكلام مقتضب ، فجعلت أتقدم وأتأخر ساعة بعد ساعة ، وذلك لقلة ما في يدي من البضاعة . ثم قمت حازماً وتوكلت على الله جازماً ، فرأيت أن الشوط بطين[٢٤] ، والحمل ثقيل لا يستطاع بغير معين . فاستعنت الله على إنجاز تلك المهمة ، وسألته التوفيق لمعرفة كلام أولئك الأئمة ، فإن له فضلاً على الكلام[٢٥] ، كفضلهم علىٰ الخاص والعام . وقد أطلعت بعض الإخوان على ما عزمت عليه والنهج الذي انتهجته في ذلك وملت إليه ، فشجعوني على السير في هذا المشروع ، وألحّوا عليّ في الشروع ، فقمت باذلاً كل ما في وسعي وسخرت لذلك بصري وسمعي[٢٦] ، حتى إذا انتهيت من أول الأجزاء ، حاولت أن أرىٰ ثمرة هذا العناء ، فسلمته إلى من يقوم بطباعته ، بعد أن وثقت بذوقه وبراعته . ثم أقسمت بربّ القرآن العظيم والمثاني ،

---

(٢٠) معنىٰ ذلك أنني لم أعثر على شرح لهذا الدعاء شافٍ أو غير شافٍ .

(٢١) معنىٰ الصفرة في اليد خلوّها من كل شيء ؛ لأنها إذا كانت مملوءة لا ترىٰ صفرة باطنها .

(٢٢) مثل يضرب لمن يبحث عن شيء ولم يجده ثم يعود ولم يجده .

(٢٣) المضغة هي بداية تخلق الجنين ومعنىٰ ذلك أني لم أجد شرحاً يشفي الغليل ويبرىء العليل .

(٢٤) الشوط بطين بمعنىٰ واسع ومعنىٰ ذلك أن طول الدعاء يستهلك وقتاً طويلاً .

(٢٥) إشارة إلى ما ورد عن الإمام العسكري (ع) قال : إن لكلام الله فضلاً على الكلام كفضل الله على خلقه ، ولكلامنا فضل على كلام الناس كفضلنا عليهم .

(٢٦) إشارة إلى أهمية هاتين الجارحتين في معارف الإنسان .

لألحقنَّ الأول بالثاني ، وها أنا ذا أقدمه براً بقسمي ، إذ نفث به قلمي . أسأل الله أن ينعم علي بإكمال شرح هذا الدعاء الجليل ، واستخراج درّه الجميل[27] ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

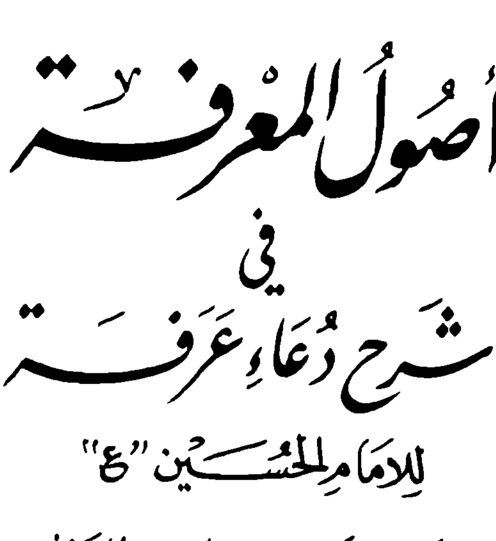
عباس أحمد الريس

الدراز ـ البحرين

٢٢ / ربيع الأول / ١٤٠٩ هـ

---

(٢٧) أي ألفاظه ذات المعاني العميقة .


أصول المعرفة
في
شرح دعاء عرفة
للإمام الحسين "ع"
عباس أحمد الريس الدرازي البحراني
الجزء الثاني

قال عليه السلام :

[اَلْحَمْدُ للهِ حَمْداً يَعْدِلُ حَمْدَ مَلائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنْبِيائِهِ الْمُرْسَلِينَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلىٰ خِيَرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ خاتِمِ النَّبِيِّينَ ، وَآلِهِ الطّاهِرِينَ الْمُخْلِصِينَ].

اللُّغة

يعدل : العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور ، وعدلٌ الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول ، وعدل إسم للجمع ، وفي أسماء الله ـ سبحانه ـ العدل ، وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم ، والعدل الحكم بالعدل . والعدل من الناس المرضي قوله وحكمه ، ورجل عدل رضاً ومقنع في الشهادة . قال كثير :

وبايعت ليلىٰ في الخلاء ولم يكن　　شهود على ليلىٰ عدول مقانع

وعادلت بين الشيئين ، وعدلت فلاناً بفلان إذا سويت بينهما ، وقيل هو المثل . قال مهلهل :

على أن ليس عدلاً من كليب　　إذا برزت مخبأة الخدور

والعديل من عادلك من الناس ، قاله سيبويه . وقال الفرّاء في قوله

تعالى : ﴿أو عَدلُ ذَلِكَ صِياماً﴾[1] قال العدل ما عادل الشيء من غير جنسه ومعناه : أي فداء ذلك .

المقربين : القرب نقيض البعد وقرب الشيء بالضم يقرب قرباً وقرباناً دنا فهو قريب ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَو تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيْبٍ﴾[2] . جاء في التفسير أخذوا من تحت أقدامهم وقالوا هو قرابتك أي قريب منك في المقام وقال الشاعر :

يا صاحبيّ ترحلا وتقربا   فلقد أنىٰ لمسافر أن يطربا

والتقارب هو ضد التباعد وفي الحديث : إذا تقارب الزمان ، وفي رواية إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب قال إبن الأثير : أراد إقتراب الساعة ، وقيل إعتدال الليل والنهار ، وتكون الرؤيا فيها صحيحة لإعتدال الزمان ، وفي الحديث (من تقرّب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً) المراد بقرب العبد من الله ـ عزّ وجلّ ـ القرب بالذكر والعمل الصالح ، لا قرب الذات والمكان ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام والله يتعالىٰ عن ذلك ويتقدس ، والمراد بقرب الله تعالى من العبد قرب نعمه وألطافه منه ، وبرّه وإحسانه ، ومنه الملائكة المقربون .

طهر : الطهارة إسم يقوم مقام التطهر بالماء ، والطُّهارة فضل ما تطهرت به بضم الطاء كالإستنجاء والوضوء والتطهر التنزه والكف عن الإثم وما لا يجمل . وقوله تعالى : ﴿وثيابَكَ فَطَهِّرْ﴾[3] معناه : وقلبك فطهّر وعليه حمل قول عنترة :

---

(1) سورة المائدة ، آية : ٩٥ .

(2) سورة سبأ ، آية : ٥١ .

(3) سورة المدثر ، آية : ٤ .

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وعرفوا الطهارة شرعاً بأنها إستعمال طهور مشروط بالنية ، وقيل في معنىٰ الآية ﴿**وثيابك فقصّر**﴾ إن تقصير الثياب طهر ، لأن الثوب إذا انجر على الأرض لا يؤمن أن تصيبه نجاسة ، وقصره يبعده عن ذلك ، وطهّر فلان ولده إذا أقام سنة ختانه ، وإنما سمّاه المسلمون تطهيراً لأن النصارىٰ لمّا تركوا سنة الختان غمسوا أولادهم في ماءٍ صبغ بصفرة يصفر لون المولود ، وقالوا هذه طهرة أولادنا التي أمرنا بها ، فأنزل الله تعالى : ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أحسنُ مِن الله صِبْغَةً**﴾[4] أي اتبعوا دين الله وفطرته وأمره ، لا صبغة النصارىٰ .

المخلصين : خلص الشيء يخلص خلوصاً ، وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم . وأخلص لله دينه أمحضه . وأخلص الشيء إختاره ، وقرىء إلّا عبادك منهم المخلصين بالكسر ، والمخلصين بالفتح قال ثعلبة : يعني بالمخلصين بالفتح الذين أخلصوا العبادة لله ـ تعالى ـ ، وبالمخلصين بالفتح الذين أخلصهم الله ـ عزّ وجلّ ـ ؛ ولذلك سميت (قل هو الله أحد) سورة الإخلاص . قال إبن الأثير : سميت بذلك لأنها خالصة في صفة الله ، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله ـ عزّ وجلّ ـ وكلمة الإخلاص (كلمة التوحيد) وقرىء بالوجهين في قوله تعالى : ﴿**من عبادنا المخلصين**﴾ فالمخلصون المختارون بالفتح والمخلصون بالكسر : الموحدون . والخلص بفتح اللام شجر طيب الريح له وردٌ كورد المرو ، وهو طيب زكي . قال أبو حنيفة : أخبرني إعرابي أن الخَلَصْ شجر ينبت نبات الكرم يتعلق بالشجر فيعلق ، وله ورق أغبر رقاق مدورة واسعة وله

---

(٤) سورة البقرة ، آية : ١٣٨ .

وردة كوردة المرو وأصوله مشربة وهو طيب الريح .

البيان

بدأنا في الجزء الأول من الكتاب بذكر الحمد ، وذلك جرياً مع ما بدأ به الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ وقد بحثنا فيما هنالك معنى الحمد ، وبعض الألفاظ التي تقارب معناه ، أما ها هنا فسنبحث الحمد لا من حيث معانيه المتقاربة ، ولكن من حيث تقسيماته المتصورة التي تمر بفكر الإنسان ، وكما ذكرها أرباب التفسير ، فقد ذكر ذلك الراغب في تفسيره الكبير عند قوله ـ تعالى ـ : ﴿**الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ**﴾ إن الذي يحمد ويمدح ويعظم في الدنيا إنما يكون كذلك لأحد وجوه أربعة :

١ ـ أما أن يكون كاملاً في ذاته وصفاته ، منزهاً عن جميع النقائص والمعائب ، وإن لم يكن منه إحسان إليك .

٢ ـ وأما لكونه محسناً إليك منعماً عليك .

٣ ـ وأما لأنك ترجو فضول إحسانه إليك فيما يستقبل من الزمان .

٤ ـ وأما لأجل أن تكون خائفاً من قهره وقدرته وكحال سطوته .

فهذه الجهات الموجبة للتعظيم ، فإنه ـ تعالى ـ يقول : إن كنتم ممّن تعظمون للكمال الذاتي فاحمدوني فإني أنا الله ، وإن كنتم تعظمون للإحسان والتربية والإنعام فإني أنا ربّ العالمين ، وإن كنتم تعظمون للطمع في المستقبل فأنا الرحمن الرحيم ، وإن كنتم تعظمون للخوف فأنا مالك يوم الدين .

وهذه الصفات الأربع مجتمعة عنده ـ تعالى ـ . أما بالنسبة إلى الصفة الأولى فإنه قد جمع صفات الجلال والكمال ، واختار لنفسه خير الأسماء ،

وهذه الصفات التي جمعت له ـ سبحانه ـ تنفي غيرها من صفات النقص والذم وذلك لإستحالة إجتماع النقيضين . وأما الإحسان فظاهر منه ـ سبحانه ـ على الإنسان ، بل هو ظاهرة يومية تمد الإنسان بالحياة وتلبي حاجاته من البداية إلى النهاية ، بل هو لباس ألبسه الله الإنسان فلا يمكن نزعه عنه ليبقىٰ عارياً ، بل هو صبغة من الله للإنسان ، ومعنى ذلك أنه قد خلقه وخلق معه الإحسان في آنٍ واحدٍ ، وهذا ما اشترطه علىٰ نفسه قبل خلقه للإنسان كما مر في الجزء الأول .

أما رجاء فضول الإحسان فإن الله هو المرجو دون غيره من سائر خلقه لأن الأمل الذي أعطاه الإنسان يطمعه في الإلحاح في المسألة ، ومن هنا أتاح له الدعاء ووعده بالإجابة . والرجاء من الإنسان لإحسان الله ـ سبحانه ـ هو من أعظم العبادات التي ترصد في عمله لأنه عبادة لا تتردد بين القبول والرد ، لأن هذه الحالة التي تعتري الإنسان لا يمكن أن تصدر منه إلّا بعد الإخلاص ، وإن لم يكن في جميع الطاعات ، إلّا أنها بخصوصها لا تحتمل إلّا وجهاً واحداً هو اللجوء إلى الله في ساعة العسرة والرجال لنواله وعطائه .

وأما الخوف من الله فإنه واردٌ ولكن فيمن عرفه وقدّره دون غيره وقد وعد أهله الثواب الجزيل الذي أعدّه لعباده الصالحين كما تمدّحهم بذلك في كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿يَخَافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ويَخَافُونَ يَوماً كَانَ شَرُّهُ مُستَطِيراً﴾[٦] .

---

(٥) سورة النور ، آية : ٣٧ .

(٦) سورة الإنسان ، آية : ٧ .

وهذا الخوف الذي يذكر بهذا المعنىٰ ليس خوفاً من تعديه وظلمه ، فإن ذلك لا يقال في حقه ـ تعالى ـ ولكن الخوف بهذا الإعتبار من الإنسان يأتي في ضمن عدم ثقته بعمله ، وإشفاقه على نفسه من التقصير والتفريط في جنب الله ، وبما أن الله قادر مريد فإنه يتصرف مع عبده بعدله أو يعامله بعفوه ورحمته .

بحث حول الملائكة

أما الملائكة المقربون الذين ذكرهم النص فهم يعرفون كيفية الحمد ومعناه دون غيرهم من بقية الملائكة ؛ لأنهم أقرب إلى الله من غيرهم ، فعبادتهم تختلف عن عبادة غيرهم ؛ ولأن معرفتهم بالله أعظم من غيرهم ، ولذلك سمّوا بهذا الإسم الذي منحهم منزلة خاصة عند الله تعالى ، وقد نصَّ على ذلك الكتاب العزيز والسنة المطهرة لأن الملائكة أجسام على ضروب مختلفة ، وأقسام متفاوتة ، قال تعالى : **﴿جَاعِلِ الملائكةِ رُسلاً أُولي أجنحةٍ مثنىٰ وثلاثَ ورباعَ﴾**(٧) . ومنه الأكابر الأربعة : جبرائيل وميكائيل اللذان تكرر ذكرهما في القرآن ، وإسرافيل وعزرائيل اللذان تكرر ذكرهما في الحديث .

قال السيد عبدالله شبر في كتابه (حق اليقين) : وجبرائيل هو صاحب الوحي وروح القدس ، والروح الأمين ، ينصر أولياء الله ، ويقهر أعداءه . قال تعالى في شأنه : **﴿إِنّهُ لَقولُ رَسُولٍ كَريمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرشِ مَكينٍ ، مُطَاعٍ ثمَّ أمِينٍ﴾**(٨) .

---

(٧) سورة فاطر ، آية : ١ .

(٨) سورة التكوير ، آية : ٢٠ .

فرسالته أنه رسول الله إلى جميع أنبيائه وَرُسُلَهُ ، وكرمه عند ربّه أنه جعله واسطة بينه وبين أشرف عباده ، وقوته أنه رفع مدائن قوم لوط إلى السماء وقلبها ، ومكانته عند الله أن جعله ثاني نفسه في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ**﴾[9] وكونه مطاعاً أنه إمام الملائكة ومقتداهم ، وأما كونه أميناً فلإنه إئتمنه الله على الرسالة ، وأئتمنه الأنبياء على ما نزل به إليهم .

وميكائيل صاحب الأرزاق والأغذية .

وإسرافيل صاحب الصور الذي قال الله عزّ وجلّ فيه : ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾[10] .

وعزرائيل هو ملك الموت الموكل بقبض الأرواح الذي قال الله فيه : ﴿**قُل يَتَوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾[11] .

ومن أصناف الملائكة حملة العرش والحافظون حوله كما قال تعالى : ﴿**وَيحمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهُمْ يَومَئِذٍ ثَمانية**﴾[12] . وقال سبحانه : ﴿**وَلَو تَرىٰ المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ**﴾[13] وعن الصادق ـ عليه السلام ـ : (إن حملة العرش أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق الله لولد آدم ، والثاني على صورة الديك يسترزق الله للطير ، والثالث على صورة الأسد يسترزق الله للسباع ، والرابع على صورة الثور يسترزق الله للبهائم ،

---

(٩) سورة البقرة ، آية : ٩٨ .

(١٠) سورة الكهف ، آية : ٩٩ .

(١١) سورة السجدة ، آية : ١١ .

(١٢) سورة الحاقة ، آية : ١٧ .

(١٣) سورة الزمر ، آية : ٧٥ .

ونكس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية) .

وقال الصدوق في إعتقاداته : إعتقادنا في العرش[١٤] ، إنه جملة جميع الخلق ، والعرش في وجهٍ آخر هو العلم ، ثم قال : وأما العرش الذي هو جملة جميع الخلق فحملته أربعة من الملائكة لكلٍ منهم ثمانية أعين طباق الدنيا ، واحدة منهم على صورة بني آدم . . إلى آخر ما تقدم بأدنىٰ تغيير . قال : وأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسى . وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين . هكذا رُوِي في الأسانيد الصحيحة عن الأئمة ـ عليهم السلام ـ في العرش وحملته ، وإنما صار هؤلاء حملة العلم لأن الأنبياء الذين كانوا قبل نبينا ـ صلى الله عليه وآله ـ على شرائع الأربعة ، نوح ، وإبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسى ، ومن قبل هؤلاء صارت العلوم إليهم .

وقال سيد الساجدين في الصحيفة : أللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك ، ولا يسأمون من تقديسك ، ولا تستحسرون من عبادتك ، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك ، ولا يغفلون عن الوله إليك ، وإسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر ، فينبه بالنفخة صرعىٰ رهائن القبور ، وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك ، وجبرائيل الأمين على وحيك ، المطاع في أهل سمٰواتك ، والمكين لديك المقرّب عندك ، والروح الذي هو على ملائكة الحجب ، والروح الذي هو من أمرك ، فصلٍّ عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من مكان سماواتك وأهل الأمانة على

(١٤) سيأتي في الأبحاث القادمة من الكتاب تفصيل عن العرش وماهيته ان شاء الله .

رسالاتك ، والَّذين لا تدخلهم سآمة من دؤوب ولا إعياء من لغوب ولا فتور ، ولا يشغلهم عن تسبيحك الشهوات ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات ، الخُشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك ، النواكس الأذقان الَّذين قد طالت رغبتهم فيما لديك ، المستهترون بذكر آلائك ، المتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك، والذين إذا نظروا جهنم تزفر على أهل معصيتك قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك وأهل الزلفة عندك وحُمَّال الغيب إلى رسلك والمؤتمنين على وحيك وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لِنفسك ، وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك ، وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك ، والَّذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وَعْدك ، وخزان المطر وزواجر السحاب والذي بصوت زجره يسمع رجل الرعود ، وإذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، ومشيع الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل ، والقوام على خزائن الرياح ، والموكلين بالرياح والموكلين بالجبال فلا تزول ، والذين عرفتهم مثاقيل المياه ، وكل ما تحويه لواعج الأمطار وعوالجها من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء ، والسفرة الكرام البررة والحفظة الكرام الكاتبين ، وملك الموت وأعوانه ، ومنكر ونكير ، ومبشر وبشير وروما‌ن فتان القبور ، والطائفين بالبيت المعمور ، ومالك والخزنة ورضوان خازن الجنان . قال تعالى : **﴿والّذينَ لاَ يَعصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرونَ﴾**[١٥] .

وقال تعالى : **﴿والَّذِيْنَ يَقُولُونَ سلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعمَ عقبى الدارِ﴾**[١٦] والزبانية الذين إذا قيل لهم : **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوه ثمَّ الجَحِيم**

---

(١٥) سورة التحريم ، آية : ٦ .

(١٦) سورة الرعد ، آية : ٢٤ .

صَلُّوه﴾[٢٧] إبتدروه سراعاً ولم ينظروه ومن أوهمنا ذكره ولم نعلم مكانه وبأي أمرٍ وكلته ، وسكان الهواء والأرض والماء .

وفي بصائر الدرجات عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : ليس خلق أكثر من الملائكة انه لينزل كل ليلة من السماء سبعون ألف ملك فيطوفون بالبيت الحرام ليلتهم وكذلك في كل يوم .

وسأله رجل فقال : الملائكة أكثر أم بنو آدم ؟ فقال ـ عليه السلام ـ : والذي نفسي بيده لملائكة الله في السماوات أكثر عدد من التراب في الأرض وما في السماء موضع قدم إلاّ وفيه ملك يُسبّح الله ويقدسه ، ولا في الأرض شجرة ولا عودة إلاّ وفيها ملك موكل يأتي الله كل يوم بعلمها . الله أعلم بها ، وما منهم أحد إلاّ ويتقرب إلى الله في كل يوم بولايتنا أهل البيت ويستغفر لمحبينا ويلعن أعداءنا ويسأل الله ان يرسل عليهم من العذاب أرسالاً .

وفيه وفي الكافي بإسنادهما عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال : والله إن في السماء لسبعين صفاً من الملائكة لو اجتمع أهل الأرض كلهم يحصون عدد كل صف منهم ما أحصوه ، وإنهم ليدينون بولايتنا .

وعنه ـ عليه السلام ـ قال : إن في الجنة نهراً يغتمس فيه جبرائيل كل غداة ثم يخرج منه فينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقطر منه ملكاً .

من الآيات والروايات المتقدمة نعرف أن الملائكة لها عدة مراتب متفاوتة في قربها من الله ـ تعالى ـ وكلما قرب أولئك من الله زادت معرفتهم به ومعرفتهم به إخلاصهم له في الطاعة فكما أن معرفتهم به متفاوتة بحسب

---

(١٧) سورة الحاقة ، آية : ٣٠ .

مراتبهم فكذلك طاعتهم له متفاوتة بحسب تلك المراتب .

أما الأنبياء المرسلون فهم أيضاً يختلفون في معرفتهم بـالله عن بقية أبنـاء البشر ؛ لأن الإرتبـاط بينهم وبين الله يختلف عنه بين الله وبين سـائر مخلوقـاته ، بـل إن الإختلاف وارد بـل هو واقـع بين الرسـل أنفسهم فإن التفضيل بينهم لا غرابة فيه ولامشاحّة بعد أن صرّح بذلك الكتاب العزيز في قوله تعـالى : ﴿تِلكَ الرُّسُـلُ فَضَّلنا بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾(١٨) .

فقد ورد في تفسير هـذه الآية أنهـا فيها دلالـة على التفضيل الإلٰهي الواقع بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ففيهم من هـو أفضل ، وفيهم من هـو مفضل عليه ، وللجميع فضل . فإن الرسالة في نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميـع وفيما بين الـرسل أيضـاً إختلاف في المقـامـات وتفـاوت في الدرجات ، كما أن بين الذين بعدهم إختلافاً على ما يدل عليه ذيل الآية إلاّ أن بين الإختلافين فرقاً ، فإن الإختلاف بين الأنبياء إختلاف في المقامات وتفـاضل في الـدرجات مـع اتحادهم في أصـل الفضل وهـو الـرسـالـة ، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد وهذا بخلاف الإختلاف الموجود بين أمم الأنبياء بعدهم فإنه إختلاف بالإيمان والكفر ، والنفي والإثبـات ، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الإختلاف ، ولذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمَّى الأنبياء تفضيلاً ونسبه إلى نفسه ، وسمَّى ما عنـد النـاس بـالإختـلاف ونسبـه إلى أنفسهم ، فقـال في مـورد الـرسـل (فضلنا) ، وفي مورد أممهم (إختلفوا) .

وفي النص المـاثل بين أيـدينا أمـام هذا البحث تخصيص لـلأنبيـاء

---

(١٨) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .

المرسلين فقط ، وذلك لأن (الأنبياء المرسلين) يختلفون عن مجرد الأنبياء ، وقد سبق الحديث بصورة مختصرة في الجزء الأول في التفريق بين الأنبياء والرسل ، وقلنا هناك بأن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً . فإن كلَّ رسولٍ نبي ، وليس كل نبي رسول ، ويظهر من هذا أن معرفة الرسل بالله وطاعتهم وحمدهم له ، والمشار إليه في كلامه ـ عليه السلام ـ يختلف عنه فيما لو صدر عن نبي من الأنبياء كزكريا ويحيىٰ ، فإن الحمد الصادر من أمثال موسىٰ وعيسىٰ ومحمد ـ صلى الله عليهم أجمعين ـ وهم الرسل الذين فضّل الله بعضهم على بعض يختلف عن حمد غيرهم من الأنبياء ؛ وذلك ـ كما قلنا مراراً ـ ناتج عن إختلاف المعرفة بالله ـ سبحانه ـ فكلما زادت المعرفة زاد اليقين بالله ، وكلما زاد اليقين خلصت العبادة والطاعة من الرسل قبل الأنبياء .

ثم ختم هذا المعنىٰ بالصلاة على النبي وآله ، وهي من أفضل الأعمال حتى جاء في المأثور عن أهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ أن الأعمال مرددة بين الرد والقبول إلاّ الصلاة على محمد وآل محمد .

وقد ذكر ـ عليه السلام ـ الصلاة في ذلك المشهد العظيم زيادة في التسول والتوسل في ضمن هذا الدعاء ؛ لكي يضمن قبوله من الله فإنه لا يتصور أن يقبل الله شيئاً من الدعاء وهو الصلاة على النبي وآله ، ويترك ما بقي منه . والسبب في أن هذه العبادة مقبولة من الله على كل حال ؛ لأنه قد أمر بها عباده جميعاً ولم يشترط لذلك شروطاً ، كما هو الحال في الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وغير ذلك في العبادات فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي ، يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وسَلِّموا تَسْلِيماً﴾[١٩] .

---

(١٩) سورة الأحزاب ، آية : ٥٦ .

قال الطوسي ـ رحمه الله ـ في التبيان في تفسير هذه الآية : يقول الله تعالى مخبراً : أنه يصلي وملائكته على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وصلاة الله ـ تعالى ـ هو ما فعله به من كراماته وتفضيله وإعلاء درجاته ورفع منازله ، وثنائه عليه ، وغير ذلك . وزعم بعضهم أن (يصلون) فيه ضمير الملائكة دون إسم الله مع إقراره بأن الله ـ سبحانه ـ يصلي على النبي لكنه يذهب في ذلك أن في إفراده بالذكر تعظيماً ، ذكره الجبّائي .

ثم أمر ـ تعالى ـ المؤمنين المصدقين بوحدانيته المقرين بنبوة نبيه أن يصلوا عليه أيضاً ، وهو أن يقولوا : (أللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم)[٢٠] في قول إبن عباس .

ثم أمر المؤمنين أيضاً أن يسلموا لأمره ـ تعالى ـ وأمر رسوله تسليماً في جميع ما يأمرهم به ، وفي معنىً آخر : التسليم هو الدعاء بالسلام كقولهم : (سلّمك الله) ، وقولهم : (السلام عليك ورحمة الله وبركاته) وكقولك : (السلام عليك يا رسول الله) .

أما كون النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (خاتم النبيين) فقد سبق أن أوردنا في الجزء الأول لذلك معنيين فلا نطيل بذكرهما فليرجع إليهما من أحب ذلك .

لكن هذه الكلمة تدل على أنه ـ صلى الله عليه وآله ـ أفضل الأنبياء لأنه خاتمهم . وقد إتفق على ذلك علماء الأمة وسنعرض لهذا بشيء من التفصيل .

---

(٢٠) ليس المراد من التشبيه في العبارة التضعيف أو المساواة ، وهذا جار في كلام العرب ، وهذا لا يخفى على ذوي الألباب .

أفضلية نبينا محمد على سائر الخلق

قال شيخنا الشيخ حسين آل عصفور ـ رحمه الله ـ في كتابه (محاسن الإعتقاد) في بحث النبوة :

إن نبينا مع كونه خاتم النبيين هو أفضلهم وأفضل الرعية على الإطلاق . بمعنىٰ أنه أعلاهم درجة ، وأكملهم خلقاً ، وخلقاً ، وأكثرهم ثواباً وقُربة . ويدل على ذلك القرآن العزيز . فإن فيه ما يدل عليه بأقوى دلالة مثل قوله تعالى : **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم، لتؤمنن به ، ولتنصرنه قال : أقررتم ، وأخذتم على ذلك إصري ، قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا . وأنا على ذلكم من الشاهدين . فمن تولّى بعد ذلك . فأولئك هم الفاسقون﴾**[٢١] .

ففي الأخبار المروية بطرق ـ كما في القمي ، والعياشي ، والمجمع ـ عن علي ـ عليه السلام ـ إنه قال في هذه الآية : لم يبعث الله نبياً ، آدم ومن بعده إلاّ أخذ عليه العهد والميثاق ، على أنه إن بعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ وهو حي ليؤمنن به ، ولينصرنه ، أمره بأن يأخذ العهد

---

(٢١) سورة آل عمران ، آية : ٨١ ، ٨٢ .

بذلك على قومه .

وفي رواية أخرى عن الصادق ـ عليه السلام ـ وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين بتصديق نبيها ، والعمل بما جاءهم به ، وليأخذوه على أممهم بتصديق محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ إذا بعث ، ويأمرهم بنصرته على أعدائه إذا أدركوه .

وفي أخرىٰ عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ، وابن عباس ـ كما في المجمع ـ إن الله أخذ على الأنبياء الذين قبل نبينا ـ صلى الله عليه وآله ـ أن يخبروا أممهم بمبعثه ، ونعته ، وبشروهم به ، ويأمروهم بتصديقه . وفي الحديث القدسي ـ كما في العيون ، والإكمال ، والكافي والجامع بطرق عديدة ـ إني أنا الله لا إله إلاّ أنا ، قاصم الجبارين ، ومذل الظالمين ، وديان يوم الدين . . . . وساق الحديث إلى أن قال جلّ جلاله : إني لم أبعث نبياً فأكملت أمامه ، وانقضت مدته ، إلاّ جعلت له وصياً ، وإني فضلتك على الأنبياء ، وفضلت وصيك على الأوصياء . . . . الحديث .

وفي الإكمال في الصحيح عن علي ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : ما خلق الله خلقاً أفضل ولا أكرم عليه منّي . قال عليّ عليه السلام : فقلت : يا رسول الله . أفأنت أفضل أم جبرئيل؟ فقال : يا علي ، إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين ، وفضلني على جميع الأنبياء والمرسلين . والفضل بعدي لك يا علي ، والأئمة من بعدك . فإن الملائكة لخدامنا ، وخدام محبينا . يا علي الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربّهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . . . . . . الآية بولايتنا .

يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ، وحوّاء ، ولا الجنة ، ولا النار ، ولا السماء ، ولا الأرض ، وكيف لا نكون نحن أفضل من الملائكة ، وقد

سبقناهم إلى التوحيد ، ومعرفة ربّنا عزّ وجلّ ، وتسبيحه ، وتقديسه ، وتهليله ، وتحميده ، ثم خلق الملائكة ، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً ، استعظموا أمرنا فسبحنا الله لتعلم الملائكة إنا خلق مخلوقون . . . . وساق إلى أن قال : فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون . وإنه لما عرج بي إلى السماء ، أذن جبرئيل ـ عليه السلام ـ مثنىٰ مثنىٰ ، ثم قال : تقدم يا محمد صلِّ : فقلتُ : يا جبرئيل أتقدم عليك ؟ فقال : نعم ، لأن الله فضل أنبياءه على ملائكته أجمعين ، وفضلك خاصة على جميع المخلوقين ، ثم ساق كلاماً طويلاً . . . . إلى أن قال : فقلت يا ربّ ، وهؤلاء أوصيائي من بعدي؟ فنوديت : يا محمد هؤلاء أوليائي ، وأحبائي ، وأوصيائي وحججي بعدك على بريتي . وهم أصفياؤك ، وخلفاؤك ، وخير خلقي بعدك .

وفي كتاب سليم بن قيس الهلالي ، وقد رواه في الكافي منه قال : سمعت سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ يقول : كنت جالساً بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ في مرضه الذي قبض فيه فدخلت فاطمة ـ عليها السلام ـ فلما رأت ما به من الضعف بكت حتى جرت دموعها على خديها ، فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : ما يبكيك يا فاطمة ؟ فقالت : أخشىٰ الضيعة على نفسي ، وولدي بعدك . فدمعت عينا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بالبكاء ، ثم قال : يا فاطمة . . . . وساق الحديث إلى أن قال : إن الله تعالى اطلع إلى الأرض اطلاعة ، فاختارني منها ، وجعلني نبياً . واطلع إلى الأرض اطلاعة ثانية ، فاختار منها زوجك . وأوحىٰ إليَّ أن أزوجك به . . . إلى أن قال : فأبوك خير أنبيائه ورسله ، وبعلك خير الأوصياء . . . . الحديث ثم قال : إنّا أهل بيت أعطانا الله سبع خصال لم يعطها أحداً من الأولين قبلنا ولا يعطيها أحداً من الآخرين بعدنا : نبينا سيد المرسلين ، وهو أبوك ، ووصينا سيد الأوصياء ،

وهو بعلك . . . الحديث .

وبالجملة فالأخبار من الفريقين قد تواترت بهذا المضمون ، وقد ثبت بها من الفضل والرفعة والجلالة على جميع الخلق .

وأما الدليل العقلي فلما مرّ من قبح تقديم المفضول على الفاضل فيجب أن تكون الرعية كل واحد ، هو أفضل منه : لأنه لو كان له مساوٍ ، أفضل منه لوجب تقديمه عليه ، أو حلوله في مرتبته ، لانه يقبح من الحكيم الخبير تقديم المفضول المحتاج للتكميل على الفاضل الكامل . وقد قال جلّ من قائل : ﴿هَلْ يَستَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعلَمُون﴾(٢٢) . وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أحقُّ أَنْ يُتَّبعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّى إلاَّ أَنْ يُهدَى ، فَمَا لَكُمْ كَيفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢٣) . وغيرهما من الآيات ، أجل من أن تحصىٰ . وكذا لو كان في الأمّة من هو مساوٍ ، لكان تقديمه عليه ترجيحاً من غير مرجح ؛ لاستحالة ترجيح أحد المتساويين على الأخير بغير مرجح لقبحه .

وقد ثبت أيضاً إنهم أفضل من الملائكة ـ كما عليه الإمامية والأشعرية ؛ لأمرهم بالسجود لآدم تعظيماً له ؛ ولتعليمهم إياهم ؛ ولأن الملائكة خدمة الأنبياء ، والأئمة ـ عليهم السلام ـ ، بل شيعتهم ـ كما في الأخبار المتقدمة ـ وفيها غنية ، وكفاية عن الإستدلال .

ولما روي في المستفيض إن شئت تقدم جبريل ـ عليه السلام ـ في الصلاة على آدم ـ عليه السلام ـ ولأن نبينا ـ صلى الله عليه وآله ـ ترقىٰ إلى ما لم يستطع جبرئيل ـ عليه السلام ـ إليه ، ولا غيره من الملائكة فكان

---

(٢٢) سورة الزمر ، آية : ٩ .

(٢٣) سورة يونس ، آية : ٣٥ .

كقاب قوسين أو أدنىٰ ؛ ولقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّه اصْطَفَىٰ آدمَ ونُوحاً ، وآلَ إبراهِيمَ ، وَآلَ عِمرانَ عَلَى العَالِمينَ﴾[٢٤] .

وخالفت المعتزلة في ذلك ، ففضلوا الملائكة عليهم مستدلين بأنهم الواسطة بين الله وبينهم في التبليغ ؛ ولقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَصطَفِي مِنَ المَلائكةِ رُسُلاً، وَمِنَ النَّاسِ﴾[٢٥] وقوله : ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقوله تعالى حكاية عن إبليس وآدم : ﴿ما نهاكما ربّكما عن تلكما الشجرة إلاّ ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾[٢٦] ولا دلالة في شيء من هذه الأدلة ، لأن الواسطة بين الله وبين أنبيائه إنما كانت من الملائكة لتشريفهم بخدمتهم ، ولمناسبة حالهم في العالم العلوي ، والمجردات ، وأما التقديم الذكري في الآية الأولى لا يدل على الشرف ولو دل على الترتيب ، فليس إلاّ لتقدم رسالتهم الخارجية على بعثة الأنبياء والرسل بالأوامر والنواهي .

وكذا ليس في الآية الثانية دلالة ، وإن ذكرت في مكان التوقي لجريان ذلك على مقتضىٰ عقائدهم في الملائكة من تفضيلهم على الأنبياء ، حتى سموهم بنات الله ، فخاطبهم الله بهذا التوقي ، لذلك .

أما ما حكاه تعالى من خطاب إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ فلا يدل على المطابقة ، لما في نفس الأمر ، ولكن لمّا كان مقام الملائكة لتنزيههم عن الحاجة عن المطاعم والمشارب دون مقام أولي الأجسام كان مقامات إفتخار على مقامات أُولي الأجسام المفتقرة لتلك المآكل والمشارب ، ولما

---

(٢٤) سورة آل عمران ، آية : ٣٣ .

(٢٥) سورة الحج ، آية : ٧٥ .

(٢٦) سورة الأعراف ، آية : ٢٠ .

فيها من الشهوة الموجبة للمناكح فلا يكون منافياً لشرف النوع الإنساني ؛ لأن عصمتهم مع حصول هذين المانعين مما يوجب لهم المقام الكريم ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ للملائكة عند خلق آدم ، واعتراضهم على خلقه واستخلافه : ﴿**أَتَجعلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فيها وَيَسفكُ الدِّماءَ ، وَنحنُ نُسَبِّحُ بِحمدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَك . قَالَ : إنِّي أعلمُ مَا لاَ تَعلَمونَ**﴾[27] . فهناك أظهر غضبه تعالى على الملائكة لما وقع لهم في الإعتراض ، حتى أنهم لاذوا بالعرش خمسمائة عام ، وتابوا إليه وتضرعوا واعترفوا بالتقصير .

وفي تفسير العسكري ـ عليه السلام ـ قال في حديث طويل ، يذكر فيه أمر العقبة إن المنافقين قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : أخبرنا عن علي ـ عليه السلام ـ ، أهو أفضل ، أم ملائكة الله المقربون ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : وهل شرفت ملائكة الله تعالى إلّا بحبها لمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ وعلي ـ عليه السلام ـ ، وقبولها لولايتهما أنه لا أحد من محبي علي ـ عليه السلام ـ قلبه من كدر الغش والدغل ، والغل ، ونجاسة الذنوب ، إلّا كان أطهر وأفضل من الملائكة ، وهل أمر الله الملائكة بالسجود لآدم إلا لما كانوا وضعوه في نفوسهم وزعموا أنه لا يصبر في الدنيا خلق بعدهم . إذ رفعوا عنها ، إلّا وهم أفضل منهم في الدين ، وأعلم بالله ، وبدينه علماً الأسماء كلها ، ثم عرضها عليهم فعجزوا عن معرفتهم ، فأمر آدم ـ عليه السلام ـ أن ينبئهم بها ، وعرفهم فضله في العلم عليهم ثم أخرج صلب آدم ـ عليه السلام ـ ذريته ومنهم الأنبياء ، والرسل ، والخيار من عباد الله . أفضلهم محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ ، ثم آل محمد ، ومن الخيار الفاضلين منهم أصحاب محمد ـ صلى

---

(٢٧) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .

الله عليه وآله ـ وخيار أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ وعرف الملائكة بذلك لو أنهم أفضل منهم إذاً لاحتملوا ما حملوه من الأثقال ، وقاسوا ما هم فيه من تعرض أعوان الشياطين ، ومجاهدة النفوس ، واحتمال أداء ثقل العيال والإجتهاد في طلب الحلال ، ومقامات الخوف ، ومخاطرة الخوف من الأعداء من لصوص مخوفين ، ومن سلاطين جور قاهرين ، وصعوبة في المسالك في المضايق ، والمخاوف ، فعرفهم الله ـ عزّ وجلّ ـ أن خيار المؤمنين يحتملون هذه البلايا ويتخلصون منها ، ويحاربون الشياطين ، ويهزمونهم ، ويجاهدون أنفسهم بدفعها عن شهواتها ، ويغلبونها فيما ركب فيها من شهوة الفحولة ، وحب اللباس والطعام ، والعز والرياسة ، والفخر والخيلاء ، ومقاسات البلاء والعناء من إبليس ـ لعنه الله ـ ، وعفاريته ، وخواطرهم ، وأعوانهم ، واستهوائهم ، ودفع ما يكيدونهم من ألم الصبر على سماع الطعن من أعداء الله ، وسماع الملاهي ، والشتم لأولياء الله ما يقاسونه في أسفارهم لطلب أقواتهم ، والهرب من أعدائهم . . . . الحديث .

ثم إنه ـ عليه السلام ـ قد خص الآل بالصلاة ، وخصصهم بالوصف الذي حصر المعصومين به دون غيرهم ، وقد قرأت كلمة (المخلصين) بالوجهين :

١ ـ قرأت بكسر اللام ، والكلمة بهذا الإعتبار تعني : الذين أخلصوا الطاعة وعرفوا الله حق معرفته .

٢ ـ وأما إذا قرأت بفتح اللام فإن ذلك يعني : الذين اصطفاهم الله وانتجبهم من بين خلقه ، وفضلهم على سائر البشر .

وعلى كلاًّ هذين القولين لا يخفىٰ ما في كلٍّ منهما من القوة في التوجيه .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ اجْعَلْني أَخْشاكَ كَأَنِّي أَراكَ ، وَأَسْعِدْني بِتَقْواكَ ، وَلاَ تُشْقِني بِمَعْصِيَتِكَ ، وَخِرْ لي في قَضائِكَ ، وَبارِكْ لي في قَدَرِكَ ، حَتّىٰ لا أُحِبَّ تَعْجيلَ ما أَخَّرْتَ ، وَلا تَأْخيرَ ما عَجَّلْتَ] .

اللُّغَة

أخشاك : الخشية الخوف ، خشي الرجل خشية أي خاف . ويقال في الخشية : الخشاة ، ويقال : هذا المكان أخشى من ذلك أي أشدّ خوفاً . وقوله عزّ وجلّ : ﴿فَخَشينَا أَنْ يُرهقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾[1] أي فعلمنا ، قاله الفرّاء . وقال الزجاج : (فَخَشينَا) من كلام الخضر معناه كرهنا ، ولا يجوز (فخشينا) عن الله ، والدليل على ذلك قوله : ﴿فأردنا أن يبدلهما ربّهما﴾ . وخشيت بمعنىٰ رجوت .

أسعدني : السعد اليمن وهو نقيض النحس ، والسعودة خلاف النحوسة ، والسعادة خلاف الشقاوة ، يقال يوم سعد ويوم نحس ، والسعد

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٨٠ .

والسعود كلاهما سعود النجوم وهي الكواكب التي يقال لكل واحدٍ منها سعد كذا ، وهي عشرة أنجم كل واحدٍ منها سعد ، أربعة منها منازل ينزل بها القمر وهي : سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وهي في برجي الجدي والدلو . واما السنة الأخرىٰ فلا ينزل بها القمر . والمساعدة المعاونة ، والساعد ملتقىٰ الزندين من لدن المرفق إلى الرسغ ، وجمع الساعد سواعد ، والساعد مجرىٰ المخ في العظام . قال الأعلمي يصف ظليماً :

على حت البراية زمخري السواعد ظل شري طوال

عنى بالسواعد مجرى المخ في العظام .

بتقواك : ابن برّي : تقى الله تقياً خافه ، والتاء مبدلة من واو ، ووقاه الله وقياً ووقاية ، وواقية ، صانه . قال أبو معقل الهذلي :

فعاد عليك إن لكن حظاً وواقية كواقية الكلاب

ووقيت الشيء إذا صنته عن الأذى . والإسم التقوى ، والتاء بدل من الواو ، وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً﴾[٢] قالوا في تأويله : إني أعوذ بالله فستتعظ بتعوذي بالله منك . وقال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً﴾[٣] ، وقد تقى تقىً .

وقال ابن الإعرابي : التقاة والتقية والتقوى والإتقاء كله واحد .

ولا تشقني : الشقاء والشقاوة ضد السعادة ، يمد ويقصر . وفي التنزيل العزيز : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَينَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قوماً ضَالِّين﴾[٤] قال

---

(٢) سورة مريم ، آية : ١٨ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٢٨ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٦ .

الفـراء : وهي كثيرة في الكـلام . وفي الحـديث : (الشقي من شقى في بطن أمه) . والشقاء الشدة والعسرة . ومعنى الحديث أن من قدر الله عليه في أصل خلقته أن يكون شقياً فهو الشقي على الحقيقة ؛ لأن من عرض له الشقاء بعد وهو إشارة إلى شقاء الآخرة لا الدنيا .

البيان

في هذه الفقرة بدأ بالسؤال من الله تعالى لنيل الكمال الإنساني، ولقد كان هذا الكمال لا يناله الإنسان إلاّ من الله ؛ لأنه إرادة منه . وهذا الكمال يتمثل في صفات معروفة لدىٰ المرتبطين بالله ذلك الإرتباط الوثيق كالحسين ـ عليه السلام ـ . فالخشية كما ذكرنا في فصل اللغة هي الخوف ، ولكنها بحسب السياق في عبارة الدعاء ، وبحسب القرائن الموجودة ليست مجرد الخوف ، فهناك فوارق تلتمس بين الخشية من الله وبين الخشية من الناس فمنها :

أولاً : أن الخشية من الله ـ تبارك وتعالى ـ هي عبادة ؛ لأن الله قد أمر بها ، وقد نوّه القرآن في كثير من الآيات بهـذا المعنىٰ قال تعـالى : **﴿إِنَّما يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَـزِيزٌ غَفُـورٌ﴾**(٥) ، وقال تعـالى : **﴿فَلَا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَونِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَـاتِي ثَمَناً قَليـلاً﴾**(٦) ، وقال تعـالى : **﴿وَمَنْ يُـطِعِ اللَّهَ وَرَسُـولَـهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْـهِ فَـأُولَئِـكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾**(٧) . فالآيات كما ترىٰ دالة على أن الخشية من الله هي عبادة ، بل هي العبادة بعينها ، فإنه لا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً حتى يخشىٰ ،

---

(٥) سورة فاطر ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .

(٧) سورة النور ، آية : ٥٢ .

فإن حركة الإنضباط بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والله لا بدّ وأن تكون لها ضوابط ومقاييس يعرف بها الصادق من الكاذب .

إذا سالت دموع في خدود   تبين من بكىٰ ممّن تباكىٰ

وحك التبر يظهر كل غش   وعند السبك يعرف ذا وذاكا[٨]

وكما هو صريح الآية الأولىٰ من الثلاث ان خشية العلماء من الله يعني هي العبادة الأتم التي تبنىٰ عليها الصلات بين الله والعبد ، ولكن ليس معنىٰ ذلك أن غير العلماء لا يخشىٰ الله ، ولكن خشية العلماء العارفين بالله أكثر من غيرهم ، وكلما زادت المعرفة به ـ سبحانه ـ تجلت هيبته في نفوس العارفين وزادت خشيته في قلوبهم ، وهذا نظير ما جاء في الحديث الشريف ، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد) أي لا صلاة كاملة الفضل لمن صلّىٰ في بيته وهو جار المسجد .

ثم ان الخوف من الله ليس معناه الخوف من ظلمه وقسوته فإن هذا شأن العباد الضعفاء المحتاجين إلى ذلك . أما الخوف منه ـ سبحانه ـ فمعناه ان العبد يخاف من سوء فعله وإساءته وإسرافه على نفسه ودوام تفريطه وجهالته وهذا من شأنه أن يرديه في مهاوي الردىٰ . كما أنه من المعلوم أن الخوف من الله هو أمان من كل ما سواه .

ثانياً : أما الخشية من الناس فإنها تختلف عن الخشية من الله فالخشية من الله والخوف منه أمان للإنسان من جميع المخاوف ، وأمان لغيره منه . أما الإنسان فإنه ليس له ضوابط معينة للخوف من الإنسان كما هو الخوف من الله فإن الإنسان له نفس أمارة بالسوء وله شيطان قرين يستميله إلى الإعتداء والإنتقام . فهو يغضب وربما لم يكن في أوقات

---

(٨) هذا البيت من تذييل المؤلف .

الغضب ، وينتقم وربّما لا يكون حال الإنتقام ، فهـو متى ما أراد فعـل ما يريد تبعاً للهوى وشهوات النفس . فمثل هؤلاء لا شك أن الإنسان يخشاهم ويخافهم ؛ لانهم بعدوا عن المقاييس ، فربما أخذوا البـريء بالمـذنب ، وخلطوا الحابل بالنابل ، ومع ذلك فإن الله قد نهىٰ عن خشية هؤلاء ، وذلك لاستلزامه عدم الخشية من الله . قال تعالى : ﴿**فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله**﴾[9] وقوله تعـالى : ﴿**فلا تخشـوهم واخشون ، ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون**﴾[10] .

ثالثاً : إن الخشية قـد تأتي بمعنىٰ الخوف المجرد من الأسباب التي تدعو إليه ، وذلك ضمن تأملات وتخيلات وأوهام تعتري الإنسان من دون حقيقة تدعـو إليه ، وهـذه الحال تعتـري ضعاف العقـول ، وذوي النفوس المريضة الذين تكون خشيتهم لا ترجع إلى تفسير أو تأويـل ، فمثل هؤلاء يرون الخيال حقيقة ويرون الباطل حقاً ، ويرون العدم وجوداً . وهذا النوع من الخوف لا يندرج تحت أي عنوانٍ من عناوين الخوف لأنه مفقود السبب فهو وإن كان موجوداً في بعض النفوس ـ كما قلنا ـ إلاّ أنه مسبب بدون سبب ومعلول بغير علّة .

---

(٩) سورة النساء ، آية : ٧٧ .

(١٠) سورة البقرة ، آية : ١٥٠ .

كلام في الرؤية

أما قوله : (كأني أراك) فإنه ينطوي تحته معانٍ كبيرة وكثيرة ، فالحديث عن الرؤية حديث طويل ، ولما كان التشبيه في العبارة وارد بالنسبة إلى الله ـ سبحانه ـ فإنه يأتي معنىٰ المستحيل ، لأن الرؤية بالنسبة إليه غير واردة ، نفتها جميع الأديان السماوية . وقد ذكر أرباب التفسير موضوع الرؤية عند قوله تعالى : ﴿وإذ قلتم يا موسىٰ لن نؤمن لك حتى نرىٰ الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾[11] ذكر الطوسي في التبيان قال : جهرة يعني علانية . وقال قتادة : عياناً . وقد تكون الرؤية غير (جهرة) كالرؤية في النوم والرؤية بالقلب . فإذا قال : (جهرة) لم يكن إلاّ رؤية العين على التحقيق دون التخيل . وسؤالهم الرؤية قال قوم : هو كفر ؛ لأن إجازة الرؤية كفر . وقال آخرون ليس بكفر وإنما إجازة الرؤية التي تقتضي التشبيه كفر ، فأما هذا القول منهم فكفر إجماعاً ، لأن ردٌّ على الرسول ، وكل من يلقىٰ قول الرسول بالرّد من المكلفين كان كافراً .

ونحن هنا في هذا الموضوع نحاول أن نستخلص ما نريد بما نستشفه من كلام أهل البيت ـ عليهم السلام ـ الذي ورد نفي الرؤيا بل استحالتها فيه .

فقد جاء في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق قال : حدثنا سعد بن عبدالله ، قال : حدثنا أحمد بن محمد بن أبي نصر ، عن أبي حسن الموصلي عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال : يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته ؟ فقال : ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره . قال : وكيف رأيته ؟ قال : ويلك لا تدركه

---

(١١) سورة البقرة ، آية : ٥٥ .

العيون في مشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان .

وروىٰ أيضاً فقال : حدثنا الحسين بن أحمد بن إدريس ـ رحمه الله ـ عن أبيه ، عن أحمد بن إسحاق ، قال : كتبت إلى أبي الحسن الثالث ـ عليه السلام ـ أسأله عن الرؤية وما فيه الناس ، فكتب ـ عليه السلام ـ لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصير ، فإذا انقطع الهواء وعدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الإشتباه لأن الرائي متىٰ ساوىٰ المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الإشتباه وكان في ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لا بدّ من إتصالهما بالمسببات .

وحدثنا أيضاً قال : علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق ـ رحمه الله ـ قال : حدثنا محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن إدريس عن أحمد بن محمد بن عيسىٰ ، عن علي بن سيف ، عن محمد بن عبيدة ، قال : كتبت إلى أبي الحسن الرضا ـ عليه السلام ـ أسأله عن الرؤية وما ترويه العامة والخاصة ؛ وسألته أن يشرح لي ذلك ، فكتب ـ عليه السلام ـ بخطه اتفق الجميع لا تمانع بينهم أن المعرفة من جهة الرؤية ضرورة ، فإذا جاز أن يرىٰ الله ـ عزّ وجلّ ـ بالعين وقعت المعرفة ضرورة ، ثم لم يخل تلك المعرفة من أن تكون ايماناً أو ليست بإيمان ، فإن كانت تلك المعرفة من جهة الرؤية ايماناً فالمعرفة التي في دار الدنيا من جهة الاكتساب ؛ لانها ضده فلا يكون في الدنيا أحد مؤمناً ، لانهم لم يروا الله ـ عزّ ذكره ـ ، وان لم تكن تلك المعرفة التي من جهة الرؤية ايماناً لم تخل هذه المعرفة التي هي من جهة الإكتساب ان تزول أو تزول في المعاد فهذا دليل على ان الله ـ عزّ ذكره ـ لا يُرىٰ بالعين إذ العين تؤدي إلى ما وصفنا .

وروي عن علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق ـ رحمه الله ـ

قـال : حـدثنـا محمـد بن يعقـوب الكليني عن أحمـد بن إدريس ، عن محمـد بن عبد الجبـار ، عن صفوان بن يحيـىٰ ، قـال : سـألني أبـو قـرة المحدث أن أدخله علىٰ أبي الحسن الرضا ـ عليه السـلام ـ فاستـأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسألـه عن الحلال والحـرام والأحكام حتى بلغ سؤاله التوحيد ، فقال أبو قرة : إنّـا روينا أن الله ـ عـزّ وجلّ ـ قسم الـرؤية والكلام بين اثنين ، فقسّم لموسىٰ الكلام ولمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ الرؤية ، فقال أبو الحسن ـ عليه السلام ـ : فمن المبلغ عن الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى الثقلين الجن والإنس **﴿لا تدركه الأبصار وهو يـدرك الأبصار﴾**[١٢] ، **﴿ولا يحيـطون بـه علمـاً﴾**[١٣] **﴿وليس كمثله شيء﴾**[١٤] أليس محمـداً ـ صلى الله عليـه وآله ـ قـال : بلىٰ ؟ قال : قـال يجيء رجـل إلى الخلق جميعاً فيراهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقـول : **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ ﴿وليس كمثله شيء﴾** ثم يقول : أنا رأيته بعيني ، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر ، أما تستحيون ، ما قدرت الزنادقة أن ترقيـه بهذا أن يكون يـأتي عن الله بشيء ، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر ؟!

قال أبو قـرة : فأنـه يقول : **﴿ولقـد رآه نزلـة أخرى﴾**[١٥] فقـال أبو الحسن ـ عليه السلام ـ إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأىٰ ، حيث قال : **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾**[١٦] يقول : ما كذب فؤاد محمد ـ صلى الله عليه وآلـه ـ ما رأت عينـاه ، ثم أخبر بمـا رأىٰ فقال : لقـد رأىٰ من آيـات ربّـه

---

(١٢) سورة الأنعام ، آية : ١٠٣ .

(١٣) سورة طٰه ، آية : ١١٠ .

(١٤) سورة الشورىٰ ، آية : ١١ .

(١٥) سورة النجم ، آية : ١٣ .

(١٦) سورة النجم ، آية : ١٤ .

الكبرىٰ ، فآيات الله عزّ وجلّ غير الله ، وقد قال : **﴿ولا يحيطون به علماً﴾** فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة ، فقال أبو قرة : فتكذب بالروايات ، فقال أبو الحسن ـ عليه السلام ـ إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبت بها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علم ولا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء .

وروي أيضاً في حديث الرؤية أنه لما أنزل الله ـ سبحانه ـ التوراة فقال : ربي أرني أنظر إليك فأوحىٰ الله إليه : لا تقدر على ذلك ، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر في مكانه فسوف تراني ، فرجع الله الحجاب ، ونظر إلى الجبل فساخ الجبل في البحر فهو يهوي حتى الساعة ، ونزلت الملائكة ، وفتحت أبواب السماء ، فأوحىٰ الله إلى الملائكة ، أدركوا موسىٰ لا يهرب فنزلت الملائكة وأحاطت بموسىٰ ، وقالوا أثبت يا بن عمران فقد سألت الله عظيماً .

فلما نظر موسىٰ إلى الجبل قد ساخ والملائكة قد نزلت وقع على وجهه فمات من خشية الله وهاله ما رأىٰ ، فردَّ الله عليه روحه ، فرفع رأسه وأفاق وقال سبحانك تبت إليك وأنا أول من صدق إنك لا ترىٰ فقال الله يا موسىٰ إني اصطفيتك على الناس برسالتي وكلامي . . . . الحديث .

وفي عيون الأخبار في خبر إبن الجهم أنه سأل المأمون الرضا ـ عليه السلام ـ عن معنى قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿ولما جاء موسىٰ لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلي الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربّه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾**[17] كيف يجوز أن يكون

(١٧) سورة الأعراف ، آية : ١٤٣ .

كليم الله موسىٰ بن عمران لا يعلم أن الله تعالى ذكره لا يجوز عليه الرؤيا حتىٰ يسأله هذا السؤال ؟ فقال الرضا ـ عليه السلام ـ : إن كليم الله موسىٰ بن عمران ـ عليه السلام ـ إن الله تعالى عزّ أن يرىٰ بالأبصار ، لكنه لما كلمه الله ـ عزّ وجلّ ـ وقربه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عزّ وجلّ كلمه وقربه وناجاه ، فقالوا لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت ، وكان القوم سبعمائة ألف رجل ، فاختار منهم سبعين ألفاً ، ثم إختار منهم سبعة آلاف ثم إختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه ، فخرج بهم إلى طور سيناء ، فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسىٰ إلى الطور .

وسأل الله أن يكلمهم ويسمعهم كلامه فكلمه الله ، وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام .

لأن الله عزّ وجلّ أحدثه في الشجرة وجعله منبعثاً منها حتى سمعوه في جميع الوجوه فقالوا لن نؤمن لك بأن الذي سمعناه كلام الله حتى نرىٰ الله جهرة .

فلما قالوا هذا القول العظيم ، بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا ، فقال موسىٰ : يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً في ما أدعيت من مناجاة الله عزّ وجلّ إياك فأحياهم الله وبعثهم معه . فقالوا : إنك لو سألت الله أن يراك تنظر إليه لأجابك . وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته فقال موسى ـ عليه السلام ـ : يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار ، وإنما يعرف بآياته ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى تسأله فقال موسىٰ : يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم فأوحىٰ الله إليه : يا موسىٰ إسألني ما سألوك فلن أواخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى : رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه وهو

يهوي فسوف تراني . فلما تجلىٰ ربّه للجبل بآية من آياته ، جعله دكاً وخر موسىٰ صعقاً . فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك . يقول : رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي وأنا أول المؤمنين منهم بأنك لا ترىٰ .

فالرؤية بهذا الإعتبار مستحيلة ، وهي كما وردت الإشارة إليها في النص (كأني أراك) يقصد منها الإيمان القوي الذي لا يتزلزل وبعبارة أخرىٰ أن المشاهدة والرؤية تبعث على اليقين الذي يستقر في القلب ولا يمكن أن يزول ، ويستقر به القلب فلا يمكن أن يحول ، لأنه يطمئن إلى ذكر الله **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**(١٩) .

أما الإستحالة في الرؤية فهي راجعة إلى جهات كثيرة وأهمها الجهات العلمية ، وذلك أن المرئيات قد اختلف فيها العلماء على وجهين :

الوجه الأول : وهو ما ورد عن الحسن بن الهيثم في علم البصريات وهو أن الأجسام تنبعث منها الأشعة فتسقط على عين الرائي ، وبذلك تشعر العين بالإبصار ، وذلك بأن تحدث للأجسام المرئية صورة حقيقية مقلوبة مصغرة ، ثم تقوم العين بعملية تعديل سريعة لهذه الصورة فيرىٰ الإنسان صورة الشيء معتدلة ولهذا السبب نرىٰ الأجسام المضيئة حتىٰ ولو كنا في الظلام .

الوجه الثاني : ما قاله علماء آخرون من الغرب وهو على العكس مما قاله الحسن بن الهيثم وهو أن العين ترسل الضوء فيقع على الجسم المرئي فتحس العين بالإبصار عندما يلاقي الشعاع المنبعث منها ذلك الجسم .

ومحصل ذلك هو أن الفرق بين النظريتين السابقتين بالنسبة إلى

---

(١٨) سورة الرعد ، آية : ٢٩ .

الرؤية هي أخذ وردٌ للعين وهما في محل أخذ وردّ أيضاً .

ثم أنّ العلماء في هذا الفن قد لجئوا إلى القـول بأن الضـوء مادّة ، والمادة لابدّ أن يكـون لها مصـدر مادي أيضـاً والله تعالى ليس بمـادة حتى يُـرىٰ ، وقد أشـرنا إلى ذلـك في الجزء الأول من الكتـاب في استعـراض مفصل للقانون الرابـع من النظريـة النسبية للعـالم الفيزيـائي (أنشتين) ، عندما قارن بينه وبين ما قاله الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ بما يزيـد على الألف من الأعوام .

فقوله عليـه السـلام : (كأني أراك) فيه إشارة إلى ذلك المستحيل ، ولو لم يكن كذلك لكان التعبيـر في مثل هـذا المعنىٰ يأتي هكـذا (أللهم اجعلني أراك لأخشـاك) وبذلـك لا تأتي الخشيـة من الله في حال الـرؤية كالخشية في عدمها أو في حال عدمها مع القرب من الله والخشية منه كأنه يراه ، وهذا أبلغ في تأديب الإنسان وتوجيهه عندما يكون وجلاً خائفاً .

فالطلب منه ـ عليه السلام ـ أن يجعله خائفاً خـوف من تتجلّى أمامـه عظمة الله تبارك وتعالى وهيبته ، فإن الخشيـة بهذا الإعتبـار هي من أعلى درجات الطاعة ، وكما تقدم القول بأن الخشية من الله ليست كالخشية من الناس ؛ لأنها مصحوبة بالإلتجاء إليه والرغبة بما عنده من الثواب مقابل هذه الخشية ، فهي خوف وأمان ، ورهبة ورغبة .

وقد وقع الخلاف بين الفرق الإسلامية في استحالة الـرؤية أو عـدم الإستحالة .

أما الإمامية فقد اتفقت كلمتهم على إستحالتها ، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنّة ، خلافاً للمشبهـة والكرامية ، فقد ذهبـوا إلى جواز رؤيتـه تعـالى في الجهة والمكـان لكونـه تعالى عنـدهم جسماً وخـالف في ذلك

الأشاعرة فاتفقوا على رؤيته في الآخرة وعلى إمكانها وجوازها في الدنيا وهذا كله ناتج عن القول بالجسمية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقد مرّ قبل قليل مناقشة ذلك بصورة علمية بحتة أثبتنا فيها بأنه غير مادة لأن المادة تحتاج إلى مكان وهو عين ما ذهب إليه الحكماء إضافةً إلى قوله تعالى : **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾**(١٩) . وقوله تعالى : **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير﴾**(٢٠) .

وبهذا الإعتبار يأتي معنىٰ قوله تعالى : **﴿الله نور السمٰوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌّ﴾**(٢١) ، بأن آياته الدالة على وجوده وعظمته ـ جل جلاله ـ موجودة في السماء يستدل بها أهلها عليه ، كما هي موجودة في الأرض يستدل بها أهلها عليه أيضاً ، فلا مجال لإنكاره ، وبراهينه ظاهرة وآياته باهرة ، كما أن النور لا مجال لإنكاره عندما يراه الرائي . فالآية تشبيه حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً ، ولو أردنا أن نقدر ذلك لقلنا : (الله كنور السمٰوات والأرض ظهوراً وتجلياً) . ومعنىٰ قوله ـ سبحانه ـ : نور السمٰوات والأرض شمول قدرته وآياته الدالة عليه لهما فلا يخلو منها مكان في هذا الكون كالنور الذي يشمل الكون ولا يحول دونه حائل .

وعلى هذا يحمل قول الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : (ولو كشف لي الغطاء ما ازددات يقيناً) .

(١٩) سورة النساء ، آية : ١٥٣ .

(٢٠) سورة الأنعام ، آية : ١٠٣ .

(٢١) سورة النور ، آية : ٣٥ .

الكلام في التقوى

أما السعادة في التقوىٰ التي ذكرها في النص السابق : (وأسعدني بتقواك) فإن السعيد من سعد بطاعة الله والشقي من شقي بمعصيته حتى أن هذا المعنىٰ قد أصبح حقيقة لفظية ، بل أصبح من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى دليل . فالسعادة والشقاء لا يمكن تصورهما إلّا في مجال الطاعة والمعصية . ولكن السعادة بالتقوىٰ هي أخص من مطلق السعادة التي هي مقابلة للشقاء ، فإن التقوىٰ درجة عالية يتنافس فيها المقربون إلى الله ، فالطلب الصادر منه ـ عليه السلام ـ بأن يسعده الله بصفة التقوىٰ التي يتنافس فيها المتنافسون وقد وصف أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ المتقين في كلامٍ له في نهج البلاغة حيث أن صاحباً لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يقال له همام كان رجلاً عابداً ، فقال له : يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتىٰ كأني أنظر إليهم فتثاقل ـ عليه السلام ـ عن جوابه . ثم قال : يا همام ، إتق الله وأحسن : فـ ﴿**ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾[٢٢] . فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ثم قال ـ عليه السلام ـ : (أما بعد ، فإن الله ـ

(٢٢) سورة النحل ، آية : ١٢٨ .

سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم ، أمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معايشهم ، فوضعهم من الدنيا مواضعهم . فالمتقون فيها هم أهل الفضائل : منطقهم الصواب ، وملبسهم الإقتصاد ، ومشيهم التواضع . غضوا أبصارهم عن ما حرّم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي أنزلت في الرخاء . ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم وصغر ما دونه ما أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رأها ، فهم فيها معذبون . قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة صبروا أياماً قصيرةً أعقبتهم راحة طويلة . تجارة مربحة يسرها لهم ربّهم أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً . يحزنون به أنفسهم ويستشيرون به دواء دائهم فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً ، وظنوا أنها نصب أعينهم . وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم ، وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله فكاك رقابهم . وأما النهار فحلماء وعلماء ، أبرار أتقياء . قد براهم الخوف بري القدام ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضىٰ ؛ وما بالقوم من مرضٍ ويقول : لقد خولطوا ! ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير . فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون . إذا زكي أحد منهم خاف ممّا يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي

مني بنفسي ! أللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون . فمن علامة أحدهم ، أنك ترىٰ له قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وحرصاً في علم ، وعلماً في حلم ، وقصداً في غنىٰ ، وخشوعاً في عبادة ، وتحملاً في فاقة ، وصبراً في شدّة ، وطلباً في حلال ، ونشاطاً في هدى وتحرجاً عن طمع . يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل . يمسي وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر . يبيت حذراً ، ويصبح فرحاً ، حذراً لما حذر من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن إستصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب . قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقىٰ ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل . تراه قريباً أمله ، قليلاً زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزوراً أكله ، سهلاً أمره ، حريزاً دينه ، ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه . الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون . إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين ، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين . يعفو عمّن ظلمه ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، ليّناً قوله ، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلاً خيره ، مدبراً شره . في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور . لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ولا ينسىٰ ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق . إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعلو صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له . نفسه منه في غنىٰ ، والناس منه في راحة . أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه . بعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكرٍ وخديعةٍ .

قال : فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها .

فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : أما والله لقد كنت أخافها عليه . ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ؟ وقال له قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال ـ عليه السلام ـ ويحك ، إن لكل أجلٍ وقتاً لا يعدوه وسبباً لا يتجاوزه فمهلاً ، لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك ! . قال ابن أبي الحديد : إنهم من شدة شوقهم إلى الجنة ومن شدة خوفهم من النار تكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم ، لولا أن الله ـ تعالى ـ ضرب لهم آجالاً ينتهون إليها ، ثم ذكر أن الخالق لما عظم في أعينهم استصغروا كل شيء دونه ، وصاروا لشدة يقينهم ومكاشفتهم كمن رأىٰ الجنة فهو يتنعم فيها ، وكمن رأىٰ النار وهو يعذب فيها ، ولا ريب أن من يشاهد هاتين الحالتين يكون على قدم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء وهذا مقام جليل ، ومثله قوله ـ عليه السلام ـ في حق نفسه : (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) ثم وصفهم بحزن القلوب ونحافة الأجسام وعفة الأنفس ، وخفة الحوائج ، وأن شرورهم مأمونة على الناس وأنهم صبروا صبراً يسيراً أعقبهم نعيماً طويلاً[٢٣] .

وقد سجل هذه الصفات التي امتاز بها المتقون والمذكورة على لسان الإمام ـ عليه السلام ـ كثيرٌ من الشعراء ، فوصفوهم بما يليق بمقامهم ، ويتناسب وعلو قدرهم . ومنهم الشيخ حسن الدمستاني البحراني في لاميته المشهورة حيث قال :

ألا ترىٰ أولياء الله كيف قلت ... طيب الكرىٰ في الدياجي منهم المقل

يدعون ربّهم في فك عنقهم ... من رق ذنبهم والدمع منهمل

(٢٣) شرح النهج الحديدي : ج١٠ ص١٤٢ .

خمص البطون طوىً ذبل الشفاة ظماً عمش العيون بكاً ما عبّها الكحل
يقال مرضى وما بالقوم من مرضٍ أم خولطوا خبلاً حاشاهم الخبل

ومن جملة أبيات قلتها في وصف المتقين أيضاً ومنها :

يقومون إن نام الأنام لربّهم بجنح الدجىٰ والليل أسودُ مظلمٌ
يعدّون حبات السماء كأنهم حيارىٰ وجنب الأفق بالليل معتم
يناجون باريهم كأن عقولهم تشد إلى ذاك الجناب فتحجم
عيون لهم عبرىٰ وهل عين عاشقٍ من الحب في محبوبها الدمع تسجم
فهم سادة الدنيا عبيد لربّهم إذا قيل من هم سادة قيل ها هم
بهم يمسك الله السماء وذكرهم به ينزل الغيث السحاب المركم

أما بالنسبة إلى الشقاء بالمعصية فهو ظاهر أيضاً كظهور السعادة بالتقوىٰ التي هي أخص من الطاعة .

ولا يخفىٰ على المتأمل أن ما بين العبارتين طباقاً ظاهراً ـ كما اصطلح علىٰ ذلك علماء البلاغة ـ وهو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنىٰ . وأنواعه كثيرة ذكر القرآن الكريم في مطاويه كثيراً من الآيات التي تترائىٰ للإنسان مثل قوله تعالى : ﴿**هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن**﴾[٢٤] وقوله تعالىٰ : ﴿**وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود**﴾[٢٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿**وأنه هو أضحك وأبكىٰ ، وأنه هو أمات وأحيا**﴾[٢٦] .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (وأسعدني بتقواك) وقوله : (ولا تشقني بمعصيتك) أعطى العبارة حقها من البريق الذي يطفح جماله للرائي ،

---

(٢٤) سورة الحديد ، آية : ٣ .

(٢٥) سورة الكهف ، آية : ١٨ .

(٢٦) سورة النجم ، آية : ٤٣ .

ويتردد صداه بنغمة سحرية في أذن السامع .

والشقاوة خلاف السعادة مدارهما القرب والبعد من الله بالطاعة والمعصية . قال الراغب : والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة . فكما أن السعادة في الأصل ضربان : سعادة أخروية ، وسعادة دنيوية . ثم إن السعادة الدنيوية ثلاث أضرب : سعادة نفسية وبدنية وخارجية ، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب ـ إلى ان قال ـ قال بعضهم : قد يوضع الشقاء موضع التعب ، نحو شقيت في كذا ، وكل شقاوة تعب ، وليس كل تعب شقاوة . فالتعب أعم من الشقاوة ، وعلى هذا المعنىٰ فسروا قوله تعالى : **﴿طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ﴾**[٢٧] أي لتتعب نفسك في سبيل تبليغه بالتكلف في حمل الناس عليه ، وعلى هذا نقول أن بين الشقاوة والتعب عموم وخصوص مطلق .

أما الشقاوة باعتبار آخر فهي كما قلنا تواً ، وكما أوضحت الآيات المتقدمة تتحقق بمعصية الله ، كما أن السعادة تتحقق بطاعته . وهذا ما يلوح في أفق العبارة ، فإنه ـ عليه السلام ـ في مثل ذلك الموقف لا يمكن أن يطلب شيئاً من حطام الدنيا ونفاياتها مقدماً ذلك على الرغبة إليه في دار الآخرة وما أعد الله للمتقين فيها من النعيم المقيم . ومن أجدر بمثل الحسين ـ عليه السلام ـ ان يرتفع بسؤاله عن مستوىٰ البهيمية البلهاء في مثل ذلك المكان والزمان ، ويطلب من ربّه بسؤال المسكين المستكين المطمئن إلى الإجابة بان يبعده عن ذلك الشقاء بالمعصية التي تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل من النار . قال تعالى : **﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلّا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق .**

---

(٢٧) سورة طه ، آية : ١ ـ ٢ .

خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك ، إن ربّك فعالٌ لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ﴾[٢٨] . وقوله تعالى : **﴿وأدعو ربي عسىٰ أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾**[٢٩] ، وقوله تعالى : **﴿قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾**[٣٠] .

فالشقاء المشار إليه في عبارته ـ عليه السلام ـ هي الشقاوة بالمعنىٰ الأخص أي الشقاوة في الآخرة وليست الشقاوة في الدنيا ؛ بقرينة المعصية التي يحاسب عليها الإنسان في الدار الآخرة .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى طلب آخر من الله بعد أن فوض إليه الأمور كلها فسأله أن يختار إليه منها أصلحها وأرضاها له تعالى فقال ـ عليه السلام ـ : (وخر لي في قضائك ، وبارك لي في قدرك) فالإختيار في القضاء غير وارد بالنسبة للعبد ضرورة ولكن الله ـ سبحانه ـ يختار لعبده ما هو صالح له في آخرته ودنياه ، وما كان مرضياً ـ سبحانه ـ خصوصاً عندما يطلب العبد من الله أن يختار له في قضائه ، ويبارك في قدره . وهذا منتهىٰ التسليم ، ومنتهىٰ الثقة بالله من العبد ، والله أكرم من أن يخيب عبده بعد أن أمله ، أو يرده بعد أن سأله . وفي دعاء الإفتتاح الوارد عن الإمام المنتظر ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ يقول (ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور) .

أما مسألة القضاء والقدر فقد بحثناها مفصلاً في الجزء الأول من الكتاب .

---

(٢٨) سورة هود ، آية : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢٩) سورة مريم ، آية : ٤٨ .
(٣٠) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٦ .

ثم علل ـ عليه السلام ـ هذا الطلب من الله بعد العلم بأن الأمور كلها تجري منه ـ سبحانه ـ بقضاءٍ وقدر بقوله : (حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت) وذلك لأنه يريد أن يكون مسلماً في الأمور كلها إليه تعالى حتى في مسألة التأخير والتعجيل ، فإنه ـ عليه السلام ـ عندما جعل لله الخيرة في الأمور كلها وهي تجري بقضاء وقدر ، ذكر أن هذا التأخير أو التعجيل اللذين يجريان بالقضاء والقدر هو في مصلحة العبد ، لأن الله هو العالم بعواقب الأمور ، فإن رأى المصلحة في تعجيل طلب العبد عجله له ، وإن رأىٰ المصلحة في التأخير أخره عنه لوقت الحاجة الماسة ، وقد عرضنا شيئاً من ذلك في بحثٍ سابقٍ وقد تعرض الكتاب العزيز لهذه العلاقة بين الله وبين عبده في قوله تعالى : **﴿وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾**[31] ، وقوله تعالى : **﴿فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**[32] .

إذاً فظاهرة التأخير والتعجيل أن يسلم بها ، وأن يرضىٰ بما رضى الله له ، بل ويحب ذلك لأن الله قد أحب له ذلك ، بل عليه أن يؤثر رضىٰ الله ـ تعالى ـ على رضى نفسه ؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ لا يزال رؤوفاً بالعبد رحيماً به .

---

(٣١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٣٢) سورة النساء ، آية : ١٩ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ في نَفْسي ، وَالْيَقينَ في قَلْبي ، وَالإخْلاصَ في عَمَلي ، وَالنُّورَ في بَصَري ، وَالْبَصيرَةَ في ديني ، وَمَتِّعْني بِجَوارِحي ، واجْعَلْ سَمْعي وَبَصَري الْوارِثَيْنِ مِنّي ، وَانْصُرْني عَلىٰ مَنْ ظَلَمَني ، وَارْزقْنِي مَأرَبِي وَثَاري ، وَاَقِرَّ بِذٰلِكَ عَيْني] .

اللُّغَة

البصيرة : عقيدة القلب أو إسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمن وقيل: البصيرة الفطنة ، تقول العرب : أعمىٰ الله بصائره عن ابن الإعرابي ، وفي حديث ابن عباس أن معاوية لمّا قال لهم : يا بني هاشم تصابون في أبصاركم قالوا له : وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم . ويقال فعل ذلك على بصيرة أي على عمد . وإنه لبصير بالأشياء أي عامل بها . ويقال للفراسة الصادقة : فراسة ذات بصيرة . والبصيرة العبرة ، قال الشاعر قيس بن ساعدة الأيادي :

في الذاهبين الأولين   من القرون لنا بصائر

أي عبّر فبصرت بالشي علمته وعلى هذا المعنىٰ حمل قوله تعالى : ﴿**بصرت بما لم يبصروا به**﴾[1] .

ومتعني : متعه الله وأمتعه بكذا أبقاه ليستمتع به وأمتعه الله بكذا ومتعه بمعنىً واحد وفي التنزيل : ﴿**وأن استغفروا ربّكم وتوبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى**﴾ . أي يبقيكم في عافية إلى وقت وفاتكم ، ومتعة المرأة ما وصلت به بعد الطلاق والمتعة بضم الميم وكسرها العمرة إلى الحج والمتعة أيضاً التمتع بالمرأة لا تريد إدانتها لنفسك ، وهي سائغة في دين الإسلام .

بجوارحي : جوارح الإنسان أعضاؤه وعوامل جسده كيديه ورجليه واحدتها جارحة لأنهن يرجحن الخير والشر أن يكسبنه والجوارح من الطير والسباع والكلاب : ذوات الصيد لأنها تجرح لأهلها أي تكسب لهم الواحدة جارحة ، فالبازي جارحة ، والكلب الضاري جارحة . قال الأزهري سميت بذلك لأنها من قولك جرح واجترح ، قال تعالى : ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾[2] . وقال تعالى : ﴿**قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾[3] .

مأربي : الإربة والإرب والمأرب كله بمعنىٰ واحد قال تعالى : ﴿**ولي فيها مآرب أخرىٰ**﴾[4] . وقال تعالى : ﴿**أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أُولي الأربة**﴾[5] . والأرب هو الدهاء والبصر بالأمور وهو من العقل ،

---

(١) سورة طٰه ، آية : ٩٦ .

(٢) سورة هود ، آية : ٣ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ .

(٤) سورة المائدة ، آية : ٤ .

(٥) سورة طٰه ، آية : ١٨ .

ومنه الأريب أي ذو وهي وبصر . قال قيس بن الخطيم :

أربب بدفع الحرب لما رأيتها على الدفع لا تزداد غير تقارب

وفي الحديث قالت قريش لا تعجلوا في الفداء لا يأرب عليكم محمد وأصحابه أي يتشددون عليكم فيه . يقال أرب الدهر يأرب إذا اشتد .

ثأري : الثأر الطلب بالدم وقيل الدم نفسه وقيل الثأر قاتل حميمك ، قال الأصمعي : أدرك ثؤورته إذا أدرك من يطلب ثأره ويقال ثأرت القتيل وبالقتيل ثأراً وثؤورة فأنا ثائر أي قتلت قاتله قال الشاعر :

شفيت بـه نفسي وأدركت ثؤرتي بني مالك هل كنت في ثؤرتي نكسا

والثائر الذي لا يبقىٰ على شيء حتى يدرك ثأره وثأر بـه طلب دمه . وقال الجوهري : يا ثارات فلان أي يا قتلته ، وقال أيضاً الثأر المنيم الذي إذا أصابه الطالب رضي به فنام بعده .

أقر : القر البرد عامة بالضم وقال بعضهم : البرد في الشتاء والصيف يقال : هذا يومٌ ذو قر أي ذو برد وقال ابن السكيت : القرور الماء البارد يغسل به . ومنه قول الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ في جلد الوليد ابن عقبة : ولِّ حارّها من تولىٰ قارّها وقيل لرجل ما نشر أسنانك ؟ فقال أكل الحار وشرب القار ، وليلة قرّة وقارّة أي باردة والقر دموع باردة تخرج من عيني الإنسان عند شدة الفرح واختلفوا في اشتقاق ذلك ، فقال ابن سيدة : قرت عينه تقر معناه بردت وانقطع بكاؤها واستحرارها بالدم فإن للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة وقيل هو من القرار ، أي رأت ما كانت متشوقة إليه فقرت ونامت ، وقال أبو طالب : أقر الله عينه أنام الله عينه ، والمعنىٰ صادف سروراً يذهب سهره فينام وأنشد :

أقر به سواليك العيونا

أي نامت عيونهم لمّا ظفروا بما أرادوا وقوله تعالى : ﴿فكلي واشربي وقري عيناً﴾[٦] . قال الفرّاء جاء في التفسير أي طيبي نفساً ، قال : وإنما نصبت العين لأن الفعل كان لها فصيرته للمرأة ، معناه لتقر عينك ، فإذا حوّل الفعل عن صاحبه نصب صاحب الفعل .

البيان

شرع في هذه الفقرة في الطلب من الله لتهذيب النفس التي ترفع الإنسان إلى الملأ الأعلىٰ فقال : (أللهم اجعل غناي في نفسي والمعروف من ذلك أن غنى النفس هو عدم النظر إلى ما عند الغير ، وغض الطرف عمّا أنعم الله به على الآخرين من الناس . وبمعنى آخر هو الإبتعاد بالنفس عن الطمع والجشع والحسد وسائر النزعات الخبيثة التي تدفع الإنسان إلىٰ مزالق الهلكة ، وتوقعه في مهاوي الردىٰ .

وغنىٰ النفس الذي أشار إليه ـ عليه السلام ـ بمعنى آخر هو القناعة التي يكون الفقير بها غنياً ، ويكون بها الصعلوك ملكاً ، فإن عدم مدِّ الأعناق إلى غير ما قسم الله للإنسان ورزقه من الخير يجعله ذليلاً وإن كان عزيزاً ، فالقانع هو الذي يرضىٰ بما رضي الله له من الرزق ويرىٰ القليل كثيراً .

وقد ورد في المأثور أن من رضي من الله بقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل .

على أن النفس الإنسانية لو نظرنا إليها بصورة جدية لوجدنا أنها عاملٌ من جملة العوامل التي تلح على الإنسان في مجال المعصية ، وإلاّ فإن

---

(٦) سورة النور ، آية : ٣١ .

العوامل التي تؤثر على الإنسان تختلف باختلاف البيئات والعصور . فالمؤثرات الخارجية من مظاهر الحياة المتطورة والمتهورة تمارس الضغوط على الإنسان فتجعله بين شقي الرحىٰ ، إلّا ان المضاد الذي أعطي للإنسان للتغلب على هذه العوامل الداخلية والخارجية تجعله بفضل الله ورعايته ، يكون في حصن حصين من كل ما يخاف ويحذر .

وإذا نظرنا ملياً إلى أسباب المحن والبلاء في هذه الدنيا وجدنا أن الدافع الأساس لذلك هو عدم مراعاة الجوانب الدينية والأوامر الإلٰهية ، فيلقي الإنسان لنفسه الحبل على الغارب مع علمه بأن النفس بهذا المستوىٰ هي ما أشار إليها القرآن في قوله تعالى : **﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾**[٧] ، ومع علمه أيضاً بأن الأوامر والنواهي الإلٰهية لا تعدو مصلحة الإنسان .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (إجعل غناي في نفسي) يعني إجعلني بما قسمت لي من الرزق ، وأسلم بما قدرت عليَّ .

---

(٧) سورة مريم ، آية : ٢٦ .

اليقين ومراتبه

(واليقين في قلبي) واليقين هــو عبــارة عن منتهىٰ درجــات العلم ويقابله الجهل المركب وهو خلو النفس عن العلم وإذعانها بما هو خـلاف الواقع مع إعتقاد كونها عالمة بما هو الحق فصاحبه لا يعلم ، ولا يعلم أنه لا يعلم ، ولذا سمي مركباً وهو أشد الرذائل وأصعبها وإزالته في غاية الصعوبة وقد إعترف أطباء النفوس بالعجز عن معالجته ، كما إعترف أطبـاء الأبدان بالعجز عن معالجة الأمـراض المزمنـة ، ولذا قـال عيسىٰ ـ عليه السـلام ـ (إني لا أعجز عن معالجة الأكمة والأبرص وأعجز عن معالجة الأحمق) . والسر فيه أنه مع قصور النفس بهذا الإعتقاد الفاسـد لا ينتبه على نقصـانها فيتحرك للطلب لنيل الكمال ، فيبقىٰ في الضلالة والردىٰ ما دام باقياً في دار الدنيا .

أما اليقين فأول مراتبه إعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت .

قال في جامع السعادات : فالإعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقيناً وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع ، بل هو ـ كما أشير إليه ـ جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة أو خطأ في الإستدلال أو حصول مانع من

إفاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك ، فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك ، ومن حيث إعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضداً للجهل المركب .

وبالجملة اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها ومن وصل إليه فاز بالرتبة القصوىٰ والسعادة العظمىٰ . قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله ـ : (قل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (اليقين الإيمان كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ؛ لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقىٰ له فضل يدخل به الجنة) . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : (إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله ـ تعالى ـ من العمل الكثير علىٰ غير يقين) .

وعنه ـ عليه السلام ـ : (إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط) . وفي وصية لقمان لإبنه : (يا بني : لا يستطاع العمل إلّا باليقين ، ولا يعمل المرء إلّا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتىٰ ينقص يقينه) .

وأما مراتب اليقين فقد ذكروها متسلسلة بحسب ضعفها وقوتها وهي كما يلي :

أولاً : **علم اليقين** : وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع ـ كما مر ـ وهو يحصل من الإستدلال باللوازم والملزومات ومثاله اليقين بوجود النار مشاهدة الدخان وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿**كلّا لو**

تعلمون ، علم اليقين﴾[8] .

ثانياً : عين اليقين : وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن وهو أقوىٰ في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر ، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بقوله : (لم أعبد ربّاً لم أره) بعد سؤال ذعلب اليماني أرأيت ربّك ؟ وبقوله ـ عليه السلام ـ (رأى قلبي ربي) وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً وهذا ما أشار إليه تعالىٰ في كتابه العزيز بقوله : **﴿ثم لترونها عين اليقين﴾**[9] .

ثالثاً : حق اليقين : وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرىٰ العاقل ذاته رشحةً من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير إحتراق وهذا إنما يكون لكمّل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وأنسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة تتوقف علىٰ مجاهدات شاقة ورياضيات قوية ، وقطع أصول الشهوات والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة :

وكيف ترىٰ ليلىٰ بعين ترىٰ بها ... سواها وما طهرتها بالمدامع
وتهوىٰ هواها والفؤاد بغيرها ... تعلق هذا مانع أي مانع[10]

---

(٨) سورة يوسف ، آية : ٥٣ .
(٩) سورة التكاثر ، آية : ٥ .
(١٠) سورة التكاثر ، آية : ٧ .

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوسة عن إفاضة الحقائق اليقينية إليها لكانت عاملة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة ، وصارت قابلة لحمل أمانة الله التي هي المعرفة والتوحيد . فحرمان النفس عن معرفة أعيان الموجودات إنما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله ـ إلى مانع التعصب والتقليد بقوله : (كل مولودٍ يولد على الفطرة ، حتىٰ يكون أبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه) وإلى مانع قذورات المعاصي وصدئها بقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض)(١١) .

وإلى هذه المرتبة من مراتب اليقين أشار قوله تعالى : **﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾**(١٢) .

ومما تقدم نستطيع أن ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ في الفقرة المطروحة : (واليقين في قلبي) فإن اليقين بمراتبه الثلاثة الآنفة الذكر مقرها قلب الإنسان ، وهو لم يخصص في كلامه مرتبة دون أخرىٰ من هذه المراتب ، ولكنه أراد اليقين كاملاً بجميع مراتبه واليقين بحسب ما مرّ تعريفه شامل لجميع أنواع الكمالات الإنسانية .

أما الإخلاص في العمل فهو تجريده عن الرياء والسمعة ، ولأن الله سبحانه وتعالى **﴿لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**(١٣) ، فالعمل الخالص هو الذي يوصل صاحبه إلى درجة القبول ؛ لأن العمل بهذا الإعتبار له آفات تحول بينه وبين الإخلاص ، ومن ثم تحول

---

(١١) هذا البيت من تذييل المؤلف .

(١٢) جامع السعادات : ج١ ص١٦٠ .

(١٣) سورة الواقعة ، آية : ٦٥ .

بينه وبين القبول . أما هذه الآفات التي تراود الإنسان لإفساد عمله لتجعله على كف عفريت فهي نزعات فاسدة تنشأ من دوافع تجعل الإنسان يرتطم بها ، ومنها :

١ ـ **الرياء** : وهو كما أشرنا إليه توأ مفسدٌ للعمل وهو على حد الشرك بالله وقد ورد في كثير من الأحاديث ذمّه ، ورفض العمل إذا كان مشوباً به . فقد ورد في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في تفسير الآية وهي قوله تعالىٰ : **﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾**[١٤] قال : (إن ربّكم يقول : أنا خير شريك فمن أشرك معي في عمله أحداً من خلقي تركت العمل كله له ولم أقبل إلاّ ما كان لي خالصاً ، ثم قرأ النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فمن كان يرجوا لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً) .

وفي تفسير العياشي عن زرارة بن حمران عن أبي جعفر وأبي عبدالله ـ عليهم السلام ـ قالا : لو أن عبداً عمل عملاً يطلب به رحمة الله للدار الآخرة ثم أدخل فيه رضىٰ أحد من الناس كان مشركاً . والمراد بالشرك هو الشرك الخفي غير المنافي لأصل الإيمان بل لكماله قال تعالى : **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾**[١٥] .

وفي الدر المنثور ، أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قالا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ (لو لم ينزل على أمتي إلاّ خاتمة سورة الكهف لكفتهم) . فالرياء وهو عمل لغير الله وهي حالة نفسانية تعتري الإنسان وسببها وهو الإهتزاز في الثقة بالله تعالى مما يلجىء الإنسان

---

(١٤) سورة النساء ، آية : ٤٨ .

(١٥) سورة الكهف ، آية : ١١٠ .

إلى التعويل على غيره بأي شكل من الأشكال ، وهـذا من عمل الشيـطان يوحى إلى أوليائه بعمل الوساوس للمؤمنين .

٢ ـ **العجب** : وهو أن يأخذ الإنسان الغرور في عمله ويمتدح بذلك نفسـه وهذا ممـا يبعد الإنسـان عن العمل الخـالص الذي يقـربـه إلى الله زلفىٰ .

وقيل : هو استعظام نفسه لأجل ما يرىٰ لها من صفـة كمال ، سـواءً كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا ، وسواءً كانت صفة كمـالٍ في نفس الأمر أم لا .

قال النراقي ـ رحمه الله ـ : وقيل هو إعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلىٰ المنعم . ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يـرى لنفسه مزيةً على غيره في صفة الكمال ، فـالكبر يستـدعي متكبراً ومتكبـراً عليه .

والعجب لا يستـدعي غير المعجب ، بـل لـو لم يخلق الإنسـان إلاّ وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً إلاّ أن يكون مع غيره ، وهو يرىٰ نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ولا يكفي أن يستعظم نفسه إلاّ أن يكون متكبراً ، فإنه قد يستعظم نفسه ولكن يرىٰ في غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وليس متكبراً ولا يكفي أن يستحقر غيره .

والحـاصل أن العجب مجـرد إعظام النفس لأجـل كمال أو نعمـة ، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ، ونسيان إضافتهما إلى الله ، وقد أشار إلى هذا الكتاب العزيز في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**أفمن زين له سوء عمله**

فرآه حسناً﴾[١٦] .

وقال أبو الحسن ـ عليه السلام ـ : (العجب درجات منها ان يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ومنها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله ـ عزّ وجلّ ـ ولله عليه فيه المنّ) .

والعجب من المهلكات العظيمة ، وأرذل الملكات الذميمة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (ثلاثة مهلكات : شحٌّ مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه) وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العجب ، العجب) .

وقال أيضاً ـ صلى الله عليه وآله ـ : (بينما موسىٰ ـ عليه السلام ـ جالس إذ أقبل عليه إبليس وعليه برنس ذو ألوان ، ولما دنا منه خلع البرنس ، وقام إلى موسىٰ ـ عليه السلام ـ فسلم عليه ، فقال له موسىٰ : من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، قال : أنت ! فلا قرب الله دارك ، قال : إني إنما جئت لأُسلم عليك لمكانك من الله ، فقال له موسىٰ ـ عليه السلام ـ : فما هذا البرنس ؟ قال : به أختطف قلب بني آدم ، فقال موسىٰ : فأخبرني بالذنب الذي أذنبه إبن آدم إستحوذت عليه ، قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه) .

وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : (دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدِّيق ، والعابد فاسق ، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدل بها فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق الندم على فسقه ويستغفر الله بما صنع من الذنوب) . وقال

---

(١٦) سورة يوسف ، آية : ١٠٦ .

(١٧) سورة فاطر ، آية : ٨ .

الصادق ـ عليه السلام ـ : (إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً) .

وقال ـ عليه السلام ـ : (أتىٰ عالمٌ عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد منذ كذا وكذا ؟ قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتى تجري دموعي . فقال له العالم : فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك مدل ، إن المدل لا يصعد من عمله شيء)[18] .

والأخبار في هذا الباب كثيرة لا يأتي عليها حصر البيان وتوثب القلم .

وهناك أمور أخرىٰ تسبب عدم الإخلاص في العمل غير الرياء والعجب مثل الكبر وحب السمعة مما يسبب فساد العمل وينافي الإخلاص فيه لوجه الله الكريم .

ومن كل ما تقدم يظهر لنا معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (والإخلاص في عملي) والمقصود بذلك هو أن يكون العمل نقياً من الأكدار والأقذار التي تبعده عن التقرب به إلى الله .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى طلب آخر من الله تعالى لا ينفك عمّا هو فيه من التضرع والخشوع فقال : (والنور في بصري) ولأول وهلة يجزم الإنسان بأن المقصود من سؤاله هذا أن ينظر إلى آيات الله في سمائه وأرضه وما ذرأ في هذا الكون من حركة وسكون وتعاقب ليلٍ ونهارٍ وليس المقصود من ذلك زيادة اليقين عنده فإنه كامل الإيمان ولكن المقصود هو الترويع

---

(١٨) جامع السعادات : ص٣٥٩ .

بهـذه الآيات والإعجـاب بهـا والتلذذ بمشـاهـدهـا التي تختلف بين آونـةٍ وأُخرىٰ .

أما بحث هذا الموضوع من وجهة النظر العلميـة فإنّـا قد أشـرنا إلى ذلك بصورة عابرة في البحث السابق في موضوع الرؤية ونريد أن نبحث هنا هذا الموضوع مرةً ثانيةً بما يتسنىٰ لنا فنقول :

النور والتميز في حاسة البصر

كما أن السمع يتم بواسطة الصوت ، كذلك فإن الإبصار يتم بواسطة النور ولا رؤية بدون شعاع ضوئي ، ولقد احتار العلماء في معرفة ماهية النور لأنه ينتقل ولو لم يكن هناك وسط مادي ، فإذا قمنا بتجربة الصوت وهي إحضار حوجلة ثم محاولة تفريغها من الهواء ووضع جرس كهربائي رنان داخلها فإن الصوت يضعف تدريجياً من نقص الهواء ، أما النور فلا يتأثر البتة فما هي طبيعته يا ترىٰ ؟ درست النور وخواصه فوجد أنه ينتشر بسرعة جبارة تبلغ (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة أي أنه يقطع المسافة ما بين الشمس والأرض والتي تبلغ ٩٣ مليون ميل في حوالي ثمان دقائق وسطياً ، كما أنه ينكسر في الأوساط الشفافة وله قانون خاص في موضوع الإنكسار ، أما طبيعته فقالوا فيها أقوال منها أنه فوتونات طاقة !!

ينطلق الشعاع الضوئي من الجسم إلى العين ويخترق سلسلة أوساط شفافة كاسرة للنور حتى يقع على منطقة حساسة في العين هي منطقة الشبكية وفيها العناصر الحساسة للنور حيث تتأثر منها وينتقل هذا التأثير بشكل سيالة عصبية عبر ألياف العصب البصري إلى السرير البصري ومن السرير تصدر عصبية تشبه الإشعة للفص القفوي حيث يعتبر مركز الرؤية العام في الدماغ وهو مضاعف في فصي الدماغ بواسطة العين وما تتلقىٰ من

نور يمكن للإنسان أن يتعرف على المحيط الخارجي تماماً ، ويشترط أن تكون الرؤية بالعينين حتى تكون مجسمة كأوضح ما تكون ، وبواسطة العين يتعرف الإنسان على الأشياء من ناحية شكلها هل هي مدورة أو مربعة أو مستطيلة أو كروية أو مسطحة ، كما يعرف الألوان لأن اللون الأبيض العادي هو خليط من اللون الأخضر والأحمر والبنفسجي وبقية الألوان تشتق من هذه الألوان الثلاثة كما يتعرف على أبعاد الشكل الذي يراه وتناسب أبعاده مع بعضها البعض ، وعن طريق البصر تقدر المسافات بمنتهىٰ الدقة ، فالسائق من خلال الرؤية يقدر تماماً المسافة التي تفصل ما بين سيارته والسيارة التي أمامه ، والذي يمشي بقدر المسافات التي تحيط به تماماً يتجنب البشر الآخرين فلا يصطدم بهم ، كما لا يصطدم بالأشياء التي تكون في طريقه كما يقدر الإنسان بواسطة البصر البعد بين شيئين يقع نظره عليهما ، ويعتبر البصر الجهاز الذي بواسطته يقرأ الإنسان فيفهم ما يقرأه ، ويبصر المنظر فيفهم ما يبصر ، وهكذا فإن جهاز البصر مع السمع يعتبران جهاز التمييز عند الإنسان قال تعالى : **﴿قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَّنْ إله غير الله يأتيكم به أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾**(١٩) وبواسطة ذلك يتزن الإنسان في حركاته كما يتزن ببصيرته على المستوى الفكري والنفسي . وتمتاز العين باحتوائها على أوساط شفافة كاسرة للنور ، مهمتها ان تجمع الحزم الضوئية حتى تلتقى في الشبكية تماماً وبذلك تحصل الرؤية الواضحة وإذا اختل هذا الشيء فوقع خيال الشيء المرئي أمام الشبكية أو خلفها حدثت عيوب الرؤيا مثل الطمس والحسر وسواه .

إن تفاعل الحدقة السريع مع النور وانقباضها على قدر درجة

---

(١٩) سورة الأنعام ، آية : ٤٦ .

الإضاءة ، يتعلق بمراكز انعكاسية موجودة في المناطق السفلىٰ من الـدماغ ولكن تقدير المسافات والأبعاد وفهم المرئيات ، يتعلق بقشر الـدماغ حيث ترقد مراكز الوعي والإدراك والفهم والتحليل والذاكرة والإبـداع ، واصابـة هـذه المناطق تؤدي إلى العمى الـروحي ، أي ان الإنسان المصـاب يرى الأشيـاء ولكن لا يفهمها قـال تعـالى : ﴿**وتـراهم ينـظرون إليـك وهم لا يبصـرون**﴾[٢٠] وهكذا نـرى أن المخ يتـدخـل بشكـل كبيـر في مـوضـوع الـرؤية ، وحتى فهم الألـوان يبدو ان الـدماغ هـو الذي يتـدخل أيضـاً في فهمهـا ، ولقد وجـد ان تخريب بعض المنـاطق في الفص القفوي يعـطي نتائج متباينة فهناك مناطق للرؤية العادية ، وأخرى للفهم والإدراك ، وثالثة للألوان ، وهكذا . . . .

إن العين فيها إحساسان للرؤية :

الأول : الإحسـاس عـديم اللون . **الثـاني** : الإحسـاس اللولي . وتمتاز العصبات بميزتين الإحساس للرؤية الطفيفة والنور العـادي ، وتمتاز المخاريط بميزتين الرؤية المركزة شديدة الإنارة وتمييز الألوان .

إنك إذا دخلت إلى الظلام فجأة بعد أن كنت في الضياء أنك لا ترىٰ شيئاً البتة ، ثم تتوضح لك الأشياء قليلاً قليلاً . إن هـذا يعود إلى مـطابقة العين إلى النور إلى الظلام بواسطة المخاريط . والعصبات ، فعندما تدخل الظلام تبدأ المخاريط عملها حتى تصل قوة العين إلى خمسين ضعفاً فتشعر أنك ترىٰ الأشياء أكثر وضوحاً ، ولكن اختصاص الرؤيا الضعيفة ، أو الرؤيا الليلية يعود إلى العصيات ، فتبدأ عملها وما إن تنقضي فترة خمس وأربعين دقيقة حتى تصبح قوة العين في التمييز خمسمائة ضعف ، وقد وجد أن السر

---

(٢٠) سورة الأعراف ، آية : ١٩٨ .

يعود في هذا إلى مادة خاصة في العصبيات هي مـادة (الرودوبسين) وهي مادة ابروتينية ذات وزن ذري يبلغ مائتين وسبعين ألفـاً ، وذات لون أحمـر وهي تنقلب في النــور إلى مــادة صفــراء مبيضــة ، وتتحلل إلـى مــادة (الريتينين) ، ومادة ابروتينية أخرىٰ فيها ڤيتامين (أ) .

إن العين تضـاعف من قدرتهـا على التمييـز بشكـل هـائـل لا يكـاد يصدق ، فأنت ترىٰ في وضح النهار حيث تكون الإنارة متوسطة وتبلغ هذه واحد أمبير (وحدة ضوئية للرؤية) ولكن هذه القدرة يمكن ان ترتفع ستـة عشر ضعفاً ، كمـا يمكن أن تنخفض إلى عشرين مليـون ضعف ، وهكذا يبلغ إحساس العين ما بين الحدود الدنيا والحدود القصـوىٰ ما ينـوف على عشرين مليون ضعف فـإمكان العين أن تـرىٰ حتى إذا بلغت الرؤيـة مقدار سبعة من مائة مليون أمبير ، وإذا زادت عن الحدود القصوىٰ أحست العين بشعور مؤلم فهي لا تقوىٰ على مقابلة النور المبهر الذي يؤثـر عليها لأنهـا تستقبل من الضوء فوق ما تستطيع . كما أن المقدار الضوئي إذا نزل إلى ما دون الحدود الدنيا لم تعد تشعر العين بشيء وذلك انها لا تستطيع أن تقوم بأي مجهود بصري في مثل هذا الوسط المعتم أو ما يقارب المعتم[٢١] .

ونستـطيع ممـا تقدم أن نفهم المـراد من عبارة الـدعاء (والنـور في بصـري) وذلك لأن النـور هو وسيلة الـرؤية الـواضحة التي يعتمـد عليهـا الإنسان في عمله بل في حياته .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (والبصيرة في ديني) والبصيرة في القلب وهي جمع بصائر وهي العبر التي تهـدي الإنسان إلى الـطريق الواضـح ، وهي مأخوذة من البصر ، لأن البصر هـو الذي يـأخذ الإنســان إلى الطريق

---

(٢١) الطب محراب الإيمان : ج١ ص٢١٥ .

الواضح أيضاً الذي يسلكه في أموره الخاصة . أما البصيرة فهي التي توصل الإنسان إلى الدين وقد ذكرنا ذلك في بحث اللغة وذكرنا هناك حديث ابن عباس مع معاوية وما ردّ به عليه فلا نطيل .

أما التمتع بالجوارح فإن الإشارة فيه تقتضي طلب سلامتها ، لأنها لا يمكن أن تعمل عملها إلاّ في حالة سلامتها ، ومن المحتمل أن يقصد بالجوارح هي الحواس التي يعتمد عليها الإنسان في تعايشه وممارساته في مختلف الأوقات ، فحاسة الشم وحاسة الذوق واللمس وكذلك السمع والبصر كلها وسائل للتمتع في هذه الحياة بزهرتها والتلذذ بالنعم التي أفاضها الله على الإنسان . فعندما يقول ـ عليه السلام ـ : (ومتعني بجوارحي) يعني اجعلني ممن يتذوق النعم بواسطتها ومن ثم شكر هذه النعم لأن الإنسان ينبغي له كلما ذكر نعمة ان يشكرها فهو بالأحرىٰ يطلب من الله التوفيق لأداء حق هذه النعم بالشكر لكي يزيدهم من فضله قال تعالى : ﴿وإذ تأذن ربّكم لإنْ شكرتم لأزيدنكم﴾[22]، ثم أكد ـ عليه السلام ـ على سلامة حاسة السمع والبصر ؛ لأنهما ضروريتان لحياة الإنسان ، فالأعمىٰ يفقد كثيراً من العلوم المرئية، والأصم يفقد كثيراً من العلوم المسموعة وقد أكد القرآن الكريم على هاتين الحاستين في قوله تعالى : ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً﴾[23] . وتظهر أهمية هاتين الحاستين أن الآية الكريمة قد ألصقتهما بالفؤاد الذي هو سلطان الجوارح والحواس جميعاً وقد مرّ الكلام في حاسة البصر وبقي الكلام في حاسة السمع التي تعتبر جزءاً معقداً من أجزاء الجسم .

---

(٢٢) سورة إبراهيم ، آية : ٧ .

(٢٣) سورة الإسراء ، آية : ٣٦ .

حاسة السمع المعقدة

إن المعلومات الأساسية التي بين أيدينا لا تتناول أكثر من كيفية إنتقال الأصوات المسموعة من مصدرها إلى حاسة السمع ، وإما كيف يحصل منهم الكلمات التي تسمع وكيف يحصل تمييز الأصوات العديدة جداً عن بعضها البعض وأين تقع خزائن الدائرة للمسموعات إلى جانب أسئلة كثيرة لا تجد جواباً عليها .

قال أحد العلماء اننا نعرف كيف يتم هذا الأمر ، وهو كيفية انتقال الصوت وحصول السمع ، أما كيف تدركه الخلايا العصبية وتفهمه فلا نتدخل نحن في هذا البحث ، وهكذا يخونهم ذهنهم العلمي عندما يريدون بحث الأمور المعقدة التي يجب أن تطرق ولا يتهرب منها .

ولا نريد أن ندخل في متاهات بعيدة بعد أن اعترف الأطباء بعجزهم عن كشف الأسرار الخفية التي يعمل بأوامرها السمع .

ويقسم الأطباء حاسة السمع إلى ثلاثة أقسام من باب التبسيط وهي : الأذن الخارجية ، والوسطىٰ والباطنة وهي أخطر الأقسام الثلاثة . وأشدّها حيوية وأهمية ، فأما الأذن الخارجية فهي صيوان الأذن الخارجي مع الممر الذي يوصل إلى غشاء الطبل . وأما الأذن الوسطىٰ ففيها ثلاثة عظيمات تشبه أدوات الحداد (المطرقة والسندان) ويوجد نفق يوصل ما بين الأذن الوسطىٰ والبلعوم في الفم . والأذن الباطنة فيها ما يشبه الحلزون وثلاثة إطارات غير كاملة ، وهذه الأقسام متصلة ببعضها ومتداخلة بحيث يتيه الذي يبحث فيها وبذلك سميت بالتيه .

أما بالنسبة إلى الصوت فإنه يمثل حركة إهتزازية كما مر في الأوساط المادية ، وهذا الإهتزاز يتراوح بدرجات مختلفة ، والأذن الطبيعية تسمع

الصوت فيما إذا كان مقدار اهتزاز الصوت يتراوح ما بين (١٦ ـ ٢٠٠٠٠) هزة في الثانية ، فإذا زاد الصوت عن هذا المقدار لم تعد تسمع شيئاً ، ولكن يحدث شعور مزعج غامض قد يصل إلى درجة إيذاء الأذن .

وبواسطة السمع يصغي الطبيب إلى أصوات القلب والتنفس ويعرف المرض الذي ينتاب القلب ، فهذا الصوت هو امتداد دقة القلب أو تضاعف دقات القلب أو أصوات كالنفخ وهي علامة تدل غالباً على المرض ، والصدر فيه الخراخر فهي إما كصوت فقاعات ، أو غطيط النماء ، أو مثل الصغير ، أو مثل الصوت القادم من كهف أو الداخل في جرة .

وبواسطة السمع يتفاهم البشر مع بعضهم وهكذا يفهم الولد ماذا يقول أبواه تدريجياً ويتعلم النطق ، ولولا النطق لكان حال الإنسان كالبهيمة العجماء بل حتى البهيمة لها لغتها الخاصة في التفاهم قال تعالى : ﴿**وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء**﴾[٢٤] ، وهكذا يتعلم الإنسان النطق ويرتقي في سلم المعرفة ويتفاهم البشر وتتفرع اللغات وتتباين اللهجات وتتنوع الشعوب .

مما تقدم نستطيع أن ندرك ما أراده ـ عليه السلام ـ من قوله : (واجعل سمعي وبصري الوارثين مني) مدىٰ الإهتمام بهاتين الجارحتين السمع والبصر فإنهما تقومان سيرة الإنسان وسلوكه وتعايشه مع الناس كما مرّ سابقاً . وقد أراد بالوارثين من أن يبقيهما ربّه صحيحين فهذا دعاء منه لنفسه بسلامة حواسه التي من أهمها السمع والبصر ، وقد ورد هذا المعنىٰ وبهذا اللفظ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقد ورد في الحديث في دعائه ـ صلى الله عليه وآله ـ أنه قال : (أللهم أمتعني بسمعي وبصري ،

---

(٢٤) سورة النمل ، آية : ١٦ .

واجعلهما الوارث مني) . قال ابن شميل في تفسير هذا الحديث : أي أبقهما معي صحيحتين سليمتين حتى أموت ، وقيل : أراد بقائهما وقوتهما عند الكبر وانحلال القوىٰ النفسانية ، فيكون السمع والبصر وارثي سائر القوىٰ والباقيين بعدها ؛ وقال غيره : أراد بالسمع وعي ما يسمع والعمل به ، وبالبصر الإعتبار بما يرىٰ ، ونور القلب الذي يخرج به من الحيرة والظلمة إلى الهدىٰ . وفي حديث الدعاء أيضاً (وإليك مآبي ولك تراثي) ، التراث ما يخلفه الرجل لورثته والتاء فيه بدل من الواو .

وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أنه قال : (بعث ابن مربع الأنصاري إلى أهل عرفة فقال : اثبتوا على مشاعركم هذه ، فإنكم على إرثٍ من ارث إبراهيم . قال أبو عبيد : الإرث أصله من الميراث ، إنما هو وِرْثٌ فقلبت الواو ألفاً مكسورة لكسرة الواو ، كما قالوا للوسادة إسادة ، وللوكاف إكاف فكأنه معنى الحديث : إنكم على بقية من ورث إبراهيم الذي ترك الناس عليه بعد موته وهو الإرث ؛ وأنشد :

فإن تك ذا عزٍ حديث ، فإنهم لهم إرث مجد لم تخنه زوافره

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ دعاءه في طلب حوائجه من الله ، ولكنها ليست حوائج الحطام في الدنيا ، ولكنها غير ذلك . فإن مثل وضعه في ذلك اليوم لا يسمح بأن يعدد حوائج الدنيا . ولكنه أعطىٰ الموقف حقه في الدعاء والمسألة . فقال ـ عليه السلام ـ : (وانصرني على من ظلمني) وهذا الطلب سائغ في الأدعية والأذكار وهو يطلب النصرة والنجدة من الله سبحانه وتعالى على عدوه ، فإنه لا يظلمه إلّا كل مرتدٍّ لأنه يمثل كلمة الله وحجته في الأرض فلا يتعرض إليه بسوء إلّا كل معتدٍ أثيمٍ . فلا يمكن أن يظلم الإمام ـ عليه السلام ـ في صلوح الأحوال فإنه إذا بلغ الأمر إلى ظلم الإمام ـ عليه السلام ـ فإن ذلك يعني تردي أوضاع حياة الإنسان وتغير الحال

من الإيمان إلى الكفر وانقلاب الموازيين من الخير إلى الشر .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وارزقني مأربي وثأري) فإن ذلك يعني إدراك حقه المغصوب ، وقد ذكرنا في فصل اللغة أن المأرب بمعنىٰ الغرض كما نستنتجه من الآية الكريمة ﴿ولي فيها مآرب أخرىٰ﴾[٢٥] ، واما الثأر فإنه الأخذ بحق القتيل فكأنه أراد أن يقول أرزقني إدراك حوائجي وارزقني ثأري الذي هو الطلب بدم آبائه وأرحامه المقتولين في نصرة الحق ، وبمعنىٰ أدق أللهم خذ بثأر الحق وأهله الذين قتلوا في سبيله ومعنىٰ ذلك أللهم أنصر الحق وأهله على الباطل وأهله .

ثم انتقل من ذلك الطلب إلى التأكيد عليه من الله سبحانه وتعالى فقال : (وأقر بذلك عيني) أي باستجابة تلك المطالب المذكورة سابقاً فإن الإقرار أو الإستقرار بالنسبة للإنسان بعد الحصول على مطالبه بنصرة مبدئه بإدراك ثأره ونصرته على من ظلمه من أعدائه يكاد أن يكون أمراً محتماً وقد أشرنا إلى هذا المعنى في فصل اللغة وقلنا هناك أن الإقرار والإستقرار لعين الإنسان يعني برودها وجمودها من الدمع ، أو هو نفس الدمع الذي يخرج ببرودة فينتعش لذلك الإنسان لانها تخرج في حالة الفرح أو من شدة الفرح ، ولا فرح يعتري الإنسان بأكثر مما ذكره الحسين ـ عليه السلام ـ في تلك الحال .

---

(٢٥) سورة طه ، آية : ١٨ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ اَكْشِفْ كُرْبَتي ، وَاسْتُرْ عَوْرَتي ، وَاغْفِرْ لِي خَطيئَتي ، وَاخْسأْ شَيْطاني ، وَفُكَّ رِهاني ، وَاجْعَلْ لي يا اِلٰهي الدَّرَجَةَ الْعُلْيا ، فِي الآخِرَةِ وَالأُولىٰ] .

« اللُّغة »

كربتي : الكرب على وزن الضرب ، الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس وجمعه كروب . وكربة الأمر والغم يكربه كرباً . اشتد عليه فهو مكروب والكرائب : الشدائد . والواحدة كريبة قال سعد بن ناشب المازني : ـ

فيال رزامٍ رشحوا مقدماً   إلى الموت ، خواضاً إليه الكرائبا

عورتي : أصل العورة الخلل في الثغر وغيره والعوار بفتح العين وضمها خرق أو شق في الثوب ، وقيل هو عيب فيه قال ذو الرمّة :

تبين نسبة المزني لؤماً   كما بنّيت في الإدم العوارا

وفي حديث الزكاة (لا تؤخذ الصدقة هرمة ولا ذات عوار) قال ابن

الأثير العوار بالفتح العيب . وفي التنزيل العزيز ﴿إن بيوتنا عورة﴾[1] أي ممكنة للسرّاق لخلوها من الرجال فأكذبهم الله عزّ وجلّ فقال : ﴿وما هي بعورةٍ﴾ وقيل : معناه إن بيوتنا عورة أي معورة أي بيوتنا مما يلي العدو ونحن نسرق منها . وقال الجوهري : العورة كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب . والعورة كل ممكن للستر وعورة الرجل والمرأة سوأتهما والجمع عورات والنساء عورة . وقرأ بعضهم (عورات النساء) بالتحريك والعورة تطلق على الساعة التي هي فيها ظهور العورة وهي ثلاث ساعات ، ساعة قبل صلاة الفجر ، وساعة عند نصف النهار ، وساعة بعد العشاء الآخرة . وفي التنزيل العزيز ﴿ثلاث عورات لكم﴾[2] أمر الله ـ تعالى ـ الولدان والخدم ألا يدخلوا في هذه الساعات إلاّ بتسليم منهم واستئذان ، والعورة من الرجل ما بين السرة والركبة ، ومن المرأة الحرة جميع جسدها إلاّ الوجه واليدين إلى الكوعين ، ومن الأمة مثل الرجل .

خسأ : الخاسىء من الكلاب والخنازير والشياطين : البعيد الذي لا يترك أن يدنو من الإنسان . والخاسىء المطرود . وخسأت الكلب أي زجرته فقلت له : إخسأ ويقال : خسأته فخسأ أي أبعدته فبعد والخاسأ المبعد المبعد ويكون بمعنىٰ الصاغر يتعدىٰ ولا يتعدىٰ . وقال الزجاج في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿قال إخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾[3] معناه تباعد سخط . وقال الله تعالى لليهود : ﴿كونوا قردةً خاسئين﴾[4] أي مدحورين ، وقال الزجاج : مبعدين وتخاسأ القوم بالحجارة تراموا بها .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٣٣ .
(٢) سورة النور ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٨ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٦٥ .

شيطاني : الشيطان حية لها عرف . والشيطان من شطن إذا بعد وهو مبعد من رحمة الله والشيطان معروف وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان . قال جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلٍ   وهن يهوينني إذ كنت شيطاناً

وتشيطن الرجل وشيطن إذا صار كالشيطان وفعل فعله ، وفي التنزيل العزيز : ﴿**طلعها كأنه رؤوس الشياطين**﴾(٥) . قال الزجاج : وجهه : أن الشيء إذا استقبح شبه بالشياطين فيقال كأنه وجه شيطان ، والشيطان لا يرىٰ ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء ولو رؤي لرؤي أقبح صورة ومثله قول أمرىء القيس :

ايقتلني والمشر في مضاجعي   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولم تر الغول ولا أنيابها . وقيل : ﴿**كأنه رؤوس الشياطين**﴾ : كأنه رؤوس حيات فإن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً ، كما مر وقيل رؤوس الشياطين نبت معروف قبيح شبه به طلع هذه الشجرة والله أعلم .

رهاني : الرهان والرهون جمع الرهن . والرهن هو ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه يقال : رهنت فلاناً داراً رهناً وارتهنته إذا أخذه رهناً والرهينة واحدة الرهائن وفي الحديث : (كل غلام رهينة بعقيقته) وفي التنزيل العزيز : ﴿**فرهان مقبوضة**﴾(٦) . قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر وشيبة (فرهان مقبوضة) وقرأ أو عمرو وابن كثير (فرهن مقبوضة) بضم الراء والهاء . قال قعنم :

بانت سعاد وأسىٰ دونها عدن   وغلقت عندها من قبلك الرهن

---

(٥) سورة الصافات ، آية : ٦٥ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٨٣ .

وقال تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[7] وقال تعالى : ﴿كل امرىء بما كسب رهينٌ﴾[8] أي محتبس بعمله ، ورهينة محتبسة بعملها والمراهنة والرهان المسابقة على الخير وغير ذلك .

البيان

بدأ في هذا الفقرة لوناً آخر من التضرع والمسألة ، فبينما نراه فيما مضىٰ من فقرات الدعاء يحمد الله مرة ، ويعدد نعمه مرة ، ويطلب الرزق مرة أخرىٰ ثالثة لإرتباط وثيق بين هذه المعاني ، نراه في هذه الفقرة يطلب من الله أن يهيء له أسباب الراحة في الحياة الدنيا بعد أن انتهىٰ من سؤاله حول الآخرة وما يتعلق بها من الحاجات ، وقد قدمها لأنها هي الموضوع الأهم كما هو مرتب في نظم الكلام في ذيل هذه الفقرة (في الآخرة والأولىٰ) .

وقد بدأ ـ عليه السلام ـ بقوله : (أللهم أكشف كربتي) ، والكرب ـ كما عرفته في فصل اللغة ـ معناه الحزن والشدائد ، أو الشدائد التي تجلب الحزن ، فيكون بهذين المعنيين هو من باب تسمية السبب بإسم المسبب وبالعكس .

والكربات التي تلم بالإنسان في حياته يختلف تأثيرها عليه باختلاف شخصيته ونفسيته ومدىٰ استطاعتها على تحمل هذه الكربات وتبعاتها ، واستيعابها لوقوع هذه الشدائد ومضاعفاتها .

فمن النفوس ما تكون جبارة عملاقة أو كما قالوا عنها : بانها

---

(٧) سورة المدثر ، آية : ٢٨ .

(٨) سورة الطور ، آية : ٢١ .

عصامية ، وهي التي لا تهتز بهذه الأزمات التي تعصف بها ، إما لأن صاحبها يرىٰ نفسه أسمىٰ وأعلىٰ من هذه المؤثرات الخارجية ، وإما لأنه يحتقر هذه الأحداث بإعتبارها أموراً طارئةً لا تلبث أن تزول ؛ ولذلك لا يرىٰ مسوّغاً وعذراً لهذا الإنفعال . وهذا ليس من باب الصبر الجميل الذي أمر به الإنسان عند حلول الأذىٰ ، وتفويض الأمور في ذلك إلى الله وإرجاعها إليه .

فهناك من النفوس نفس صابرة مطمئنة إلى قضاء الله وقدره ، لا ترىٰ الخير إلّا فيما يراه ـ سبحانه ـ لها ، ولا ترىٰ الشر إلّا فيما يدفعه ـ تعالى ـ عنها وتسلم لأمر ربّها تسليماً .

وقد مدح الصابرون في مثل هذه الأحوال فيما ورد من الثناء عليهم في القرآن الكريم بما لا مزيد عليه . قال تعالى : **﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبىٰ الدار﴾**(٩) ، وقال تعالى : **﴿والذين صبروا ابتغاء ربّهم وأقاموا الصلاة﴾**(١٠) وقال تعالى : **﴿الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون﴾**(١١) وقال تعالى : **﴿وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً﴾**(١٢) وقال تعالى : **﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾**(١٣) . فالصبر يصغر كلّ عظيمة نازلة ، وبالإقبال على الله والإلتجاء إليه تستيقظ روح الإيمان ، وتتنبه النفس الإنسانية إلى أن صاحبها ملتجىء إلى ركنٍ لا ينهدم وماسك بسبب لا ينفصم . وقد جاء في كثير من الروايات أن معنى الصبر هو

---

(٩) سورة الرعد ، آية : ٢٤ .
(١٠) سورة الرعد ، آية : ٢٢ .
(١١) سورة العنكبوت ، آية : ٥٩ .
(١٢) سورة الإنسان ، آية : ١٢ .
(١٣) سورة النساء ، آية : ٢٥ .

الصيام ، وذلك لشدة الملازمة بينهما .

ولهذا فإن الروايات تؤكد على أن معالجة النوازل والكروب الصوم وكذلك الصلاة . وعلى العموم فإن اللجوء إلى الله بأي طريق في حال الشدة هو خير ما يفعله العبد .

ففي الكافي عن الصادق ـ عليه السلام ـ إذا أهاله أمرٌ فزع قام إلى الصلاة وتلا هذه الآية واستعينوا بالصبر والصلاة . وفي الكافي أيضاً عنه ـ عليه السلام ـ في الآية قال : الصبر الصيام ، وقال : إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم . إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول : ﴿**واستعينوا بالصبر**﴾[١٤] يعني الصيام . ونفهم من هذا أن الطلب الذي ذكره في تضرعه كان يقصد منه كشف هذه الملمات التي تسبب الحرج والإرتباك في حياة الإنسان هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ أن كثرة التضرع والالتجاء إلى الله يشد الإنسان إلى ربّه شداً وثيقاً خصوصاً بعد أن سلم الإنسان بأن لا ملجأ إلاّ إليه .

ومنها أيضاً : نفس ضعيفة لا تثبت في حالٍ من الأحوال ، فهي دائمةُ التغير مهزوزة الكيان ، وهذا ينتج عن عدة عوامل تلم بالإنسان ومنها التربية السيئة التي تعود الإنسان على الخمول والكسل ، أو الإهمال في التربية وهذا من شأنه أن يصرف الإنسان ويبعده عن معالي الأمور التي ينبغي أن يكون فيها الإنسان حازماً .

ومنها : الخليط المؤثر على الإنسان والذي يعتبر عاملاً هاماً مؤثراً في سيرة الإنسان ، وقد تقدم حول هذا الموضوع كلام في الجزء الأول ،

---

(١٤) سورة البقرة ، آية : ٤٥ .

وأشرنا هناك إلى أن بعض الأفراد بحسب التركيب الفيسيولوجي لا يمكن أن ينبغوا في جهة من جهات الحياة .

فالوسط الإجتماعي كما أن له علاقة في تهذيب الإنسان وتربيته تربية صالحة تجعله مستعداً لتلقي نوائب الدهر (وكربات) الليالي والأيام ، كذلك من شأن هذه التربية الصالحة تجعله أكثر استعداداً لتلقي مثل ذلك إذا كانت تربيته مشبعةً بالوعي الديني .

علىٰ أن هذه النقاط المذكورة ـ وإن كانت تدخل في صميم كيان الإنسان ـ فإنا لا نقول بأنها تكون شخصيته الإنسانية المتكاملة في أخلاقها وفي سيرتها من حيث التعامل الإجتماعي بين أبناء الجنس البشري ، ولكن هناك جوانب أخرىٰ ربما نقول عنها في البعض أنها ضرورية ، ونقول عنها في بعض الشخصيات أنها مهمة ومكملة لجوانب شخصية إسلامية حرة ، وهي لا تخفىٰ علىٰ الإنسان اللبيب .

(واستر عورتي) أما العورة فهي كما يفهم من معطيات الجوانب اللغوية كل عيب في الإنسان ، وعيوب الإنسان تختلف مفاهيمها بحسب البيئات من حيث الزمان والمكان . فالعيب في زمان ربما لا يكون في غيره عيباً ، والعيب في مكانٍ ربما لا يكون في غيره كذلك ، هذا بحسب المفاهيم الإجتماعية المختلفة بين شعوب العالم .

وأما بحسب المفاهيم الشرعية فإن العيب لا يختلف بين الناس سواءً اختلف الزمان أم لا ، وسواءً اختلف المكان أم لا وذلك لأن الحكم من الشارع له مفهوم واحد . أللهم إلاّ ما تغير بحسب العوامل الداخلة عليه ، وذلك تبعاً لمرونة الإسلام المعروفة ، وتبعاً لتطور حياة الإنسان ، وملاحقة منه للتغير المضطرد في مفاهيم الحياة كأحوال التقية .

فالعورة بهذا المعنىٰ هي كل قبيح يراه الشرع قبيحاً لا ما يراه الإنسان المختلف المفاهيم .

وقد تأتي في هذا السياق من الكلام مسألة الحسن والقبح بنوعيهما الشرعي والعقلي ، إلاّ أننا لا نريد الخوض في هذا الموضوع قبل أوانه وسنمر به في الأبحاث القادمة في المكان المناسب من الكتاب في وقفة تأمل إن شاء الله .

فالعورة بمعنى أعم هو كل ما يشين الإنسان ويزريه فقوله ـ عليه السلام ـ : (واستر عورتي) يعني أبعدني عن هذه النقائص والدنايا ، وبمعنىً آخر أبعد الناس عن القول فيَّ بما أكره ؛ لأن العورة كما قررنا هي أعم من النظر إلى العيوب ، فكشفها ربما يتم مرة عن طريق النظر ، وربما يكون عن طريق السمع ، وربما يكون عن طريق اللسان ، أو بأي جارحة من الجوارح .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ يتصاغر في خطابه ومسألته أمام الله فيقول : (واغفر لي خطيئتي) مع كونه ـ عليه السلام ـ في تلك الدرجة العالية وهي درجة الإمامة التي تكون من لوازمها العصمة فلا تصدر منه الخطيئة والذنب ، سواءً كان صغيراً أو كبيراً ، وإلاّ لزم اجتماع النقيضين وهو محال . فالخطيئة بمعناها العام هو الذنب الذي يصدر من الإنسان عمداً ومن غير عمد ، إلاّ أن الأول محاسب عليه والثاني مغتفر .

قال الأعلمي في دائرة المعارف : الخطأ هو ثبوت الصورة المضادة للحق ، بحيث لا يزول بسرعة .

وقيل : هو العدول عن الجهة ، وذلك أضرب :

أحدهما : أن تريد غير ما يحسن إرادته ، فتفعله . وهذا هو الخطأ

التام المأخوذ به الإنسان .

والثاني : ان تريد ما يحسن فعله ولكن يقع بخلاف ما تريده ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل . وهذا المعنىٰ بقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) ، وبقوله : (من اجتهد وأخطأ فله أجر) .

والثالث : أن تريد ما لا يحسن فعله ، ويتفق منه خلافه فهذا مخطأ في الإرادة ومصيب في الفعل وهو مذموم بقصده غير محمودٍ على فعله . وجملة الأمر أن من أراد شيئاً واتفق منه غيره يقال فيه : (أخطأ) ، وأن وقع منه كما أراده : (أصاب) . والخطأ في القصد هو أن ترمي شخصاً تظنه صيداً ، والخطأ في الفعل هو أن ترمي غرضاً فأصاب آدمياً . والخطأ تارة يكون بخطأ مادة ، وتارة بخطأ صورة ، فالأول من جهة اللفظ أو المعنىٰ ، أما اللفظ كاستعمال المتباينة كالمرادفة نحو السيف والصارم ، واما المعنىٰ فكالحكم على الجنس بحكم النوع المندرج تحته نحو هذا لون واللون سواد فهذا سواد[15] .

ولكن ما أشار إليه ـ عليه السلام ـ في كلمته السابقة هو التذلل والخضوع ، فهو يعترف بالخطأ على نفسه كإنسان يعيش بين الناس لولا ما منّ الله عليه بنعمة العصمة التي هي ملكة نفسانية يستطيع صاحبها الإبتعاد بها عن الخطأ صغيره وكبيره مع قدرته عليه .

---

(١٥) دائرة المعارف للأعلمي .

الكلام في العصمة

لمّا كان الكلام عن العصمة هو موضع جدلٍ وخلاف بين الآراء بين علماء الأمة أحببنا أن نتعرض لهذا الموضوع لنبين فيه بعض الإختلافات التي نشأت بينهم ونطرح ما جاء به أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ .

العصمة لغة هي المنع ، وفي الإصطلاح عرّفوها بتعاريف كثيرة وعليها إيرادات وأحسنها :

إنها لطف يفعله الله بالمكلف بحيث لا يكون له داعٍ إلى ترك الطاعة ، وفعل المعصية مع قدرته عليها .

وإنما جاء شرط القدرة على ترك الطاعة ، وفعل المعصية للرّد على بعضهم حيث قال :

إن المعصوم لا يمكنه الإتيان بالمعاصي ولا ترك الطاعات وهو بعيد عن الصواب ، لأنه لو كان كذلك لما استحق مدحاً وخرج عن كونه مكلفاً .

وقد اختلف علماء الإسلام في العصمة وكيفية نسبتها إلى المعصومين المتصفين بها سواء كان نبياً أو وصي نبي :

فقال شيخنا الشيخ حسين آل عصفور في كتابه (محاسن الإعتقاد) :

ومذهب أصحابنا الإمامية قاطبة أنه لا يصدر منه الذنب لا صغيره ولا كبيره ، ولا عمداً ولا نسياناً ولا خطأ في التأويل ولا الإسهاء من الله ـ سبحانه ـ ولم يخالف فيه إلّا الصدوق ، وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد ـ رحمه الله ـ فإنه جوز الإسهاء لا السهو الذي هو من الشيطان .

وذهب أكثر المعتزلة : إلى أنه لا تجوز عليه الكبائر ، وتجوز عليه الصغائر الخسيسة ، كسرقة حبة ، أو لقمة ، وكل ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعة .

ومذهب أبي علي الجبائي : إنه لا يجوز أن يأتي بكبيرة ولا صغيرة على جهة العمد لكن يجوز على جهة التأويل أو السهو وذهب النظام، وجعفر بن مبشر، ومن تبعهما إلى أنه لا يقع منه الذنب إلّا على جهة السهو والخطأ ، لكنهم مؤاخذون بما يقع منهم سهواً ، وإن كان موضوعاً عن أمتهم ؛ لقوة معرفتهم ، وعلو مرتبتهم ، وكثرة ولائهم ، وإنهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم .

وذهب الحشوية ، وكثير من أصحاب الحديث من العامة إلى أنهم تجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وخطأً ، ثم اختلفوا في وقت العصمة إلى ثلاثة أقوال :

أولها : إنه من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله ـ سبحانه ـ وهو مذهب أصحابنا الإمامية .

وثانيها : إنه من حين بلوغهم ، ولا يجوز عليهم الكفر ، والكبيرة قبل النبوة ، وهو مذهب كثير من المعتزلة .

وثالثها : إنها وقت النبوة والبعثة ، وأما قبل ذلك فيجوز صدور المعصية منهم ، وهو قول أكثر الأشاعرة ، ومنهم الفخر الرازي وإليه ذهب أبو الهذيل وأبو علي الجبائي من المعتزلة .

والأدلة لهذه المذاهب من القرآن وغيره موجودة إلاّ أن العمدة فيما اختاره أصحابنا من تنزيه الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ عن كل ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها ، وقول أئمتنا ـ عليهم السلام ـ بذلك المعلوم لنا قطعاً ؛ لإجماع أصحابنا ـ رضوان الله عليهم ـ مع تأيده بالنصوص المتظافرة حتى صار ذلك من قبيل الضرورات في مذهب الإمامية ، وقد استدل عليه أصحابنا بأدلةٍ عقلية :

منها : إنه لو صدر منه ذنب لزم إجتماع الضدين ، وهما وجوب متابعته ومخالفته ؛ ولأنه لو صدر عنه ذنب لوجب منعه وزجره والإنكار عليه ؛ ولأنه لو قدر عليه الفسق لزم أن ترد شهادته ؛ ولأنه يلزم أن يكون الأقل درجةً من عصاة الأمة ، فإن درجاتهم في غاية الرفعة والجلالة والإصطفاء على الناس وجعلهم أمناء على وحيه ؛ ولأنه يلزم استحقاقه العذاب واللعن ، والتوبيخ واللوم ، وهذه اللوازم كلها منتفية .

وحينئذٍ فيجب صرف الآيات والروايات الدالة على ثبوت معصية إلى معنى يليق بشأنهم فيما أمكن فيه من باب المجاز والكنايات[١٦] .

وقال السيد الطباطبائي في الميزان : ان العصمة على ثلاثة أقسام : العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي ، والعصمة عن الخطأ في التبليغ والرسالة ، والعصمة عن المعصية وهي هتك ما فيه حرمة العبودية ، ومخالفة مولوية ، ويرجع بالآخرة إلى قول أو فعل ينافي العبودية منافاةً ما ، ونعني بالعصمة وجود أمرٍ في الإنسان المعصوم يصونه عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ أو المعصية .

وأما الخطأ في غير باب المعصية وتلقي الوحي والتبليغ ، وبعبارةٍ

---

(١٦) محاسن الإعتقاد مخطوط للشيخ حسين العصفور .

أخرىٰ في غير باب أخذ الـوحي وتبليغه والعمـل به ، كـالخطأ في الأمـور الخـارجية . وكيف كـان فالقـرآن يدل على عصمتهم في جميـع الجهـات الثلاث مثل قـوله تعـالى : ﴿أولئك الـذين هدىٰ الله فبهـداهم اقتده﴾[١٧] فجميعهم كتب لهم الهـدايـة ، وقـال تعـالى : ﴿من يهـدي الله فهـو المهتدي﴾[١٨] ، [١٩] .

وبالجملة أن العصمة لها أهمية قصـوى ودور عملي في تسيير أمـور الناس وحلّ قضاياهم ، وملاحقة سير الحياة في تطورها المضطرد في جميع المجالات .

على أن العصمـة بما فسـرها علمـاء الأمـة من لغـويين ، ومتكلمين وغيرهم ، هي ضرورة ملحة يجب أن تتوفر في القيادة الإسلامية الحقـة ؛ لأن الخطأ الذي يخطؤه الإنسان على نفسه يهون أمـام الخطأ الـذي يجره على نفسه وغيره من أفراد المسلمين عامة .

ولا يخفىٰ ان الأهمال الذي حصل من الأمة أو التجاهل الذي حدث فيهم ، والتغاضي عن الإضرار في تحديد القيادة التي تتوفـر فيها الشـروط المطلوبة ، وأهمها العصمة والأنانيات والنعرات القبلية ، والحزازات التي إختلقها المغرضون والطامعون كل ذلك أدّىٰ إلى تسيب الوضع الإسلامي ، والحد من زحفه المتوثب على جميع الجبهـات . وهذا مـا أدّىٰ بدوره علىٰ التقهقر في العالم الإسلامي أمام الغزو الأجنبي الكافر منذ أن بدأت المرحلة الإسلامية تأخذ مكانها في نفوس الناس وحياتهم ، وفتح العالم عينيه على مرحلة جديدة من حياة الإنسان ، الذي كابد المحنة منذ اليوم الأول لوجوده على وجه الأرض بسبب سوء تصرفه وعنجهيته .

---

(١٧) سورة الأنعام ، آية : ٩٠ .

ومما تقدم يظهر معنى كلامه ـ عليه السلام ـ في قوله : (واغفر لي خطيئتي) فإنه يحتمل قوياً أن تكون هذه الخطيئة منسوبة إلى من يوجههم ويعاملهم . وهذا القول محمول على حذف المضاف ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ؛ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾[٢٠] فإنه قد ورد في تفسيرها من أهل البيت ـ عليهم السلام ـ أن الذنب المنسوب إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ هو ذنب الأمة المنسوبة إليه ـ صلى الله عليه وآله ـ .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ قد طلب المعونة من الله على أن يخسأ شيطانه بقوله ـ عليه السلام ـ : (وأخسأ شيطاني) والشيطان بهذا المعنىٰ وكما ورد في فصل اللغة هو كل من يأتي بعمل يعمله الشيطان وهو الشر ، وعلى هذا يمكن القول بأنه في هذه العبارة يسأل الله أن يبعد عنه كل من يقصده بشر ، وهذا الطلب سايغ للمعصوم وغيره ، بعد أن حذر القرآن الكريم الإنسان من شر الشيطان وعداوته له في كثير من مطاوي آياته وبعد أن وسوس لآدم وزوجه وبعد أن حتم على نفسه وأقسم بعزة الله وهو القسم العظيم أن يغوي ذريته أجمعين . قال تعالى : ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما**﴾[٢١] وقال تعالى : ﴿**إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبينٌ**﴾[٢٢] وقال تعالى : ﴿**وإما ينـزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله**﴾[٢٣] ؛ لأن الإعتماد والتوكل على الله من المعصوم يأتي قبل

---

(١٨) سورة الكهف ، آية : ١٧ .
(١٩) الميزان : ج٢ ص١٣٤ .
(٢٠) سورة الفتح ، آية : ٢٢١ .
(٢١) سورة الأعراف ، آية : ٢٠ .
(٢٢) سورة يوسف ، آية : ٥ .
(٢٣) سورة فُصِّلت ، آية : ٣٦ .

أن يأتي من غيره ، وحاجة المعصوم إلى الله والإفتقار إليه يعرفها قبل غيره من الناس ، والعبارة المطروحة في النص تشير إلى طلبه إبعاد شيطانه أي إبعاد من يريد به شراً .

وبكلمة عامة أنه يريد من الله إبعاد الخطر عنه من أي جهةٍ من الجهات فقد فوض الأمر في ذلك إلى الله بناءً على هذا الطلب .

أما فك الرهان فهو إطلاقه من السجن كما ورد في فصل اللغة . وهذا المعنىٰ كان متداولاً بين الناس بصورةٍ عادية وقد قيل عن الشاعر الأديب الفيلسوف (أبو العلاء المعري) أنه رهين المحبسين ، أي حبس الدار وحبس العمىٰ ، وقد ألمح القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿**كل امرىءٍ بما كسب رهينٌ**﴾[٢٤] .

إن الإنسان محبوسٌ ومحصورٌ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فكانه ـ عليه السلام ـ يعتبر نفسه محبوساً بعمله وكلامه هذا لا شك أنه قاعدة عامة ، وسنة جارية فيما بين الله وبين خلقه ، فإن الآية الآنفة الذكر تشير بشكل واضح إلى هذا المعنىٰ .

وفي معنىً آخر في قوله (وفك رهاني) أي حررني من سجني هوىٰ النفس وشهواتها ، فإنها لا تكف عن ذلك حتى تردي الإنسان في مهاوي الردىٰ والضلال ، ومن تحرر من نفسه وتغلب عليها فإنه يبلغ إلى الدرجات العالية بالقرب من الله .

---

(٢٤) سورة الطور ، آية : ٢١ .

الدرجات العالية في الدنيا والآخرة

ثم نراه يتطور في الطلب من القليل إلى الكثير حتى يصل بطلبه إلى الغاية السامية التي يتسابق إليها القدّيسون وهي فيما عند الله الوصول إلى الدرجات العالية في الجنة ، فمعنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (واجعل لي يا إلٰهي الدرجة العليا في الآخرة والأولى) هو طلب فيه إلحاح منه للحصول على الدرجة العليا التي يكون فيها الإنسان قد بلغ الغاية القصوى في الإخلاص والطاعة .

فالدرجة العليا مرة نقول عنها هي بلوغ الغاية في المعرفة والطاعة ، ومرة نقول عنها بأنها هي بلوغ المكانة العالية والسامية في الجنة . وربما أشار إلى هذين الوجهين ، ونحن نلتمسهما أيضاً في قوله ـ عليه السلام ـ (في الآخرة والأولىٰ) فإن المقصود ببلوغ الدرجة العليا في الأولىٰ وهي الدنيا كما قلنا ، هي المعرفة لله تعالى والطاعة ، وهذا هو المقصد الأسمىٰ في دار الدنيا . وأما الآخرة فإن الدرجة العليا فيها هي المكانة العالية في الجنة .

لكنه قدم الآخرة على الأولىٰ على خلاف الترتيب المعنوي نظراً

لتقـديم الأهم على المهم وهـذا نـظيـر قـولـه ـ تعـالى ـ : **﴿فللّه الآخـرة والأولى﴾**[٢٥] وفي ذلك نكتة لطيفة من النكات البلاغية الواضحـة التي لا تخفىٰ على صاحب الذوق السليم .

(٢٥) سورة النجم ، آية : ٢٥ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ لَـكَ الحَمْدُ كَمـا خَلَقْتَني ، فَجَعَلْتَني سَميعاً بَصيـراً ، وَلَـكَ الْحَمْـدُ كَمـا خَلَقْتَني فَجَعَلْتَني حَيّاً سَـوِيّـاً ، رَحْمَـةً بي وكُنْتَ عَنْ خَلْقي غَنِيّاً] .

البيان

تكرر ذكر الحمد في كثير من عبارات الدعاء وفقراته ، وهو منهاج سار عليه أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وتبعهم شيعتهم في هـذا المنهاج الذي اختصروا فيه طريقهم إلى الله . ولقد أشرنا في أول هذا الجزء ، كما أشرنا في بداية الجزء الأول إلى الحمد ومعاينة وباختصار أن الخطاب الذي يوجهه العبد إلى الله بهذا الإسلوب المهذب من ثناءٍ وشكرٍ واعترافٍ بالنعم يكون به من أقرب المقربين إلى الله إذا أخلص شكر النعمة .

ولقـد طرح الإمـام الحسين ـ عليه السـلام ـ في هذه الفقـرة مفاهيم الإعتراف بالنعم بشكلٍ آخر من البيـان فقال ـ عليـه السلام ـ (اللهم لـك الحمد كما خلقتني فجعلتني سميعاً بصيراً﴾ لأن الإنسان إذا فقد حاسة من

حواسه ، وتعطل عملها أصبحت عضواً زائداً ، وكان وجودها وعدمها سواء في جسم الإنسان ؛ لأنه لا فائدة فيه ، وعندما يكرر ـ عليه السلام ـ ذكر السمع والبصر ، فإن ذلك التكرار يدل على الأهمية الكبرىٰ لهاتين الحاستين كما أشرنا إلى ذلك في مطاوي الأبحاث السابقة من الكتاب .

ثم نراه أيضاً يكرر هذا اللفظ مرة ثانية ليؤكد على نعمة الخلق والإيجاد التي هي من أولى النعم وأولاها من الله وأعظمها فنراه يقول ـ عليه السلام ـ : (ولك الحمد كما خلقتني فجعلتني حياً سوياً) ، والسوي هو المتكامل الذي لا نقص فيه ولا عيب في خلقه كما يلوح من أفق العبارة المحفوف بالقرائن .

والحياة كما هو معلوم إنها نقيض الممات ، وهي بحسب اللغة عبارة عن قوة مزاجية تقتضي الحس والحركات ، أما النسبة إلى الله ـ تعالى ـ فهي معنى مجازي وهو البقاء .

أما الذي ذكره المتكلمون بقولهم (الحي) هو الذي يصح أن يعلم ويقدر فمعناه الإصطلاحي الحادث ، وليست صفة حقيقية عارية عن الشبه والإضافة في حق الله ـ تعالى ـ إلاّ صفة الحياة وغيرها من الصفات ، وإن كانت حقيقة كالعلم والقدرة ، إلاّ أنها يلزمها لوازم من باب النسب والإضافات لتعلق العلم بالمعلوم والقدرة بإيجاد المقدور .

والحياة تستعمل على أوجهٍ للقوة النامية الموجودة في النبات والحيوان ، وللقوة الحساسة ، وبه سمي الحيوان حيواناً .

وللقوة العاملة العاقلة ، وبهذا النظر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وعلى هذا ﴿بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾ ، أي يتلذذون والحياة

الأخروية الأبدية يتوصل إليها بالحياة التي هي العقل والعلم . والبيئة المخصوصة ليست شرطاً للحياة ، بل يجوز أن يجعلها الله ـ تعالى ـ في جزء لا يتجزأ خلافاً للمعتزلة والفلاسفة .

والحيوان أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والإضطراب اللازم للحياة ، والحيوان من الجنة ، والحياة في الدنيا .

وذهب الفلاسفة في حقيقتها مذاهب شتىٰ ، ولكن ما من أحدٍ لم يميز بين مادة حيّة . ومادة جامدة ، وبين جسم حيّ وجسم ميّت ، وما من أحد لا يستطيع إدراك الحياة متى تولدت في شيء .

فالحياة أشد الحالات ظهوراً ولكنها أصعبها مراساً على الفهم وأشدها إستعصاءً على التحديد وقد انتهىٰ الأمر بفلاسفة أوروبا الآن إلى الإنقسام إلى فريقين :

١ ـ قال بعضهم : الحياة هي مظهر من مظاهر قوىٰ الطبيعة من نوع القوىٰ الحاكمة علىٰ المادة ، فهي ليست شيئاً مستقلاً لذاته فإذا مات الحيوان أو الإنسان وتحللت عناصره إنحلت الحياة وتلاشت ؛ لأنها لم تكن غير مجموع قوىٰ الداخلة في تركيبه .

٢ ـ وقال بعض آخر : إن قوانين الطبيعة ونواميس المادة لا تكفي في تعليل جميع ظواهر الحياة ، فإن النظر المجرد إلى الإنسان في مداركه العالية ومواهبه الجليلة يدل على أن فيه من القوىٰ الروحية ما يعتبر أرقىٰ من قوىٰ الطبيعة ، وعليه فلا مناص من فرض وجود قوةٍ في الإنسان والحيوان والنبات مستمدةٍ من أصلٍ مستقلٍ موجودٍ في الكون تحت إسم (الحياة) .

فقد ثبت بالدليل المحسوس وجود قوىٰ روحانية مستقلة عن المادة ،

وعالم روحاني له قوانين خاصة به أعلىٰ من هذا العالم المادي .

وبكلمة أخرىٰ (أن الحياة) مرة عرفوها فاختلفوا في تعريفها ، ومرة قالوا بأنه ليس لها حد من الحدود بناءً على إختلاف مظاهرها في جميع الممالك الحيوانية كل على حدة . ومرةٍ أخرىٰ قالوا بان (الحياة) تعرف من خلال مظاهرها الماثلة لعين الرائي كالحركة والطعام والشراب والإخراج .

ثم ذهبوا إلى القول بتعريفها إلى معانٍ أخرىٰ تسانخ الحياة كالفقر والغنىٰ والعلم والجهل .

فقد نقل عن بعض الحكماء قوله : خير الأمور ثلاثة : الحياة وضعف الحياة ، وما هو خير من الحياة .

فأما الحياة فالراحة وحسن العيش ، وأما ضعف الحياة فالمحمدة وحسن الثناء ، وأما ما هو خير من الحياة فرضوان الله تعالى .

وشر الأمور ثلاثة : الموت ، وضعف الموت ، وما هو شر من الموت .

أما الموت فالفاقة والفقر ، وأما ضعف الموت فالمذمة وسوء الثناء ، وأما ما هو شر من الموت فسخط الله نعوذ بالله منه .

قال المؤلف : ولنا في هذا المجال كلمة أخرىٰ : خير الأمور ثلاثة الحياة ، وضعف الحياة ، وما هو خير من الحياة .

أما الحياة فالعلم ، واما ضعف الحياة فالعمل بالعلم وأما ما هو خير من الحياة فقبول العمل بذلك العلم .

وشر الأمور ثلاثة :الموت،وضعف الموت ، وما هو شر من الموت .

أما الموت فالجهل ، وأما ضعف الموت فعدم الإلتفات للجهل ، وأما ما هو شر من الموت فالنار .

ويعيش الإنسان كما يقول علماء الحياة إلى نحو مائة وعشرين سنة ، وقد شوهد من الناس من عاش فوق المئة وخمسين سنة ويقولون أيضاً : إن جسم الإنسان مجعولٌ على حال يستطيع معه أن يقاوم المبيدات المحيطة به نحواً من مئة وعشرين سنة .

ولكن الإنسان بعدم سيره على نظام حكيم في معيشته يساعد المبيدات الطبيعية على نفسه فيسرع بجسمه إلى الإنحلال .

ثم إن العمر مقدر محدود ولكن الأسباب التي جعلها الله تعالى للحياة والموت يجب أن تراعىٰ وتلاحظ ، بل نحن مأمورون بمراعاتها ، قال الله تعالى : **﴿ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة﴾**[1] ، ومن التهلكة ألّا يراعي الإنسان قوانين حفظ الصحة فيأكل أكثر أو أقل مما يجب . ويمنع نفسه عن استنشاق الهواء الطلق ، ويحبس نفسه علىٰ الأعمال العقلية ، فلا يروض جسده على الأعمال العضلية وينام في الغرف المحرومة من الشمس ومن نعمة الهواء ، ويسرف في ملاذه التناسلية ، ولم يسمح للإنسان القوي في كل أسبوع أكثر من مرةٍ واحدة ، ويسهر إلى ما بعد الساعة العاشرة مساءً ، ويأكل الثوم والبصل والتوابل أكلاً لمّا وغير ذلك .

وكل هذه تضعف قوته الحيوية وتحط من شدة مقاومتها للعوارض فتصاب معدته وأعصابه بالإعياء ويزداد كلاله وعجزه شيئاً فشيئاً ، ثم يستسلم للقدر فيتلاشىٰ ولم يبلغ غير الخمسين أو الستين ، فيموت قبل

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٩٥ .

موعده الطبيعي بنحو الستين أو سبعين سنة فضلاً عن أنه يعيش ما بعد الأربعين ضعيفاً مريضاً في آلامٍ مستمرة ويموت بعد خمسين أو ستين من السن الذي تم فيه نضج عقله ، وكمل فيه جلال الكهولة ، وصار أهلاً لأن يفيد الناس بعلمه وتجاربه .

ويقول هؤلاء العلماء : فلو أنصف الإنسان نفسه ، وراعىٰ قوانين الصحة حرفاً بحرف بلا غلو ولا تقصير ورمىٰ بكل جهده إلى تقوية قوته الحيوية الكامنة فيه بإمدادها بما يقومها وإبعاده عنها ما يضعفها من إفراط في أكل وسهر وجماع وشغل ولهو وغير ذلك عاش عمره الطبيعي . أللهم إلّا إذا كان الخالق قد قضىٰ عليه ان يموت بعلة طارئة أو بحادث غير منتظر لسبب أو لآخر كقطيعة رحمه أو غيره ذلك مما يسبب قصر العمر .

وقد خلق جسم الإنسان معد لأن يعيش ثلاثمائة سنة فإن الذين يموتون في السبعين والثمانين تكون أعضائهم سليمة صالحة للبقاء . وغاية ما كان عندهم من مسببات الموت إصابة عضو من أعضائهم بمجهودات فوق طاقته ، أو بعلة طرأت عليه . فلو تحامىٰ الإنسان بعقله مواقع العلل إستطاع أن يحي إلى عمر طويل جداً ، ولكن السبب في عدم وصول الإنسان إلى سن الثلاثمائة أنه يتكون في أمعائه ودمه ميكروبات تعجل به إلى الفناء . فلو إكتشف الأطباء مصلاً لقتل هذه الميكروبات أمكن الشيخ أن يعيش ذلك السن الطويل .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقول : أن قوله ـ عليه السلام ـ : (حياً سوياً) يعني سلامة التركيب في الأعضاء ، وسلامة هذه الأعضاء من الأمراض التي تعتريها ، فهي إذا إعترتها الأمراض تكون مصدر قلق للإنسان ، وهي إذا نقصت في بنية جسم الإنسان التكاملية فهي إما أن تكون مصدر سخرية في مفهوم السفهاء من الناس ، وهي مصدر استرحام في

مفهوم الناس الخيرين ، فكونه قد خرج إلى الدنيا حياً سوياً هو رحمةٌ بالإنسان من الله قبل ان يسترحم الناس أو يترحم الناس له .

أما الرحمة التي أشار إليها النص فإنها تعني أن الله ـ سبحانه ـ خلق الإنسان بهذا القوام فجعله متكاملاً في صفاته وأعضائه ومواهبه وملكاته وقدراته ؛ لأجل أن ينشر عليه رحمته ، وتظهر فيه عظمته وقدرته . والمفعول لأجله يعني ارتباط السبب بالمسبب ، فإن خلق الإنسان حياً سوياً ، وجعله سميعاً بصيراً لكي تتجلّىٰ رحمة الله عنده ويعرف الإنسان هذه الرحمة ، في حين أن الله ـ سبحانه ـ هو غني عن خلقه ـ كما صرَّح بذلك النص الماثل ـ إستناداً إلى قوله تعالى : **﴿وربّك الغني ذو الرحمة﴾**[٢] وقوله تعالى : **﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني﴾**[٣] ، وقوله تعالى : **﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾**[٤] .

قال الطوسي في كتاب التبيان في معنىٰ الغني : بأنه هو الحي الذي ليس بمحتاج ، والغني عن الشيء هو الذي يكون وجود الشيء وعدمه وصحته وفساده عنده بمنزله في أنّه لا يلحقه صفة نقص . وذو الرحمة يعني صاحب الرحمة وهو ـ تعالى ـ بهذا الصفة برحمته بعباده .

وقوله ـ سبحانه ـ : **﴿هو الغني﴾** تنزيه من الله ـ تعالى ـ نفسه عن اتخاذ الولد بكونه غير محتاج إلى ذلك ، لأنه مالك ما في السمٰوات والأرض .

وإذا قلنا بأن الغنىٰ هو عدم الحاجة إلى الغير فإن هذا يعني أن جميع

---

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٣٣ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٦٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٦٧ .

المخلوقين هم فقراء إلى الله ، قال تعالى : **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾**[5] . وقوله ـ تعالى ـ : **﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء﴾**[6] .

فصريح هذه الآيات وغيرها يفيد أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله وإن كانوا أغنياء من المادة ، فإن الغني ليس هو كل من توفرت له أسباب المادة فإنه لا يزال فقيراً محتاجاً . وسيأتي في الأبحاث القادمة مقارنةٌ بين الغنىٰ والفقر ، والثروة وعدمها إن شاء الله تعالى .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (وكنت عن خلقي غنياً) يشير إلى الإمكان الخاص ، وذلك أن جميع الموجودات عدا الخالق ممكن بهذا الإمكان .

أما خالقهم فهو واجب الوجود سبحانه وتعالى عمّا يشركون وللحديث صلة في هذا الموضوع في أبحاث الكتاب القادمة إن شاء الله تعالى .

---

(٥) سورة فاطر ، آية : ١٥ .

(٦) سورة محمد (ص) ، آية : ٣٨ .

قال عليه السلام :

[رَبِّ بِمَا بَرَأتَنِي فَعَدلْتَ فِطْرَتي ، رَبِّ بِمَا أَنْشَأْتَني فَأَحْسَنْتَ صُورَتِي ، رَبِّ بِمَا أَحْسَنْتَ بِي ، وَفي نَفْسي عَافَيْتَني ، رَبِّ بِمَا كَلأْتَني وَوَفَّقْتَني ، رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَهَدَيْتَني ، رَبِّ بِمَا آوَيْتني وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ آتَيْتَني وأَعْطَيْتَنِي ، رَبِّ بِما أَطْعَمْتَني وَسَقَيْتَني ، رَبِّ بِمَا أَغْنَيْتَني وَأَقْنَيْتَني ، رَبِّ بِمَا أَعَنْتَني وَأَعْزَزْتَني ، رَبِّ بِمَا أَلْبَسْتَني مِنْ سِتْرِكَ الصَّافي ، وَيَسَّرْتَ لي مِنْ صُنْعِكَ الْكَافي] .

اللُّغة

بـرأ : قال إبن سيـده : بـرأ الله الخلق يبـرؤهم بـرءاً خلقهم وفي التنزيل : ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبلِ أَنْ نَبْرأَهَا**﴾[1] . والبرية الخلق . قال الفراء هي من برأ الله الخلق أي خلقهم . والبارىء من أسماء الله ـ عزّ وجلّ ـ وفي التنزيل العـزيز :

---

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٢ .

﴿هو الله الخالق البارىء المصور﴾[٢] . والبارىء هو الذي خلق الخلق لا عن مثال ، وأما قولهم : بـرئت إليك من فلان أبرأ براءة فليس فيها غير هذه اللغة .

وليلة البـراء هي ليلة يتبرأ القمـر فيها من الشمس وهي أول ليلة من الشهر . وفي الصحاح البراء بالفتح أول ليلة من الشهر . قال الشاعر :
يـا عين بكي مـالكـاً وعبسـاً يـومـاً إذا كـان البـراء نحسـاً

كـلأتني : قـال تعـالى : ﴿قـل من يكلؤكم بـالليـل والنهـار من الرحمٰن﴾[٣] ، ويقال : كلأك الله كلاءة أي حفظك وحرسك قال الشاعر :

إن سـليـمـىٰ والله يـكـلؤهـا ضلت بـزادٍ مـا كـان يـزرؤهـا

وقد كلأه حرسه وحفظه ، ويقال : إذهبوا في كلاءة الله أي في حفظه قال جميل :
فكـوني بخيـر في كـلاءٍ وغبـطةٍ وإن كنت قد أرفعت هجري وبغضتي

آويتني : أويت منزلي آوياً وأويت وتأويت كله عدت ، وآويته وأويت إلى فلان تقول العرب : آوىٰ فلان إلى منزله يأوي ومنه قوله تعالى : ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾[٤] . وآويته بالمد ـ كما هو الـدعاء ـ على أفعلته بمعنى واحد . وفي حديث البيعة أنه قال لـلأنصـار : أبايعكم علىٰ أن تأووني وتنصروني أي تضموني إليكم وتحوطوني بينكم ، وجاء في الدعاء (الحمد لله الذي كفانا وآوانـا) أي ردنا إلى مـأوىٰ لنا ولم يجعلنـا منشرين كالبهائم وتأتي بمعنىٰ رحم ، قال الشاعر :

---

(٢) سورة الحشر ، آية : ٢٤ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٤٢ .
(٤) سورة هود ، آية : ٤٣ .

أوانـي ولا كـفـران لله آيـةً لنفسي لقـد طـالبت غيـر منيلي

أقنيتني : أقناه الله أي أعطاه ما يسكن إليه . وفي التنـزيل العـزيز : ﴿**وأنه هو أغنىٰ وأقنىٰ**﴾[٥] . قال أبو إسحاق : قيل في أقنىٰ قولان أحدهما أرضىٰ ، والآخر جعل قنية أي جعل الغنى أصلاً لصاحبه ثابتاً ومنه قولك : قد أقتنيت كذا أي عملت على أن يكون عندي لا أخرجه من يدي ، واقتنيت لنفسي مالاً أي جعلته قنيةً أرتضيته ، وقال في قول المتلمس :

وألقيتهـا بـالتني من جنب كـافـر كـذلـك أقنـو كـل قط مضـلل

إنه بمعنىٰ أرضىٰ .

الضافي : فلان ضافي الفضل كثيره ، والضفو السبوغ ، وثوب ضافي أي سابغ . قال بشر :

لـيـالي لا أطـاوع من نـهـانـي ويـضـفـو تـحـت كـعـبي الإزار

وضفا الماء فاض ، وضفا الحوض يضفو إذا فاض من إمتلائه .

البيان

عندما خلق الله الخلق جميعاً ومنهم الإنسان خلقه وكرّمه على سائـر المخلوقات بأن جعله في هذا القالب العمودي . فوجوده بهذه الهيئة يدل على أن له أهمية خاصة دون سائر المخلوقات .

فبينما نرىٰ أن هذا الخلق بأجناسه المختلفة نرىٰ أن منهـا ما يمشي على أربع ، ومنها ما يمشي علىٰ إثنتين ، ومنها ما يزحف علىٰ بطنه ، ومنها ما يسبح في الماء ، ولكن الإنسان بهذه الهيئة المخصوصة وبهـذا الهيكل

---

(٥) سورة النجم ، آية : ٤٣ .

الذي يبدأ من أسفل إلى أعلىٰ أو بالعكس يظهر أن له تكريماً خاصاً عند الله .

فلو أخذنا هذا القوام الإنساني المعتدل ورتبناه ترتيباً تنازلياً لوقفنا أمام هذا الترتيب مشدوهين حائرين .

فأول ما يصادفنا بهذا الإعتبار من هذا البدن الرأس ، هو أعلىٰ عضو فيه ، وأعلى شيءٍ في هذا الرأس هو الدماغ الذي يحتوي على العقل وهو الذي يدير حركات الإنسان وسكناته ، وهو متربع فوق الهرم الإنساني بمنزلة السلطان على الأعضاء ، وملك الحواس التي تصدر عن أمره وتتقيد بنهيه وهو يرسل الإشارات إليها عبر أجهزةٍ خاصة بواسطة عضلات تتحرك فور صدور الأوامر لأي عضو من أعضاء البدن ، وفي هذا أبحاث طويلة طوينا عنها كشحاً خوف الإطالة .

« الحواس وسائر الأعضاء العاملة في الجسم »

وفي الرأس معظم الحواس ، أو كل الحواس ، ولكن هناك من الحواس ما هو أقرب إلى الدماغ من غيرها ، فالسمع والبصر إهتم بهما القرآن الكريم أكثر من غيرهما من سائر الحواس ، لأنهما أقرب إلى العقل من غيرهما ، فهما يعتبران من الحاشية المقربة إلى السلطان الإنساني ، فجاء قوله ـ تعالى ـ مشيراً إليهما مع العقل لربطهما به . قال تعالى : **﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾**[٦] .

ويحتوي الرأس كذلك على حاسة الشم والطعم ، وهما من الأهمية ، بمكان ولكنهما أقل أهمية من السمع والبصر . وتنزل بعد ذلك إلى الصدر حيث يحوى الرئتين والقلب ، وهذه مما يتوقف عليها استمرار حياة الإنسان ، وقد مر الكلام حول هذا الموضوع في الجزء الأول من الكتاب .

وهكذا كلما نزلنا إلى عضوٍ من أعضاء الجسم نراه قد وجد في مكانه الملائم في جسم الإنسان من حيث عمله المنتظم وحمايته من العوارض التي تؤثر فيه على الخصوص دون غيره من بقية الأعضاء إذاً فقوله ـ عليه

---

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٣٦ .

السـلام ـ : (فعدلت فـطرتي) يعني إعتدال قـوامه ، وتنـاسق أعضائـه . وقيل : أن معنىٰ الفطرة هي الصفة التي يتصف بها كل شيءٍ موجود في أول زمـان خلقـه ، ويجيء بمعنىٰ الـدين والملّة ، والسنـة منـه ، إن الله خلق الإنسان على الفطرة التي فطره عليها لا يعـرف إيمانـاً بشريعـة ، ولا كفراً بجحود ، ثم بعث الله الرسل فدعوا العباد إلى الإيمان وفيه أفضل ما يتوسل به المتوسلون كلمة الإخلاص ، فإنها الفـطرة وإقام الصـلاة فإنهـا الملّة ، قيل : أشار بالأولىٰ إلى الإقرار (بلا إله إلّا الله) فإنها كانت يوم الميثاق ، وبالثانية إلى أنها كانت في دين الأنبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ ومللهم .

وفي الحديث : عشرة من الفطرة فسّر بالسنّة . أي عشـرة أشياء من سنن الأنبياء التي أمرنا الإقتداء بهم فيها ، وكأنها أمرٌ جبليٌّ ، فطروا عليه .

وقيل : المراد به سنة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ولو فسّرت هنا الفطرة بالدين لكان أوجه ؛ لأنها مفسّرة في كتاب الله : ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[7] . والحديث المعـروف بين الفريقين : (كـل مولـود يولـد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) . قيل معناه الفطرة الإسلامية والـدين الحق وإنما أبـواه يهودانـه وينصرانـه ، أي ينقلانـه إلى دينهما .

وهذا التفسير مشكل إن حمل اللفظ على حقيقته فقط ، لأنه يلزم منه أن لا يتوارث المشركون مع أولادهم الصغار قبل أن يهودوهم وينصروهم ، واللازم منتفٍ ، بل الوجه حمله على حقيقتـه ومجازه معـاً ، فعلاً مـا قبل البلوغ وذلك أن إقامة الأبوين على دينهما سبب لجعل الولد تـابعاً لهمـا ، فلما كانت الإقامة سبباً جعلت تهويداً وتنصيراً مجازاً ، ثم أسند إلىٰ الأبوين

---

(٧) سورة الروم ، آية : ٣٠ .

توبيخاً لهما ، وتقبيحاً عليهما ، فكأنه قال : وإنما أبواهما بإقامتهما على الشرك يجعلانه مشركاً .

ويفهم من هذا أنه لو أقام أحدهما على الشرك وأسلم الآخر لا يكون الأولاد قبل أن يفصحوا بالكفر وقبل أن يختاروه لأنفسهم حكم الآباء فيما يتعلق بأحكام الدنيا . وأما حمله على الحقيقة فعلىٰ ما بعد البلوغ . فوجود الكفر من الأولاد لا ينسب حقيقة إلىٰ الآباء .

الحديثُ عن النشأةِ الأولىٰ

اما النشأة التي أشار إليها بقوله ـ عليه السلام ـ : (ربِّ بِمَا أنْشَأتَنِي) فهو يعني بها النشأة الأولى التي خلقه فيها من طين ، ثم جعله في قرار مكين ، ثم أخرجه إلى الدنيا تاماً سوياً ـ كما أشار إليه في النص السابق ـ وهذه النشأة التي ذكرها هنا لها تطوراتها وميزاتها ومظاهرها .

ومن تأمل في كيفية هذه النشأة الأولى وتطوراتها من أول تخلق الإنسان إلى ان يولد إلى دار الدنيا ، ثم يخرج منها وتابعها يوماً بيوم ، وساعة بساعة ، بل ولحظة بلحظة ، أخذه من ذلك العجب من الرعاية التي تلاحق الإنسان حتى في عد أنفاسه ، وفي نومه ويقظته ، وفي غفلته وانتباهه ، وفي نسيانه وتذكره ، فسبحان من خلق الإنسان ، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحنُ أقربُ إليهِ من حَبلِ الوَرِيدِ**﴾[8] وقد أتينا على كثير من الكلام حول هذا الموضوع في ما مضى في الجزء الأول من الكتاب .

اما الحديث عن النشأة الأخرى فليس هذا موضعه ، وسنعرض له في مناسبة قادمة ان شاء الله تعالى .

---

(٨) سورة ق ، آية : ١٦ .

الصورةُ ووسَائل تحسينها

ثم ذكر نعمة من النعم التي أنعم الله بهـا على الإنسان ظـاهرة على العيـان وذلك بقـوله ـ عليـه السـلام ـ : (فـأحسنت صـورتي) . وصـورة الإنسـان هي من أجمل صـور المخلوقـات ، وأعـدل قـوام في المنشـآت الحيوانية .

وقد ذكر المفسرون الذين تعرضوا إلى موضوع تصـوير الإنسـان في هـذا القوام مـا يقارب هـذا المعنى فقد ذكـر الـطوسي في تفسيـره الكبيـر « التبيان » في قولـه تعالى : **﴿خَلَقَ السَّمٰـواتِ والأرضَ بِالحقِّ وَصـوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكُم وإليهِ المَصِيرُ﴾**[٩] قال : (وصوركم) متوجهاً إلى البشـر كلهم (فأحسن صوركم) معنـاه : من الحسن الذي يقتضيـه العقل لا في قبول الطبع له عند رؤيته ؛ لان فيهم من ليس بهـذه الصفة . وقـال قوم : لا ، بل هو من تقبل الطبع ؛ لانه إذا قيل : حسن الصورة لا يفهم منه إلا تقبل الطبع ، وسبيله كسبيل قوله تعالى : **﴿لَقَدْ خَلقْنَـا الإنسَانَ فِي أحسنِ تَقْويمٍ﴾**[١٠] وإن كان فيهم المشوّه الخلق ؛ لأن هذا عارض لا يعتد به في

---

(٩) سورة التغابن ، آية : ٣ .

(١٠) سورة التين ، آية : ٤ .

هذا الوصف ، والله تعالى خلق الإنسان على أحسن صورة الحيوان كله . والصورة عبارة عن بنية مخصوصة كصورة الإنسان والفرس والطير وما أشبه ذلك .

وقال الطباطبائي في الميزان : ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾[11] المراد بالتصوير إعطاء الصورة ، وصورة الشيء قوامه ، ونحو وجوده ، كما قال تعالى : وذكر آية التين السابقة . وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض والمجموع لغاية وجودها ، وليس هو الحسن بمعنىٰ صباحة المنظر وملاحته ، بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى : ﴿الذي أحسن كل شيءٍ خلقه﴾[12] .

ولعل إختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي فطروا من أجلها وهي الرجوع إلى الله .

وقال في (التبيان) أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾[13] قال : فالصورة البنية التي تميل بالتأليف إلى مماثلة الحكاية . وهي من (صارّه) يصوره صوراً إذا ماله ، ومنه قوله تعالى : ﴿فصرهن إليك﴾[14] ، ولو كانت بنية بغير مماثلة لم يكن صورة .

وقال مجاهد : معناه ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ من شبه أب ، أو أم ، أو خال ، أو عم . وقال قوم معناه : ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ من ذكر أو أنثى ، وجسيم أو نحيف وطويل أو قصير ، ومستحسن أو

---

(١١) سورة غافر ، آية : ٦٤ .

(١٢) سورة السجدة ، آية : ٧ .

(١٣) سورة الإنفطار ، آية : ٨ .

(١٤) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

مستقبح ، ومن قال الإنسان غير هذه الجملة استدل بقوله : **﴿في أي صورةٍ ما شاء ركبك﴾** قالوا : لأنه بيّن أنه يركب القابل في أي صورةٍ شاء ، فدل على أنه غير الصورة[1] .

فالصورة تحكي صاحبها ، وهي تتكلم بكل لسان ، وتنطق بكل لغة ، وقد حفظ هذا اللون من عمل الإنسان كثيراً من الآثار الحضارية التي اندثر ذكرها وغبر زمانها .

ولقد كان التصوير عرف منذ الزمان الأول الذي عاشه الإنسان . وهو وإن كان في ذلك الوقت في شكل بدائي فإنه قد حفظ كثيراً من حالات الإنسان التي تعتريه وتمر عليه عبر العصور . وقد استعملوه بأشكال مختلفة ، فمنه الرسوم التي يعملها الإنسان بيده ، ويرسمها بتخيلاته . ومنها الصور المنحوتة التي يعملها الإنسان بأشكال مختلفة من الكائنات الحية ، ومن الأشجار والأنهار والجبال والغابات والكهوف، وكافة مظاهر الطبيعة التي يشاهدها من حوله وهي في تغير مستمر .

وتابع الإنسان عملية التصوير ، وطورها وتطور معها ، فاستخدم في ذلك الضوء بأشكال شتىٰ ، واستغل في ذلك الأشعة المرئية وغير المرئية ، ومرت بمراحل متعددة بمراحل متعددة وتجارب مختلفة .

ولما كان الضوء في هذا المجال هو الركيزة الأولى فقد حاول الإنسان التحكم فيه عبر آلة التصوير . وهي عبارة عن ثقب صغير في صندوق معتم محكم الإغلاق يتسرب إلى داخله الضوء من فتحة ضيقة صغيرة فتعكس المشهد المقابل لها مقلوباً الأعلىٰ إلى أسفل ، والأسفل إلى أعلى ، على أحد

(١) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي .

سطوح الصندوق في الداخل .

ومن أوائل المتحدثين عن ظاهرة إنعكاس الصورة من خلال ثقب ضيق هو عالم الرياضيات المسلم (الحسن بن الهيثم) ، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد مر ذكره في بعض الأبحاث الماضية من الكتاب في مناسبات مختلفة .

واعتنىٰ الإنسان بهذه الفكرة وطرق هذا الباب ، أي باب (التصوير) من جوانبه المختلفة في حدود قدرته ووسائله المستخدمة التي يجدها بين يديه وأهمها (الضوء) ولم يقف عند هذا الحد ، ولكنه ظل يسعىٰ إلى أن استطاع أن يستغل ألوان الطيف السبعة ، ثم أخذ يحسن الصور الفوتغرافية بواسطتها ، وكلما مرت فترة طرأ على هذا التحسين تحسين آخر ، واستفتح من هذه الألوان السبعة ألواناً أخرىٰ استطاع أن يمزجها بعضها ببعض .

والأشعة الضوئية مهما إختلف لونها تسير في خطوط مستقيمة في وسط إفتراضي هو الأثير (وإن كان هذا الكلام يزعج العالم الرياضي أنشتاين لأنه قد ألغىٰ كلمة الأثير من الوجود في نظريته النسبية ، وقال إن الأشعة الضوئية تنحرف عن سيرها في خطوط مستقيمة عند نقطة التماس) وعلى هيئة موجات ذات خواص كهربائية ومغناطيسية . ثم تطور الإنسان في ذلك فحرك هذه الصور ، ثم تطور أيضاً فأنطقها .

ونحن لا يهمنا في هذا البحث كيفية تكون الصورة علىٰ أي وسطٍ من الأوساط ، بأي شكلٍ من الأشكال ، ولا تهمنا حركتها أو سكونها ، ونطقها أو صمتها فإن هذا ليس مجالاً لذلك . وإنما يهمنا ما نحن فيه من المعنىٰ الذي أشار إليه ـ عليه السلام ـ بقوله : (فأحسنت صورتي) وتحسين الصورة عن طريق هذه الألوان المذكورة أخذت أبعاداً مختلفة ، إلّا أنه بعد

هذا كله نشأت لدى المختصين في هذا الفن مشكلة أخرىٰ وهي اختلاف درجة الحرارة لكل لونٍ من هذه الألوان وذلك تبعاً لما يمتصه أو يعكسه من الأشعة التي تسقط عليه من وسط .

فالجسم الأسود مثلاً هو الذي لا يعكس أي أشعة وهو في الحالة الباردة بل يمتص جميع الأشعة الساقطة عليه ، وعليه لا بدّ وأن يكون قابلاً لمقاومة درجات الحرارة العالية وينطبق هذا المثال على قضيب من الحديد .

وعلىٰ هذا الأساس وضعت وحدات قياس (درجة حرارة اللون) المعروفة بالإسم (كلفين) وتزيد هذه الوحدة عن الوحدة الحرارية بمقدار ٢٧٣° فهي تتساوى مع الصفر المطلق . فمثلاً إذا وصلت درجة حرارة الجسم إلى ١٠٠٠° مئوية فسوف ينبعث لون أحمد قاتم ، وهنا يقال إن درجة حرارة لون هذا الجسم يساوي (١٢٧٣° كلفين) .

وحيث لم تقم درجة حرارة اللون إلاّ على العلاقة بين كل من لون ودرجة حرارة الجسم الأسود حين تسخينه ، لذلك نجد أن درجة حرارة اللون لم تكن دالة على درجة الحرارة الحقيقية إلا إذا كان الجسم قابلاً لأن ترتفع درجة حرارته . فلو ذكرنا مثلاً أن درجة حرارة لون الجسم الساخنة ٢٢٧٣° كلفين ، فهذا يعني أن درجة حرارته الفعلية = ٢٠٠٠ مئوية ، فسوف ينبعث لون أحمر قاتم ، وهنا يقال إن درجة حرارة لون هذا الجسم يساوي (١٢٧٣°) كلفين .

وحيث لم تقم درجة حرارة اللون إلاّ على العلاقة بين كل من لون ودرجة حرارة الجسم الأسود حين تسخينه ، ولذلك نجد أن درجة حرارة اللون لن تكن دالة على درجة الحرارة الحقيقية إلاّ إذا كان الجسم قابلاً لأن

ترتفع درجة حرارته .

فلو ذكرنا مثلاً أن درجة حرارة لون الجسم الساخنة ١٢٧٣° كلفين فهذا يعني أن درجة حرارته الفعلية = ٢٠٠٠ مؤوية ، وفي تلك الحالة نذكر أن درجة حرارة لون هذا الجسم درجة حقيقية ، ولكن الغالب دائماً أن يكون التعبير عن درجة لون السماء الزرقاء = ٢٥,٠٠٠° كلفين ، فهنا لا تكون درجة حرارة اللون دالة دلالة حقيقية على أن درجة الحرارة الفعلية في السماء = ٢٥٠٠٠ - ٢٧٣ = ٢٤٧٢٧° مئوية !! ونستنتج مما تقدم أو درجة حرارة لون الأشعة الخارجة من مصدر ضوئي معين لا تعدو أن تكون وصفاً للون الأشعة التي يبعثها فقط .

وإنه لجدير بالذكر أنه ـ نتيجة للتقدم العلمي في أبحاث التصوير الضوئي بصفة عامة والتصوير الملون بصفة خاصة ـ قد أنتجت في السنوات الأخيرة أفلاماً ملونة سالبة متعددة الأغراض لا يدعو استخدامها إلى استخدام مرشحات لتعديل درجة حرارة اللون حين التصوير ، وتضرب لذلك مثلاً بفلم أورفوكلور السالب ذي القناع الداخلي فبالإضافة إلى خصائص أخرىٰ ممتازة يتميز بها هذا الفلم وأدخلت في صناعته ، فإنه قد أعد ليستخدم دون الحاجة لمرشحات ضوئية حين التصوير في كل من ضوء النهار ، وضوء مصابيح التونجستن ، والضوء الخاطف الإلكتروني وضوء مصابيح الفلورسنت الزرقاء ، ومصابيح الفلورسنت الصفراء ، ومصابيح الفتوفولد بجميع أنواعها ، ومصابيح المنزل العادية ، وقد وزنت حساسيته لأشعة درجة حرارة لونها ٤٢٠٠ كلفين أي تتوسط تقريباً بين درجات حرارة لون المصادر الضوئية السابقة .

ومن هذا البيان المفصل ندرك ما قاله في مطاوي كلامه ـ عليه

السلام ـ : (فأحسنت صورتي) إن هذه العوامل مجتمعة هي التي تجعل الإنسان في أحسن صورة وتقويم .

وهناك من لوحات الفنانين الجامدة التي عملها الإنسان بيده تبلغ ملايين الدنانير ومنها لا يقدر بثمن مع العلم بأنها تعتبر من الجامدات ولكنها تحكي الصور الواقعية . فكيف إذا أضيف إلى الواقع الحقيقة نفسها وأصبح الجامد متحركاً بالروح ، فليت شعري بماذا يقدر الإنسان الحي الذي خلقه الله حياً سوياً كما سبق الإشارة إليه في البحث السابق ؟

ولكن الإنسان أصبح الآن يعاني الكثير من الويلات من ظلم الإنسان لنفسه وظلمه لأخيه الإنسان فلم تصبح له قيمة ، ولم يقدر بثمن يذكر ، فاللوحات الفنية لم تقدر بثمن وهي جامدة ، والإنسان الحي لم يقدر أيضاً بثمن وهو متحرك ، وبذلك ضاعت المقاييس وانهدرت الكرامات فبينما تبلغ قيمة اللوحة الفنية عشرات الملايين أو مئات الملايين من الدولارات نرىٰ في الوقت نفسه أن ثمن الإنسان لا يتعدىٰ رصاصة تنطلق من فم البندقية لا تزيد قيمتها على ربع الدولار لا لشيء إلّا لغرض الرغبة في القتل وبدافع الأنانيات .

حكم الصور المجسمة

أما ما يراه الشرع بالنسبة إلى هذه الصور فإن هناك فروقاً وضعوها بين كل منها وأُعطىٰ لكل صنف من هذه الأصناف حكماً . فقد ذكر شيخنا الأجل جمال الملة والدين الشيخ حسين آل عصفور في مكاسب السداد حيث قال :

السابع : (أي من الأشياء المحرمة في المعاملات) التصوير بالصور المجسمة ـ كما عند البعض ـ من ذوات الأرواح ، لا المنقوشة علىٰ البساط والورق ، وعن جماعة من الأصحاب القول بتحريم التماثيل المجسمة وغيرها فقوّىٰ ثاني الشهيدين في المسالك تحريم تصوير ذوات الأرواح ، مستنداً في ذلك إلى معتبرة محمد بن مروان بل صحيحته كما وصفها بالصحة في عقاب الأعمال عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ سمعته يقول : ثلاثة يعذبون يوم القيامة ، وعدّ منهم من صور صورة من الحيوان ينفخ فيها ، وهو مروي في الخصال أيضاً بهذا الطريق ، وفي حديث المناهي ما يؤيده .

واحترزنا بذوات الأرواح عمّا ليس كذلك ، كصور الأشجار والشمس والهلال ، فلا يشمله المنع وإن عمم البعض .

ففي صحيحة زرارة وابن مسلم ، كما في المحاسن ، والأول عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ والثاني عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : لابأس بتماثيل الشجر ما لم يكن شيئاً من الحيوان .

وفي خبر أبي بصير قال : قلت لأبي عبدالله ـ عليه السلام ـ : إنّا تبسط عندنا الوسائد فيها التماثيل ونقوشها ، قال : لابأس بما يبسط منها ويفرش ويوطأ إنما يكره منها ما نصب على الحائط .

وفي صحيحة أبي العباس كما في الكافي عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل**﴾[١٥] فقال والله ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنها الشجر وشبهه ، وبالجملة فالمقطوع بتحريمها هي الصور الحيوانية من ذوات الظل والأجسام للإتفاق عليه في النصوص والفتوىٰ .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ في مقام الإعتراف وتعداد النعم ، وهو على نسق ما تقدم من كلامه في فقرات الدعاء السابقة التفضل والإحسان فقال : (ربِّ بما أحسنت بي وفي نفسي عافيتني) . أما الإحسان ؛ فإنه يشمل كل شيء من الخير قليلاً أو كثيراً ، وفي ذكره ـ عليه السلام ـ للإحسان من عند الله إعتراف ضمني بالعجز عن تعداد النعم ، وهو في نفسه عبادة ، لأن الإستصغار إذا لم يكن إستهانة به فإنه عبادة محضة .

والإحسان من الله للعبد هو دائم منذ وجوده حتى نهاية حياته ، ودوام هذا الإحسان بلا انقطاع يدل على حاجة الإنسان الماسة إليه . فحريّ بالعبد أن يقابل هذا الإحسان من الله المتكامل طول حياته بشيء من

---

(١٥) سورة سبأ ، آية : ١٣ .

الإحسان ولو بجزء يسير من هذه الحياة وفي عكس ذلك كفران بهذه النعمة الشاملة المتواصلة . قال تعالى : ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾[١٦] قال المفسرون هذا استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين السابقتين الذكر في الآية السابقة وما فيهما من أنواع النعم والآلاء ، فيفيد أنه تعالى يحسن إليهم هذا الإحسان جزاءً لإحسانهم بالخوف من مقام ربّهم .

وأما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلاً وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض لهذه الآيات لذلك إلاّ أن يقال الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن إليه فإطلاق الإحسان في قوله : ﴿**إلاّ الإحسان**﴾ يفيد الزيادة .

وفي تفسير العياشي بإسناده عن علي بن سالم قال : سمعت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ يقول : آية في كتاب الله مسجلة . فقلت : وما هي ؟ قال : قول الله ـ عزّ وجل ـ : ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾ جرىٰ في الكافر والمؤمن والبر والفاجر ، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافىء به ، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتىٰ يربي فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالإبتداء .

وفي المجمع في قوله : ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾ جاءت الرواية عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ هذه الآية فقال : هل تدرون ما يقول ربّكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربّكم يقول : هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلاّ الجنة ؟ وفي تفسير القمّي في الآية قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلاّ الجنة .

---

(١٦) سورة الرحمٰن ، آية : ٦٠ .

وهـذه الروايـة مرويـة عن النبي (ص) ، وأئمـة أهـل البيت ـ عليهم السلام ـ وقد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه ، عن علي ـ عليه السلام ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ولفظها : إن الله عزّ وجلّ قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلاّ الجنة . وأسندها في العلل إلى الحسن بن علي ـ عليهمـا السـلام ـ عن النبي ـ صلّى الله عليـه وآلـه ـ واللفظ : هل جزاء من قال : لا إله إلاّ الله إلاّ الجنة(٧) .

---

(١٧) في حديث السلسلة الذهبية المروي عن الإمام أبي الحسن الثاني (ع) إنه قال : قال الله تعالى : (لا إله إلاّ الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي) . وكان هو على ظهر البغلة ، ثم ساقها والتفت إلى الناس وقـال : (ولكن بشرطهـا وشروطهـا وأنا من شروطها) . ويتوجه كلامه هذا إلى معنيين ساميين :

الأول : أن المقصود من كونه من شروطهـا باعتبـاره إمام ولا يصلح التـوحيد بـدون الإمامة .

الثاني : أنه لا يوجد إختلاف في الشيعة من بعـده ، فمن قال بـإمته أكملهم جميعـاً ـ عليهم السـلام ـ .

العافية خير من السقم

أما العافية في النفس ـ كما أشار إليه النص ـ فهي كل ما يتعلق بسيرة الإنسان وسيرة في آخرته ودنياه ، ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن في معناها هو أن العافية تتعلق بجسم الإنسان في صحته ومرضه إلّا أنه بحسب القرائن والسياق الموجود في النص الماثل أمامنا بين يدي هذا البحث هو أن العافية قد تتخطىٰ بمعناها المقصود فيه إلى موارد أخرىٰ تنضم إلى هذا المعنى مما يتعلق بأمور الآخرة ومتطلباتها ؛ لأنه بعيد كل البعد أن يسأل الحسين ـ عليه السلام ـ ربّه عن شيءٍ من أمور الدنيا في ذلك الموقف العظيم ويذهل عن مهام الآخرة وحاجاتها التي هي الغرض الأسمىٰ والهدف الأول للسعي الإنساني الحثيث في طريق الكمال .

قال في جامع السعادات تحت العنوان المتقدم لا تظنن مما قرع سمعك من فريضة البلاء وأدائه إلى سعادة الأبد ، إنه خير من العافية في الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها ، فإياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء ـ عليهم السلام ـ : (ربّنا آتنا في الدنيا حسنة ،

وفي الآخرة حسنة) ، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (سلوا الله العافية ، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلاّ اليقين) ، وأشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ في دعائه : (والعافية أحبّ إليّ) .

وبالجملة : هذا أظهر من أن يحتاج إلى الإستشهاد . إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة إلى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبالإضافة إلى ما يرجىٰ من الثواب في الآخرة ، من حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة . فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، فإنه قادر علىٰ إعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : (أود أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا في النار) ، وقال سمنون المحب :

وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاختبرني

فمبناه على غلبة الحب وانصهاره بحيث يظن المحب بنفسه أنه يحب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه ، وليس لها حقيقة . فإن من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقية . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ ساعة ولا يعول عليه .

وقد روي : (أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ؛ فقال : ما الذي يمنعك عني ؟ ولو أردت أقلب لك ملك سليمان ظهراً ببطن لفعلته

لأجلك ، فسمع ذلك سليمان ـ عليه السلام ـ ، فطلبه وعاتبه في ذلك ، فقال : يا نبي الله العشق لا يحكىٰ) .

ونقل : (أن سمنون المحب بعدما قال البيت المذكور ، ابتلي بمرض الحصر ، فكان يصيح ويجزع ، ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة مما قال ، ويدور على أبواب المكاتب ، ويقول للصبيان : أدعوا لعمكم الكذاب) . والحاصل : أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية ؛ لإستشعارهم رضا المحبوب لأجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب ، فلا يثبت ولا يدوم ، ومع ذلك كله ، فاعلم أن الظاهر من بعض الأخبار الآتية في باب الصبر : إن في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلّا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها ، ويؤيده إبتلاء أكابر النوع ، من الأنبياء والأولياء ، بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وما ورد من أن أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء ، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات العلىٰ والولاء . وعلى هذا ، فالظاهر إختلاف أصلحية كل من البلاء والعافية لإختلاف مراتب الناس . فمن كان قوي النفس صابراً شاكراً في البلاء ، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والإقبال عليها ، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله ، فالبلاء في حقه أفضل في بعض الأوقات ، إذ بإزائه في الآخرة من عوالي الدرجات ما لا يبلغ بدونه ، ومن كان له ضعف نفس يوجب إبتلائه بالمصائب جزعاً أو كفراناً ، أو منعه عن شيءٍ مما ذكر ، فالعافية أصلح في حقه ، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة ، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلىٰ منه . فإن البصير الذي توصل بعينيه إلى النظر إلى عجائب صنع الله ، وتوصل به إلى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع

العلوم ، وتبقىٰ آثاره العلمية على مر الدهور وينتفع من علومه الناس أبداً ، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والأنس والإستغراق ، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيءٍ في ذلك ، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عمله ، ولولا ذلك لكان رتبة شعيب مثلاً ـ وقد كان ضريراً من بين الأنبياء ـ فوق رتبة موسىٰ وإبراهيم وغيرهما ـ عليهما السلام ـ لأنه صبر على فقد البصر وموسى لم يصبر عليه ، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم علىٰ وضم . وهذا باطل ، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين ، ويفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ما ورد في عدةٍ من الأخبار : (أن كل ما يرد على المؤمن من بلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له وأصلح في حقه) ، وما ورد في بعض الأحاديث القدسية : (إن بعض عبادي لا يصلح إلّا الفقر والمرض ، فأعطيته ذلك ، وبعضهم لا يصلح إلّا الغنىٰ والصحة ، فأعطيته ذلك) . وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء[18] .

وجاء في أدعية الطواف بالبيت في خبر سعد بن سعد ـ كما في العيون ـ عن الرضا ـ عليه السلام ـ قال : كنت معه في الطواف ، فلما صرنا بحذاء الركن اليماني قام فرفع يده إلى السماء ، ثم قال : (يا الله ، يا ولي العافية ، وخالق العافية ، ورازق العافية ، والمنعم بالعافية ، والمنان بالعافية ، والمتفضل بالعافية عليَّ وعلى جميع خلقك ، يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، صلِّ على محمد وآل محمد ، وارزقنا العافية ودوام العافية ، وتمام العافية ، وشكر العافية في الدنيا والآخرة ، يا أرحم الراحمين) .

(١٨) جامع السعادات : ج٣ ص٢٧٥ .

أما الكلاءة والتوفيق فكلاهما من النعم الخاصة التي يضفيها الله بعد إفاضة الحياة على الإنسان . فقد يعيش الإنسان وهو غير موفق لأمر من الأمور ، وقد ورد في الشرع الشريف كثير من الأدعية التي تهيء الإنسان للتوفيق وتقربه إلى الله زلفىٰ .

وموانع التوفيق كثيرة لا تنحصر ، وأسبابه تتعدد لتعدد حركات الإنسان وسكناته ونياته ، فإن نوىٰ خيراً ، وقصد خيراً ، وتحرك لأجل الخير سأل الله التوفيق ، فإن لم يوفق فقد أثيب وأعذر وإن وفق فذلك نعمة أخرىٰ تضاف إلى النعم الإلٰهية التي يغمر بها الإنسان في كل حين ، وعلى هذا يأتي قول الشاعر :

على المرء أن يسعىٰ الإصلاح شأنه	وليس عليه أن يكون موفقاً
إذا ما مشىٰ في دربه حاز مغنماً	وغنىٰ له المجد التليد وصفقا
وإن هو لم ينهض بجدٍ وعزمة	تعثر فيما يرتجي وترنقا[١٩]

وبهذا نطق الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿**إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت**﴾[٢٠] قالوا في تفسيرها : إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني من تدبير أمور مجتمعكم ، وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنىٰ عنه ولا مخرج من إحاطته ، ولا استقلال في أمرٍ دونه ، فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الإستطاعة ، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق إستطاعتي ، فاستطاعتي منه وتوفيقي به . وقد بين هذه الحقيقة ، واعترف بأن توفيقه بالله ؛ لأن ذلك من فروع كونه تعالىٰ هو الفاطر لكل نفس والحافظ عليها ،

---

(١٩) البيت الثاني والثالث من تذييل المؤلف .

(٢٠) سورة هود ، آية : ٨٨ .

والقائم على كل نفس بما كسبت كما قال تعالى : ﴿**الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض**﴾[٢١] .

والإنسان الإجتماعي لا حرية له قبال المسائل الحيوية التي تدعو إليه مصالح المجتمع ومنافعه والتحكم في ذلك ليس من الإستعباد والإستكبار في شيء ، إذ أنها إنما يتحكم فيما لا حرية للإنسان الإجتماعي فيه . فالواحد من الناس المجتمعين إذا رأىٰ من أعمال اخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع ، أو لا ينفع ؛ لإبطاله ركناً من أركان المصالح الأساسية فيها ، فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به ، ونهاهم عن إقتراف ما يجب عليهم الإنتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكماً عن هوىٰ النفس مستعبداً للأحرار المجتمعين من بني نوعه فإنه لا حرية لهم قبال المصالح العالية والأحكام اللازمة المراعاة في مجتمعهم ، وليس ما يلقيه إليه من الأمر والنهي في هذا الباب أمراً أو نهياً له في الحقيقة ، بل كان أمراً ونهياً ناشئين عن دعوة المصالح المذكورة قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعة وإنما الواحد الذي يلقي إليهم الأمر والنهي بمنزلة لسان ناطق لا يزيد على ذلك .

اما التوفيق بالإعتبار المذكور في الآية الكريمة فهو قد يحالف الإنسان ، وقد يخالفه لفترة محدودة ولكن ليس معنىٰ ذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أجبر الإنسان وسيطر على جميع حركاته وسكناته فيكون بذلك مسيراً لا مخيراً ، ولكن نقول في ذلك بأن الله قد منع عنه بعض الإحسان والإنعام لعلة إقتضاها تكليف .

ثم كرر ـ عليه السلام ـ الإعتراف بهذا النعم في قوله : (ربّ بما

---

(٢١) سورة فاطر ، آية : ١ .

أنعمت علي فهديتني) وهذا التكرار يدل على انصهاره في محبة الله في موقف قد هيمنت عليه رهبته ورغبته فيما عند الله وبهذا التوازن يكون العبد قد وصل إلى أعلى درجات المعرفة ، وذلك عندما يتعادل الخوف والرجاء في نفسه .

فالهداية هي نعمة من الله خاصة أيضاً وذلك لإرتباط هذا المعنىٰ بما نقدم من التوفيق الذي إن حالف الإنسان نجا ومن خالفه هلك . فالتوفيق سابق على الهداية ؛ لأن الإنسان يوفق للهداية ولكن ليس يهدىٰ للتوفيق ، مع العلم بأن كلاًّ منهما نعمة ولكن إحداهما سابقة والأخرىٰ لاحقة ولهذا فقد وردتا في كلامه بحسب الترتيب المذكور .

ومن النعم التي ذكرها في مطاوي كلامه ـ عليه السلام ـ تفصيلاً وإجمالاً هي قوله : (ربِّ بما آويتني ، ومن كل خير آتيتني ونعمة الإيواء هي من أعظم النعم ومن أحسن ما تفضل به المولىٰ تبارك وتعالىٰ فالإستقرار والأمان والهدوء والراحة كلها تنضم في هذه النعمة . فإن الإنسان الذي يتعرض في كل آن للمؤثرات الخارجية من خطر العدو وخطر الحر والبرد ، وأذىٰ الآفات الأخرىٰ والحيوانات الضارية ، كل ذلك يسبب حاجة الإنسان إلىٰ المأوىٰ الذي يستريح فيه ، وينعم فيه باله بالطمأنينة لكي يستعيد نشاطه ويجدده بين الحين والحين ، ولا يتسنىٰ له هذا إلّا بالمأوىٰ . وفي كلامه ـ عليه السلام ـ : (ربِّ بما آوتيني) يعني فطرتني على هذه السيرة من حب المأوىٰ الذي استريح فيه وأنت الذي هيأته لي ومكنتني من صناعته وعمله . على أن الراحة والإيواء لا تقتصر علىٰ وجود المسكن المريح فإن ذلك لا يعني كل شيء ، فهو محتاج إلى كثير من أمور الحياة التي يحياها كل من في هذا الوجود ، وقد أشار ـ عليه السلام ـ إلى ذلك بقوله : (ومن كل خيرٍ آتيتني وأعطيتني) فإن الإيواء بدون عطاء من الخير معناه :

ألقاه في أليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء
واحذر إذا كنت في الاجواء مرتفعاً من السقوط فإن الخوف للنائي[٢٢]

فإن النعمة تمامها وكمالها والتفضل بها إذا كان الإنسان قد وجد ما يحتاج إليه في تسيير حياته .

ومن أظهر المظاهر لأمور الحياة في حاجاتها الضرورية هو الطعام والشراب ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعيش بدون كساء . ثم إن العيش بالكساء مثلاً سواءً كان فاخراً أو غير فاخر لا يحتاج إلى تبديله مدة من الزمان ، أما الطعام والشراب فإنه يحتاج إليه الإنسان ثلاث مرات على الأقل بين عشية وضحاها . ويحتاج إلى الماء في كل فترة من النهار خصوصاً إذا كان الجو حاراً ؛ وذلك لكي يعوض ما أفرزه الجسم من الماء عن طريق الإخراج سواءً كان عرقاً أو بولاً . فالحاجة إلى الطعام والشرار لا تبارح الإنسان الذي يعيش في مكابدة مع الدهر في سبيل لقمة العيش .

على أن هاتين الناحيتين لا تتوقف حاجات الإنسان عندهما إلاّ أنهما من الضرورات الحياتية لكل كائن حي ومنه الإنسان ؛ لأنهما يتكون منهما الجسم . وفي هذه الناحية أبحاث طويلة لا يسعنا أن نذكرها في هذا المقام فلنطوها خوف الإطالة .

أمّا الإقتناء والغنى في قوله ـ عليه السلام ـ : (ربِّ بما أغنيتني واقنيتني) فإن مفهوم الغنىٰ هو عدم الحاجة إلى الغير ، وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يحتاج إلى غيره في مهمات حياته ، فإن الله سبحانه قد خلق الخلق وجعلهم كسلسلة متصلة الحلقات بعضها مع بعض . فالملك

---

(٢٢) البيت الثاني من تذييل المؤلف .

والسوقة والغني والفقير ، والقوي والضعيف كلهم في درجة واحدة من الإفتقار إلى بعضهم البعض ، ولكنا نعني بعدم الحاجة هو عدم إلقاء الكل على غيره من الناس ، فإن العامل لست بحاجةٍ إليه هو نفسه ولكنك محتاج إلى عمله وهو بالأجر المقابل ، وهذا بخلاف ما إذا طلبت العمل منه بلا مقابل .

فالغنىٰ بالمعنىٰ الأخص هو المقصود من كلامه ـ عليه السلام ـ وقد جاء هذا المفهوم وما يقابله في القرآن الكريم عند قوله تعالىٰ : **﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾**(٢٣) وقوله تعالىٰ : **﴿قد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾**(٢٤) . وقوله تعالى : **﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾**(٢٥) .

ذكر في الدر المنثور : أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا . . .﴾** الخ قال : ذكر لنا أنها نزلت في حيي بن أخطب لما نزلت **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾** قال : يستقرضنا ربّنا ؟ إنما يستقرض الفقير الغني .

وفي تفسير العياشي في الآية عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : والله ما رأوا الله حتىٰ يعلموا أنه فقير ، ولكنهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا : لو كان غنياً لأغنىٰ أولياءه ففخروا على الله بالغنىٰ . وفي المناقب عن الباقر ـ عليه السلام ـ : هم الذين يزعمون أن الإمام يحتاج إلى ما يحملونه إليه .

---

(٢٣) سورة النساء ، آية : ١٣٥ .
(٢٤) سورة آل عمران ، آية : ١٨١ ،
(٢٥) سورة التوبة ، آية : ٩٣ .

ويتضح من هذه الروايات بأن الغنىٰ والفقر معنيان جاريان بهذا المعنىٰ في الكتاب والسنة ، ويمكن إعتبار ما جاء في عبارة الدعاء منسجماً مع هذا المعنىٰ .

ويدل على ذلك على ما قاله ـ عليه السلام ـ بلا فصل (وأقنيتني) والقنية والإقتناء يأتي في الدرجة الثانية بعد الغنىٰ ؛ لأن الغنىٰ سبق أن قلنا في معناه هو عدم الحاجة إلى الغير .

اما الإقتناء فهو يأتي بعد الغنىٰ وهو ـ كما سبق ذكره في فصل اللغة ـ عطاء يبلغ حد الرضىٰ ، وهذا ما أشار إليه الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿**ولسوف يعطيك ربّك فترضىٰ**﴾[٢٦] ؛ وذلك لأن الآلات الكمالية قد يستغني عنها الإنسان في كثير من الأحيان ، ولكن الله بعد أن تفضل على الإنسان بالغنىٰ والثروة فسدّ جميع حاجاته تفضل عليه أيضاً بما يقنيه من الآلات التي يرغب في النظر إليها دون استهلاكها في أغراضه المعاشية . وبذلك تبين هذه العبارة من الدعاء مقدار التوسعة والكرامة اللتين حبي بهما الإنسان من الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن الغنىٰ نعمة ، والإقتناء نعمة أخرىٰ منفصلة عن الأولىٰ مع ملازمة إحداهما للأخرىٰ ، كما أنه ربما يظهر بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق .

وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿**وإنه هو أغنىٰ وأقنىٰ**﴾[٢٧] . فقد ذكر أرباب التفسير لهذه الآية وجوهاً بعضها راجع إلى المعاني اللغوية ، وبعضها مأخوذ بالقرائن الواردة بالسياق . فقد ذكر الشيخ في (التبيان) في معنىٰ الآية أنه أغنىٰ بالمال ، وأقنىٰ بأصول

---

(٢٦) سورة الضحىٰ ، آية : ٥ .

(٢٧) سورة النجم ، آية : ٤٨ .

الأموال . وقال مجاهد : أقنىٰ أي أخدم . وقال الزجاج : معناه أغنىٰ بعد الفقر ، وأقنىٰ بالمال الذي يقتنىٰ . وقيل : معنىٰ (أقنىٰ) أنه جعل له أصل مال ، وهو القنية التي جعلها الله للعبد . فأما (أغنىٰ) فقد يكون بالعافية ، والقوة ، والمعرفة . قال الأعشىٰ :

فأقنيت قوماً وأعمرتهم وأخربت من أرض قومٍ دياراً

أي جعل لهم قنية . واصل (أقنىٰ) الإقتناء ، وهو جعل الشيء للنفس على اللزوم ، فمنه القناة لأنها مما يقتنىٰ ، ومن ذلك أقنىٰ الأنف ؛ لأنه كالقناة في ارتفاع وسطه ودقة طريقه ، والقنو العذق قبل أن يبلغ لأنه كالذي يقتنىٰ في الملزوم حتىٰ يبلغ ، والمقاناة المشاكلة في اللون .

وذكر في الميزان أنه أعطىٰ الغنىٰ وأعطىٰ القنية ، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقىٰ ببقاء نفسه ، كالدار والبستان والحيوان . وعلى هذا فذكر (أقنىٰ) بعد (أغنىٰ) من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته وشرفه .

وقيل : الإغناء التمويل ، والإقناء الإرضاء بذلك ، وقال بعضهم : معنىٰ الآية أنه أغنىٰ وأفقر .

اما الإعانة والعزة التي ذكرت في النص في قوله ـ عليه السلام ـ : (ربِّ بما أعنتني وأعززتني) فإنها منه سبحانه بلا شك . وقد ذكر العزة بعد الإعانة لشدة الملازمة بينهما ، فإن من يعينه الله على إصلاح شأنه وأموره يكون عزيز الجانب وبهذا المعنىٰ جاءت بعض الأبيات الشعرية من قصيدة قلتها :

عزيز متى ما أنتمي لجنابه أعزُّ وجنب الآخرين ذليل
كفاني عزاً أنني كنت عبده وأني أنا المكفول وهو كفيل
لقد قصرت كفي وكل جوارحي عن الشكر للنعما فكيف أقول ؟

والعزة من الله سبحانه وتعالىٰ تختلف عن العزة من الناس ، وذلك لأن الله من جملة أسمائه (العزيز) ، وهي صفة ملازمة للذات المقدسة قال تعالى : ﴿إن العزة لله جميعاً﴾[28] وقال تعالىٰ : ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾[29] وقال تعالىٰ : ﴿يسبح له ما في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[30] .

فالعز كما ترىٰ في صريح الآيات المذكورة هي من صفاته الثابتة ، وكلما تذلل الإنسان وتواضع وأكثر من التعبد لله تعالى نال العزة بذلك أضعافاً مضاعفةً وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله :

أذل لمن أهو لأحظىٰ بعزة ... وكم عزة قد نالها المرء بالذل
إذا كان من تهوىٰ عزيزاً ولم تكن ... ذليلاً له فاقرأ السلام على الوصل
إذا كنت تهوىٰ فالحبيب وصاله ... حبيب وحب المرء يختم بالقتل[31]

اما العز الذي يناله الإنسان من جهات أخرىٰ بأسباب أخرىٰ ، فهو مرهون ببقاء تلك الجهات والأسباب . فإن كان الإنسان قد حصل على العز بالمال فإن عزته باقية ببقاء المال ، فإن زال زالت . وإن كانت العزة بالقوة فإنها تزول أيضاً فإنها تزول عندما يعتري الإنسان الضعف والوهن ، لأن الأحوال المتقلبة بالإنسان لا تثبت على وتيرة واحدة . وإن كانت هذه العزة من العلم فإنها باقية ما بقي العلم ، والعلم باق .

وهكذا نرىٰ أن العز لا يدوم إلّا بسبب من الله وليس بسبب من الناس . ثم ذكر ـ عليه السلام ـ بعض المصاديق التي أعطاها الله للإنسان

---

(٢٨) سورة النساء ، آية : ١٣٩ .

(٢٩) سورة آل عمران ، آية : ٤ .

(٣٠) سورة الحشر ، آية : ٢٤ .

فأعزه بها وذلك بقوله (ربِّ بما أُلبستني من سترك الضافي) والستر الضافي يتوجه إلى عدة جهات منها :

أولاً : إن المقصود بالستر الضافي النعمة الزائدة عن الحاجة ، ولقد سبق أن ذكرنا في معنىٰ الإقتناء هو ما يقنيه الإنسان من الأموال ويجعله ذخيرة تلازمه إلى آخر حياته ، كالأراضي والعقارات والبساتين ، وهذه قد يلجأ إليها الإنسان في وقت الحاجة فيبيع ما يشاء ويبقي ما يشاء .

ثانياً : وربما قصد من الضافي عدم الحاجة إلى الناس في أموره ، أو كثرة الحاجة إليهم إلاّ في بعض الأمور النادرة القليلة ؛ لأنّا لا نقول بأن الإنسان يستغني عن غيره من الناس البتة .

ثالثاً : إن المقصود من إلباسه الستر الضافي هو أخذ اللفظ على حقيقته فإن الله تبارك وتعالى من جملة أسمائه (الستار) . وجاء في دعاء حملة العرش ـ عليهم السلام ـ (يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، ، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ، يا من لم يهتك الستر . . .) الخ . ومعنىٰ ذلك عدم إظهار القبائح من الإنسان ، ولكن هذا المعنىٰ لا ينسجم ومنطق العصمة التي هي من صفاته ـ عليه السلام ـ . إلاّ أن الوجوه السابقة ووجوهاً أخرىٰ لاحقة تصح في ما أراد من العبارة المطروحة في النص الماثل .

اما التيسير من الصنع الكافي الذي أشار إليه في ذيل العبارة وهو قوله ـ عليه السلام ـ (ويسّرت لي من صنعك الكافي) إن معنى الصنع هو الإحسان منه سبحانه ، وبهذا المعنىٰ جاء قوله تعالى : ﴿**واصطنعتك لنفسي**﴾[٣٢] فقد ذكر المفسرون أن الإصطناع إفتعال من الصنع بمعنىٰ

---

(٣١) هذا البيت من تذييل المؤلف .

(٣٢) سورة طه ، آية : ٤١ .

الإحسان : يقال : صنعه أي أحسن إليه ، واصطنعه أي حقق إحسانه إليه وثبته فيه .

ونقل عن القفال أن معنىٰ الإصطناع أنه يقال : إصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتىٰ يضاف إليه فيقال : هذا صنيع فلان وخرّيجه .

وعلى هـذا يؤول معنىٰ اصطناعه إياه إلى استخلاصه تعالىٰ إياه لنفسه ، ويظهر موقع قوله (لنفسي) أتم ظهور . وأما على المعنىٰ الأول فالأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون الإصطناع مضمناً معنىٰ الإخلاص ، والمعنىٰ على أي حال وجعلتك خالصاً لنفسي فيما عندك من النعم ، فالجميع مني وإحساني ولا يشاركني فيك غيري ، فأنت لي مخلصاً ، وينطبق ذلك على قوله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب موسىٰ إنه كان مخلصاً﴾(٣٣) .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم : المراد بالإصطناع الإختيار ، ومعنىٰ اختياره لنفسه جعله حجة بينه وبين خلقه ، كلامه كلامه ، ودعوته دعوته وكذا قوله بعضهم : إن المراد بقوله : (لنفسي) لوحيي ورسالتي ، وقول آخرين لمحبتي ، كل ذلك من قبيل التقييد من دون مقيد .

ويظهر أيضاً أن اصطناعه لنفسه منظوماً في سلك المنن المذكورة بل هو أعظم النعم ، ومن الممكن أو يكون معطوفاً على قوله ﴿جئت على قدرٍ﴾ عطف تفسير .

ومن هذا المعنىٰ يتضح لك معنىٰ العبارة المذكورة ، ونستطيع أن نطبق ما جاء في تفسير الآية السابقة على العبارة هذه فتنطبق معانيها عليها

---

(٣٣) سورة مريم ، آية : ٥١ .

تمام الإنطباق ، فالعبارة الواردة في قوله ـ عليه السلام ـ تحتمل هذه الوجوه المذكورة خصوصاً إذا قلنا بأن الصنع هو الإحسان ، وأن العامل المشترك بين موسىٰ ـ عليه السلام ـ وبين الحسين ـ صلوات الله عليه ـ هي العصمة وحمل المسؤولية العامة ، وتوجيه البشر والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير .

قال عليه السلام :

[صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَعِنّي عَلىٰ بَوائِقِ الدَّهْرِ ، وَصُرُوفِ الْأَيّامِ واللَّيالي ، وَنَجِّني مِنْ أَهْوالِ الدُّنْيا ، وَكُرُباتِ الآخِرَةِ ، وَاكْفِني شَرَّ ما يَعْمَلُ الظّالِمُونَ في الْأَرْضِ] .

اللُّغة

بوائق : جمع بائقة ، والبائقة الداهية ، وداهية بؤوقة شديدة وهي على وزن فعول . وفي الحديث (ليس بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه) . وفي رواية (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) . قال الكسائي وغيره : بوائقه غوائله وشره أو ظلمه وغشمه ، ويقال للداهية والبلية تنزل بالقوم : أصابتهم بائقة . وفي حديث آخر : (أللهم إني أعوذ بك من بوائق الدهر) . قال أبو شفيق :

تراها عند قبتنا قصيراً   وتبذلها إذا باقت بؤوق

وقال ابن الإعرابي : يقال باقه يبوق بوقاً إذا جاء بالبوق وهو الكذب . والبوق الباطل أيضاً .

صروف : صرفان الليل والنهار ، وقوله تعالى : ﴿صرّفنا الآيات﴾ أي بينّاها وصروف الليالي والأيام ما يحدث فيهما . وقال يونس : الصرف الحيلة ، والصرف : أن تصرف إنساناً عن وجهٍ يريده . والصرفة : منزل من منازل القمر وهو نجم واجد نيّر تلقاء الزبرة ، خلف خراتي الأسد ، يقال انه قلب الأسد إذا طلع أمام الفجر فذلك الخريف ، وإذا غاب مع طلوع الفجر فذلك أول الربيع ، والعرب تقول : الصرفة ناب الدهر ؛ لأنها تفتر عن البرد أو عن الحر في الحالتين . وتصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة ، وصرف الدهر حدثانه ونوائبه والصرف حدثان الدهر وهو إسم له لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها . قال صخر :

عاودني حبها وقد شحطت صرف نواها فإنني كمد

أهوال : جمع هول ، والهول المخافة من الأمر لا يدري ما يهجم عليه منه ، كهول الليل وهول البحر ، وتجمع أيضاً على هؤول . قال أبو زيد :

رحلنا من بلاد بني تميم إليك ولم تكائدنا الهؤول

والتهويل التفزيع . قال الأزهري : أمر هائل ، ولا يقال : مهول إلّا في الشعر واستدل على ذلك بقوله أحدهم :

ومهول من المناهل وحشٍ ذي عراقيب آجن مدفان

ومكان مهيل أي مخوف والتهاويل جماعة التهويل ، وهو ما هالك من شيء والتهاويل الألوان المختلفة من الأصفر والأحمر ، وهولت المرأة تزينت بزينة اللباس والحلي .

كربات : جمع كربة ، والكرب منها على وزن الضرب : الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس وجمعه كروب ، والإسم الكربة والكريب

المكروب والكرائب الشدائد ، وكل شيء دنا فقد كرب ، وهو عند سيبويه أحد الأفعال التي لا يستعمل إسم الفاعل منها موضع الفعل الذي هو خبرها . وكربت الشمس للمغيب دنت ، وكربت الجارية أن تدرك . وكرب النخل أصول السعف . وفي المحكم : الكرب أصول السعف الغلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف ، واحدتها كربة .

البيان

لما كانت الصلاة على محمد وآل محمد هي من أقرب القربات إلى الله ، ومن أعظم العبادات وأرجحها في كفة القبول ـ كما وردت بذلك الأخبار عن أهل البيت الطاهر ـ لا غرو إذاً أن كرر ـ عليه السلام ـ ذكر هذه الصلاة في كثير من الفقرات في مطاوي هذا الدعاء الشريف . ولقد كررنا القول بأن العبادة ـ والدعاء منها طبعاً ـ تكون مقبولة إذا كانت محفوفة ما بين بدايتها ونهايتها بهذه الصلاة ، كما ذكر ذلك الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في مامعناه : بأن الله أكرم من أن يقبل طرفي العبادة ويرد وسطها .

ولقد جرىٰ ذكر ذلك وأكثر من ذلك فيما مضىٰ من أبحاث الكتاب فليرجع إليها في مضانها من أراد مزيداً من الإطلاع .

وبعد أن قدم لطلبه بهذه الصلاة ليضمن قبول الطلب من الله ـ سبحانه ـ قال : (وأعني على بوائق الدهر ، وصروف الأيام والليالي) .

إن مسألة طلب العون من الله ـ سبحانه ـ جارية في لهجة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فيما ورد من الأدعية والأذكار ، بل هي جارية على لسان العباد جميعاً ، ولكن يتفاوت الإخلاص في القول والفعل ، فإن هناك فرقاً بين دعوة النبي أو الإمام التي لايحجبها حاجب عن وصولها عن الله ـ تعالى ـ ، وبين دعوة سائر البشر الذين تحجب دعواتهم عن الوصول إلى

الله الذنوب كبيرها وصغيرها . وبوائق الدهر كثيرة طالما أن الإنسان خلق في هذه الدنيا لأنها دارٌ قد حفت بالمكاره والصعاب وتجشم الأهوال . قال تعالىٰ : ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾[1] ، فقد ذكر المفسرون أن معنىٰ الكبد الشدة ، وقيل : معناها مكابدة الدنيا والآخرة . وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وإبراهيم النخعي وغيرهم : معناه في انتصاب مقامه ، فكأنه في شدة قوام مخصوص بذلك من سائر الحيوان . قال لبيد :

يا عين هلّا بكيت أربد إذ　　قمنا وقام الخصوم في كبد

أي في شدة نصب ، فالكبد في اللغة شدة الأمر ، فينبغي للإنسان أن يعلم أن الدنيا دار كدٍ ومشقةٍ ، وأن الجنة هي دار الراحة والنعمة[2] .

وقال في الميزان : الكبد الكد والتعب ، واشتمال الكبد على قلق الإنسان وإحاطة الكد والتعب به في جميع شؤون حياته مما لا يخفىٰ على ذي لب ، فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلّا خالصة في طيبها محضة في هنائها ، ولا ينال شيئاً منها إلّا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة مضافاً إلى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان[3] .

ونعود للتأكيد على هذا المعنىٰ ونحاول قدر الإمكان ان نلقي لمحة خاطفة على مهمة الإنسان العاقل في هذه الحياة ، وتسيير أمورها ، ومدى الدور الذي يؤديه فيها لكي يبلغ إلى درجات الكمال العالية فنقول :

خلق الله الإنسان وأناط به مهماتٍ أوجبها عليه ، ووعده بالجزاء على

---

(١) سورة البلد ، آية : ٤ .

(٢) التبيان : ج١٠ ص٢٥٠ .

(٣) الميزان : ج٢٠ ص٢٩١ .

فعلها وتوعـده على إهمالهـا . والإنسان في محـاولته بـامتثال هـذه الأوامر والإنتهـاء بهذه النـواهي لا بدّ أن يصـادف عقبات تفـرضها عليـه الظروف المحيطة به من الجهات الست ، في محاولته التغلب على هذه العقبات بما أوتي من حولٍ وطولٍ .

ولكن مهمـا حاول الإنسـان أن يتغلب على ذلك فـإنه لا يمكنـه إلّا بسبب من الله وعونٍ منه ، فلا غرو أن طلب الإنسان من الله العون على ما يصرفه عن مهماته وأداء واجبه .

هـذه البوائق تختلف بـاختلاف البيئـات الإجتماعيـة والزمـانيـة ومـا أكثرها .

إن بوائق الدهر تلازم الإنسان منذ أن يفتح عينيه على هذه الدنيا حتى يغمضهما في قبـره إلّا أنها مرة تكون بوائق فردية تخص الإنسان في نفسه كالمرض والفقر والحرمان . وهذه تؤدي إلى بلبلة الفكر الإنساني حتمـاً . ويعتمد ذلك على قـوة الشخصية وهيمنتهـا وضبط النفس وصلابـة موقفهـا بالنسبة لتلك الصعاب فيكون الإنسان مرة كالجبل الأشم الذي تنحسر عنه الرياح العاتية منها واللينة يميناً وشمالاً . ومرة يكون كالسعفة التي تزعزعها الريح العاتية . ومرة يكون كالريشة التي تحملها الرياح الحفيفة منها والعاتية إلى مهاوٍ مختلفة من بقاع الأرض .

وإذا كانت الحياة على هذه الشاكلة فإنه لا بدّ وأن يطلب الإنسان من الله النجاة ؛ لأنه لا يستـطيع أن يـرىٰ ما يكنـه المستقبل من الأهـوال التي تنضم في حنايا الأيام والليالي وتختبىء بين ساعات المستقبـل ، وهذا مـا فعله ـ عليه السلام ـ بعد أن طلب من الله الإعانة على هذه الأهوال والبوائق وذلك بقوله : (ونجني من أهوال الدنيا وكربات الآخرة) لأن العافيـة خير من الإبتلاء فهو بعد ان طلب العون على هذه البوائق من الـدهر وصـروف

الأيام والليالي ترقىٰ في طلبه إلى النجاة من هذه الأهوال في الدنيا والآخرة علماً منه ـ عليه السلام ـ أن العافية خير من الإبتلاء .

أما أهوال الدنيا وصعاب الحياة فإنها لا تحتاج إلى أدنى تأمل . فإن الإنسان عندما خلق في كدّ وتعب والذي إشار إليه القرآن (بالكبد) بفتح الكاف والباء ، والذي بحثناه في ما مر تواً ، فإنه يكون بديهياً أن تنتاب الإنسان أهوال الدنيا . فالحوادث التي تعتريه وتلم به نتيجة الأنانيات وسائر النزعات الفاسدة من أبناء جنسه ومن غيرهم يغرق فيها الإنسان إلى مشاشه .

والإنسان كسائر المخلوقات يعتريه ما يعتري الأحياء ، ومملكة الإنسان كسائر الممالك الحيوانية سواءً كانت في البر أو البحر أو الجو ، وكل جنس من هذه الأجناس في أي مملكة من الممالك الحيوانية له مشاكله الخاصة على قدره ، ونحن لا نعلم بمشاكل غيرنا من الأجناس الحيوانية ، بل ولا نعلم بمشاكلنا كأفراد جنس واحد ، بل ولا نعلم بمشاكل أنفسنا كلها ، فربما ينشأ مرض يتعقب الإنسان في جميع مراحل حياته ، وربما يكون هذا المرض سبباً قوياً في وفاة كثير من الناس ولا يعلم المريض عن نفسه شيئاً حتى يموت وهذا ما يلاحظ في كثير من المجتمعات المتخلفة حضارياً ، بل ربما كان هذا جارياً حتىٰ في المجتمعات الراقية في حضارتها كما يلاحظ من ردود الفعل الأخرىٰ من الحضارة المغرقة ، فربما نشأت بسبب ذلك بعض الأمراض والمشاكل التي يقف أمامها الفكر والقانون حائرين وما كانت نشأة الإختصاصات في العلوم وتكريس الجهود في دراسة بعض أعضاء الإنسان كلٍّ على حده إلّا لكي يتسنىٰ معرفة الأمراض التي تلم به وأسبابها التي تنشأ عنها .

وعلى هذا يمكن القول أيضاً بأن أهوال الدنيا تكون عامة كما هي

خاصة ، وبواعث الفتن ومصادرها متعددة الجوانب . فكم من ويلات أكتوت بها البشرية نتيجة للأنانيات والأطماع التي لا تقف عند حد بدافع من جشع الإنسان وغروره . ولكن هذا الغرور لا يلبث أن يختفي عند أول ضربة يصاب بها . وهو كعادته في حاجة إلى أن يخلق من أفعاله الخسيسة وتصرفاته المتهورة سبباً يقتنع به ويقنع به الآخرين إلّا أن هذا لا يثبت أمام الواقع ونراه يتلاشىٰ عندما يصطدم بالحقيقة .

وإذا تأملنا في تاريخ الأمم والشعوب وجدناه مليئاً بالحروب الطاحنة الشرسة التي يتحول فيها الإنسان إلى وحشٍ كاسرٍ لا يعرف شيئاً عن الأخلاق والقيم ، وينسىٰ فيها الرحمة والشفقة .

لمحة عن بعض الحروب في الأرض

إن الحرب في كل صورها وأشكالها محاولة إنتحارية . وهي إعلان عن إفلاس المتحاربين في وضع الحلول المناسبة للمعضلات الناشئة بينهم وهي بلا شك نزول بالحضارة من مستواها الأخلاقي الرفيع إلى مستوىٰ شرعة الغاب ، والعدالة لا مكانة لها في هذه الشرعة فهي تفقد من رصيدها في حياة المجتمع على قدر ما تسببه الحرب من الخراب والدمار وتحدثه من المضاعفات الهدامة .

فالجريمة جريمة ، والظلم والقسوة يبقيان ظلماً وقسوةً مهما تكن قدرة الظالمين القساة على مسح آثار جرائمهم من الناحية المادية . وإن الكارثة الحقيقية التي حلت بالإنسان ليست في جانبها المادي فحسب ، ولعل الجانب المادي أن يكون أقل جوانب الكارثة خطراً ؛ لأن الكارثة الحقيقية هي في النفوس ، وفي زوال الثقة بالإنسان ، وفي هدم الأحلام الذهبية وزوال السعادة التي بنتها تعاليم السماء ورسمتها أطماح الفلاسفة من خيار البشر ، وصاغتها أيدي المصلحين ونفخت فيها من روحها قلوب الأنبياء والصديقين .

١ ـ فمن هذه الحروب التي اكتوت معظم البشرية بنارها ، والتي

عرفها الإنسان في النصف الأول من القرن العشرين هي الحرب العالمية الأولىٰ ، أو الحرب العظمىٰ ـ كما يحلو للبعض أن يسميها بناءً على أن هذه الحرب لم تشمل المعمورة ، ولكن معظم سكانها ـ قد قاساها الإنسان معظمه والبعض الآخر نال نصيبه بآثارها ونتائجها . فهي تعتبر أشد الحروب التاريخية وأكثرها تخريباً وأقلها إحتراماً للمواثيق الإنسانية والقيم الأخلاقية . وإذا نظرت ولو من كوة ضيقة إلى ما أهدر من الطاقات البشرية ، والرجال الذين قاتلوا وقاسوا مصائب الحرب وتشظىٰ الرصاص في أجسادهم ، ثم ماتوا وأهالوا عليهم التراب لراعك من أمرهم مايروع.

إن العدسة رفيقة هؤلاء تفضح خفايا أوضاعهم الفظيعة ، وتروي معاني النكبة والأسىٰ في ملامح وجوههم وهم يحتضرون ، فهي تنطق بحشرجات وجوههم قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة وسط الوحل في الخنادق . إن الحرب لعنة وأشد منها نكراً أن تدعو لها بدافع من الأنانيات ، والمصالح الخاصة . وإذا رأيت ثم رأيت عجباً وأمراً كبيراً . فإنك إذا تأملت سبب اشتعال نار الحرب الأولىٰ يأخذ برأسك الدوار من ذلك السبب التافه الذي يتنزه اللسان عن ذكره ويربأ الإنسان بفكره عن التأمل في أمره . فإن هذه الحرب التي اكتوىٰ بنارها الملايين كان سببها زواج ولي عهد النمسا من فتاة وقع في حبها وهي لا تتصل بالأسرة الحاكمة في هذا البلد بنسب أو سبب وعندما وقع في حبها وضرب بالمقاييس الأسرية المانعة من الزواج بمثلها عرض الجدار سبب ذلك في تشاؤم أسرته هذه من هذا الزواج السيء الطالع . وجرت هذه المشكلة عدداً متتابعاً من المشاكل ، وهذه بدورها جرت إلى أكثر من المشاكل الأخرىٰ أدت في النهاية إلى اشتعال كبسولة الحرب العالمية الأولىٰ . وبعد أن غرق الجنرالات المتحاربون من الطرفين عبثاً حاولوا أن يجدوا مبرراً لأعمالهم

الجنونية بل لورطتهم ، ولكن دون جدوىٰ . وبمقدار تفاهة أسباب هذه الحرب فقد جاءت خسائرها على العكس من ذلك كما أشرنا سابقاً .

هذا إذا تناسينا ما قبل هذه الحرب ، وغضضنا الطرف عمّا جرته الأحقاد الدفينة على الإنسان والدين والأخلاق .

٢ ـ الحرب العالمية الثانية : وهي الحصيلة الطبيعية للخلول والمواقف والإتفاقات التي انتهت إليها الحرب الكونية الأولىٰ ، إلّا أن الحرب العالمية الثانية أطول نفساً وأعنف أسلحة ، وأقدر على تحطيم أحلام البشرية في الأمن والإستقرار والطمأنينة والسلم . ونستطيع ان ندرك روح الثأر والإنتقام من خلال نظرة بسيطة على المجتمع الألماني في ذلك الوقت ما بين الحربين عندما تتحول عبقريات أبنائه لصناعة آلة الحرب المدمرة ، ثم تنطلق آلة الحرب لتعيد المأساة البشرية على صورة أكثر بشاعة وهولاً وتصميماً على تدمير قيم الخير وعناصر النبل في الإنسان .

ولم تكد تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها حتىٰ بدأت بذور الشك والخوف والحقد تبرز من جديد قبل أن يجف الحبر الذي كتبت به صكوك السلام ومواثيق المستقبل .

لقد سكنت الحرب بين الحلفاء الغربيين والشرق السفياتي من ناحية وبين قوات المحور من ناحية أخرىٰ لتنفجر بعد ذلك بقليل حروباً محلية ، وحملات دعاوية ، ومناورات عسكرية . ولقد ثبت لنا أن الحرب العالمية الثانية بكل كوارثها الرهيبة لم تستطع أن تقنع الإنسان بضرورة التحرر نهائياً من كابوس الرغبة في القتل والتدمير .

ونحن لا نريد أن نخوض في تفاصيل هاتين الحربين الشرستين واللتين تجاهل فيهما الإنسان مكانته التي وضعه الله فيها ، وصادر فيهما

القيم الإنسانية والأخلاقية فعاد وحشاً كاسراً لا يعترف بدين ، ولا يقدر القيم ، وإنما نذكرهما لكي نعرضهما نموذجاً صارخاً لما يقاسيه الإنسان في هذه الدنيا من أهوال ومحن وما أكثرها ، وكم من أهوال وبلايا وحروب طاحنة أزهقت فيها النفوس ، وانتهكت الحرمات ، وأهدرت الكرامات لأتفه الأسباب وأحقرها . ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً لصادفتنا الحروب المماثلة التي لا هدف لها ، بل يهزأ الإنسان منها بل بالأحق أن يهزأ الإنسان بنفسه عندما يسمع بذكر حرب البسوس ، وداحس والغبراء وغيرهما .

وبهذا اللحاظ جاءت هذه العبارة من الفقرة المشروحة وهي قوله ـ عليه السلام ـ : (ونجني من أهوال الدنيا) فإن ما ذكرنا من أصدق المصاديق على ذلك . ثم ينتقل ـ عليه السلام ـ إلى ذكر : (كربات الآخرة) وهذه أعظم من أهوال الدنيا لأنها عذابٌ مقيمٌ . ويمكن توجيه الكربات إلى جهتين :

الجهة الأولى : إنه يمكن أن يقصد بالكربات ما يصادفه الإنسان من عقبات منذ وفاته حتىٰ يوم النشور فإنه قد وردت الأخبار بعد أن ذكر ذلك القرآن بأن العقبات منذ مرحلة البرزخ إلى يوم القيامة لا تعد ولا تحصىٰ ويمكن إعتبارها من الكربات لأنها حواجز تحول بين الإنسان وبلوغه ما يريد .

الجهة الثانية : أنه ربما يقصد بالكربات هو العذاب المقيم ومصير الإنسان الأسود . وهذا لا يتمشىٰ مع الإعتقاد بعصمة الإمام ومكانته عند الله .

ولكن يمكن القول بأن المقصود بكربات الآخرة هو ما ذكرته الآيات الكريمة في القرآن والتي استعرضتها وحذرت الإنسان منها .

فمما ورد في ذلك اليوم هو وجوب الإقرار والإعتقاد بأهوال يوم

القيامة ومواقفها ، ومراتب الناس فيها وقيام الأمم حفاة عراة ما سوىٰ أهل الولاية والإيمان فأنهم يبعثون بأكفانهم أو مكسيين من حلل الجنة ويقفون بين يدي الله للحساب وقد استفاض ذلك في الآيات والروايات ومنهم من لا تنشر له دواوين أعماله لكرامته عند الله ، ومنهم من لا تنشر له دواوين أعماله لكثرة معاصيه ، فيأمر به إلى النار ، وقد قال الله في سورة الرحمٰن : **﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾**[٤] .

ففي رواية أبي الواردة عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الناس في صعيد واحد ، وهم حفاة عراة فيقفون في المحشر حتىٰ يعرقوا عرقاً شديداً ، فتشد أنفاسهم ، فيمكثون في ذلك خمسين عاماً ، وهو قول الله تعالىٰ : **﴿وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلّا همساً﴾**[٥] قال : ثم ينادي منادٍ من تلقاء العرش : أين النبي الأمي ؟ فيقول الناس : قد اسمعت . فسم باسمه : فينادي أين محمد بن عبدالله ؟ نبي الرحمة النبي الأمي ، فيقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أمام الناس كلهم ، حتىٰ ينتهي إلى حوض طوله ما بين إيلة إلى صنعاء ، فيقف عليهم . ثم ينادي بصاحبكم فيتقدم أمام الناس فيقف معهم ، ثم يؤذن للناس ، فيمرون بين وارد الحوض يومئذٍ ، وبين مصروف عنه ، فإذا رأىٰ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من يصرف عنه من محبينا يبكي ، فيقول : ربِّ شيعة علي ، قال : فيبعث الله ملكاً فيقول ما يبكيك يا محمد ؟ فقال أبكي لشيعة علي ، أراهم صرفوا لتلقاء أصحاب النار ، ومنعوا ورود الحوض . قال : فيقول له الملك : إن الله يقول : قد وهبته لشيعتك يا محمد ، وصفحت عن ذنوبهم ، وألحقتهم بك ، وبمن يقولون

---

(٤) سورة الرحمٰن ، آية : ٣٩ .

(٥) سورة طه ، آية : ١٠٨ .

به ، وجعلتهم في زمرتك يا محمد فأوردهم حوضك .

فقال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ : كم من باكٍ يومئذٍ وباكية ، ينادون يا محمد إذا رأوا ذلك ، ولا يبقىٰ يومئذٍ أحد يتولانا ، ويحبنا ، ويتبرأ من عدونا ويبغضهم ، إلّا كان في حزبنا ومعنا ، ويرد حوضنا .

وفي الكلام عن الإقرار بالصراط وهو على ما ورد في الأحاديث المتواترة بين الفريقين جسر ممتدٍ بين الجنة والنار أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وأظلم من ظلمة الليل ، رأسه ينتهي إلى الجنة ، وأكثره امتداداً على النار ألف سنة صعود ، وألف سنة هبوط ، وألف سنة اعتدال ، يكلف الناس العبور عليه ، وفي تفسير القمي في : ﴿وجيء يومئذٍ بجنهم﴾[٦] : سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عن ذلك فقال : أخبرني الروح الأمين جبرئيل ـ عليه السلام ـ ان الله تعالىٰ لا إله غيره ، إذا برز الخلائق وجميع الأولين والآخرين أتي بجنهم تقاد بألف زمام يقودها مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد ، إلى أن قال ، ثم يوضع عليها الصراط ، وهو أدق من الشعرة ، وأحد من السيف عليه ثلاث قناطر :

أما واحدة فعليها الأمانة والرحم .

وأما الثانية فعليها الصلاة .

وأما الثالثة فعليها عدل ربّ العالمين ، لا إله إلّا هو فيكلفون الممر عليها فتحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها كان منها كان المنتهىٰ إلى رب العالمين جلّ جلاله وهو قوله تعالى : ﴿إن ربّك لبمرصاد﴾[٧] والناس على الصراط ، فمتعلق بيد ، فتزل قدم ، وتستمسك قدم ، والملائكة حولها

---

(٦) سورة الفجر ، آية : ٢٣ .

(٧) سورة الفجر ، آية : ١٤ .

ينادون يا حليم اغفر ، واصفح ، وعد بفضلك وسلم ، والناس يتهافتون في النار كالفراش فإذا نجا ناج برحمة الله ـ عزّ وجلّ ـ ومر بها قال : الحمد لله وبنعمته تتم الصالحات ، وتزكوا الحسنات ، والحمد لله الذي نجاني منك بعد الإياس ، بمنه وفضله ، إن ربّنا لغفور شكور .

ثم انتقل من بعد ذلك إلى كفايته شر ما يعمل الظالمون في الأرض فقال : (واكفني شرّ ما يعمل الظالمون في الأرض) وقد يأخذك العجب عندما تتأمل في كيفية الربط بين الجمل السابقة والتذييل بهذه العبارة .

فإنه لا يخفى بأن بوائق الدهر وصروف الأيام والليالي ، وأهوال الدنيا ، وكربات الآخرة لا يمكن أن تنساق إلى الإنسان إلّا بواسطة عمل الظالمين ، وهي من باب ذكر العام بعد الخاص كقوله تعالى : ﴿وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً﴾[8] وفي ذلك ما لا يخفىٰ من النواحي البلاغية .

اما عمل الظالمين في الأرض فلا شك أنه شر . هذا هو المتبادر إلى الذهن ، وربما عمل الظالم خيراً ولكن وإن حدث ذلك فإنه ليس مقصوداً عنده . ثم إن كان قاصداً في فعله فإنه لا يقصد الخير ، وقصد الخير من حيث هو خير يعني يريد به القربة إلى الله ، وفي حالة عمله هذا فإنه لا يكون ظالماً ، والإشارة في هذا الكلام منه ـ عليه السلام ـ هو يعني الظالم الذي لا يريد إلّا عمل الشر ، وإذا قصد الإنسان الظالم عمل الشر سواء تحقق ذلك أم لا فإنه يصبح ظالماً في فعله .

إذاً فعمل الظالمين يغلب عليه فعل الشر بأي كيفية جاء هذا العمل ؛ لانه لا ينوي بذلك خيراً .

---

(٨) سورة عبس ، آية : ٢٩ ، ٣٠ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ مٰا أَخٰافُ فٰاكْفِني ، وَمٰا أَحْـذَرُ فَقِني ، وَفي نَفْسي وَديني فَاحْرُسْني ، وَفي سَفَري فَاحْفَظْني ، وَفي أَهْلي وَوَلَدِي فٰاخْلُفْني ، وَفيمٰا رَزَقْتَني فَبٰارِكْ لي ، وَفي نَفْسي فَذَلِّلْني ، وَفي أَعْيُنِ النّاسِ فَعَظِّمْني ، وَمِنْ شَرِّ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَسَلِّمْني ، وَبِذُنُوبي فَلاٰ تَفْضَحْني ، وَبِسَريرَتي فَلاٰ تُخْزِني ، وَبِعَمَلي فَلاٰ تَبْسِلِني ، وَنِعَمِكَ فَلاٰ تَسْلُبْني ، وَاِلىٰ غَيْرِكَ فَلاٰ تَكِلْني] .

اللُّغة

أخاف : الخوف الفزع خافه خوفاً ومخيفةً قال الليث : صارت الواو ألفاً في (يخاف) لأنهم على بناء عمل يعمل فاستثقلوا الواو وألقوها ومنه التخويف والإخافة والتخوف قال الشاعر :

أتهجر بيتاً بالحجاز تلفعت   به الخوف والأعداء أم أنت زائره

والمخاف والمخيف موضع الخوف وطريق مخوف ومخيف تخافه الناس . قال تعالى : ﴿لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم

يحزنون﴾[1] وقال تعالى : **﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾**[2] .

أحذر : الحذر الخيفة حذره يحذره واحتذره خافه وأنشد ابن الإعرابي :

قلت لقوم خرجوا هذا ليل   إحتذروا لا يلقكم طماليل

والتحذير التخويف وفي التنزيل العزيز : **﴿وإنا لجميع حاذرون﴾**[3] وقال الزجاج : الحاذر المستعد والحذر المتيقظ وتقول حذار يا فلان أي إحذر وأنشد ابن النجم : -

حذار من أرماحنا حذار   أو تجعلوا من دونكم وبار

وتقول حذار في عسكركم ودعيت نزال بينهم .

فاخلفني : خلفه يخلفه صار خلفه واختلفه أخذه من خلفه قال النابغة الذبياني :

حتىٰ إذا عزلت توائم مقصراً   ذات العشاء واخلف الأركاح

الخلف ضد قدام خلف نقيض قدام مؤنثة وهي تكون اسماً وظرفاً والتخلف التأخر والخلف الظهر قوله فاخلفني أي ردّني إلى خلفه والخلف المربد يكون خلف البيت هو محبس الإبل .

فذللني : الذل نقيض العز وفي أسماء الله تعالى المذل وهو الذي يلحق الذل بمن يشاء من عباده وينفي عنه أنواع العز جميعها ، والذل

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٧٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٥٦ .

بالكسر اللين وهو ضد الصعوبة والذلول يكون في الإنسان والدابة ، ودابة الذلول بينة الذل ومنه حديث ذي القرنين انه خير في ركوبه بين ذلل السحاب وصعابه فاختار ذلله . وقال تعالى : **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾**(٤) .

تفضحني : الفضح فعل مجاوز من الفاضح والمفضوح والإسم الفضيحة إفتضح الرجل إذا ركب أمراً سيئاً فاشتهر به . ويقال للنائم وقت الصباح فضحك الصبح فقم معناه ان الصبح قد استنار وتبين حتىٰ بينك لمن يراك وشهرك وقد يقال أيضاً فصحك الصبح بالصاد ومعناها متقارب وفضحه الصبح بياضه والإسم الفضاحة والفضوح والأفضح الأبيض وليس بشديد البياض . قال ابن مقبل :

فأضحىٰ له جلب بأكناف شرمةٍ اجش سماكى من الوبل أفضح

الأجش الذي في رعده غلظ والسماكي الذي مطر بنؤ السماك وشرمة موضع بعينه .

تخزني : الخزي السوء خزي الرجل يخزي خزياً وخزي ، وقع في بلية وشر وشهرة فذل بذلك وهان . وقال أبو إسحاق في قوله تعالى : **﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾**(٥) المخزي في اللغة المذل : المحقور بأمر قد لزمه بحجة والخزي : الهوان وامرأة خزياء . قال أمية :

قالت أراد بنا سوءاً فقلت لها خزيان حيث يقول الزور بهتاناً

فلا تبسلني : بسل الرجل وتبسل كلاهما عبس من الغضب والشجاعة وتبسل لي فلان إذا رأيته كريه المنظر ، وتبسل وجهه كرهت مرآته وفظعت

---

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ٩٤ .

قال أبو ذؤيب يصف قبراً :

فكنت ذنـوب البئـر لمـا تبسلت وسربلت اكفاني ووسدت ساعدي

لما تبسلت أي كرهت والباسل الأسد لكراهة منظره وقبحه . والبسالة الشجاعة والباسل الشديد والشجاع والجمع بُسلاء سمي بذلك الرجل الشجاع لأن الرجال في الحرب يكرهون لقاءه . والبسل من الأضداد وهو الحرام والحلال الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء قال الأعشىٰ في الحرام :

أجـارتكم بسـل علينـا محـرم وجـارتنـا حـلٌ لكم وحليـهـا

تسلبني : السلب ما يسلب وكل شيء على الإنسان من اللباس فهو سلب والفعل سلبته وفي الحديث من قتل قتيلاً فله سلبه وما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة وسلبت المرأة وهي مسلب إذا كانت محداً تلبس الثياب السود للحداد . وكل طريق ممتد فهو أسلوب ويقال للوجه والمذهب فيقال للوجه والمذهب فيقال أنتم في أسلوب سوء .

تكلني : الوكل الذي يكل أمره إلى غيره ورجل وكلٌ بالتحريك وتكلة ومواكل عاجز كثير الإتكال على غيره يقال وكلة تكلة أي عاجز يكل أمره إلى غيره وقيل وكلٌ إذا كان ضعيفاً ليس ينافذ الوكل ، والوكل بفتح الكاف وكسرها البليد والجبان ، والمتوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره وتوكل على الله واتكل استسلم إليه ومن أسمائه تعالى الوكيل قال سبحانه : ﴿**ألّا تتخذوا من دوني وكيلاً**﴾[٦] قال الفراء : يقال ربّاً ويقال كافياً وقيل : الوكيل الحافظ وقال في

---

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٢ .

قوله تعالى : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[7] كافينا الله ونعم الكافي .

البيان

الخوف مسألة من المسائل الوجدانية ، وله أسباب ومواطن كثيرة . فمرة يكون محموداً ومرة يكون مذموماً . وقد ذكرنا في كلام سابق لمحة عن الخوف عند الكلام عن الخشية ، وأشرنا هناك إلى أن الخشية إذا كانت من الله ـ تبارك وتعالى ـ فهي الغرض الأسمىٰ ، ونقول هنا أيضاً أن الخوف على نوعين :

أحدهما : أن يكون مذموماً بجميع أقسامه ، وهو الذي لم يكن من الله وليس لله ، ولا من معاصي العبد وجناياته ، بل يكون لغير ذلك من الأمور الأخرىٰ . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ومن نتائج الجبن .

وثانيهما : محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته إشفاقاً من ذنوب العبد ، وهو من فضائل القوة الغضبية ؛ لأن العقل يأمر به ويحسنه فهو حاصل من إنقياده له . وللنوع الأول أقسام يقبحها العقل بأسرها ، ولا يجوزها فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها إلى نفسه ؛ وذلك أن باعث هذا الخوف يتصور على أقسام :

١ ـ أن يكون أمراً ضرورياً لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر . ولا ريب في ان الخوف في مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوىٰ تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية .

٢ ـ أن يكون أمراً ممكناً لم يجزم من شيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا

---

(٧) سورة آل عمران ، آية : ١٧٣ .

الشخص مدخلية في وقوعه وعـدمه ، ولا ريب في أن الجـزم بوقـوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضىٰ العقل ، فالـلازم إبقاؤه على إمكـانه من دون جزم بحصوله . قال تعالى : ﴿لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾[8] . وهـذا القسم مـع مشاركتـه للأول في استلزامـه تعجيل العقـوبة بـلا سبب لعـدم مدخليته لإختياره فيه يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

٣ ـ أن يكون أمراً ممكناً فاعله هذا الشخص ، وهو ناشىء عن سوء إختياره ، فعلاجه ألّا يرتكبه ، ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته ؛ فإنه إمّا فعله غير قبيح ، ومن شأنه أن يؤدي إلى ما يضره ، ولا ريب ، أن ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعـد إيقاعـه فيكون من الثاني ، والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله .

٤ ـ أن يكون مما تتوحش منه الطباع بلا داع عقلي ولا باعث آخر ، كالميت والجن وأمثالهما لا سيما في الليل مع وحدته ولا ريب في أن هذا نـاشىء عن قصور العقـل ، ومقهوريتـه الواهمـة ، فليحرك القـوة الغضبية ويهيجها ليتغلب بها العاقل على الوهم وربما ينفع إلزام نفسه على الواحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها حتىٰ يزول عنه هذا الخوف على التدريج ولما كان خوف الموت أشـد أقسام هـذا النوع وأعمهـا فلنشر إلى عـلاجه بصورة سريعة :

١ ـ تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت . ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل ، إذ الموت ليس إلّا قطع عـلاقـة النفس عن بدنه وهي باقية أبداً كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد والظواهر

---

(٨) سورة الطلاق ، آية : ١ .

السمعية فمن تأمل أدنىٰ تأمل تخلص من هذا الخوف .

٢ ـ تصور إيجابه ألماً جسمانياً عظيماً لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه . وهذا أيضاً من الخيالات الفاسدة فإن الألم فرع الحياة ، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل إنسان في حياته من الأوجاع وقطع الإتصال ، وبعد زوال الحياة لا معنىٰ لوجوده ؛ لأن كل جسماني إدراكه بواسطة الحياة ، وبعد إنقطاعها لا إدراك ، فلا ألم .

٣ ـ صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والأحباب ومعلوم أن هذا ليس خوفاً من الموت في نفسه بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية ، وعلاجه ان يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق بالعاقل أن يرتبط بها قلبه .

٤ ـ تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم ، لأن مسرة الأعداء وشماتتهم لا توجب ضرراً في إيمانه ودينه ، ولا ألماً في روحه وجسمه ، على أن ذلك لا يختص بالموت إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة أيضاً من البلايا والمحن ، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد .

٥ ـ تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الأعمال وقبائح الأعمال ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح إلاّ أن البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئة وكسب الطاعات جهل وبطالة ؛ إذ هذا الخوف ناشىء من سوء الإختيار ، وقد بعث الله الرسل ووصى هؤلاء أوصيائهم لاستخلاص الناس عنه ، فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الإخلاص .

الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته

أما هذا الخوف فهو ينقسم أيضاً إلى أقسام :

١ ـ أن يكون من الله ـ سبحانه ـ ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمىٰ بالخشية والرهبة في القلوب قال تعالى : ﴿**إن الذين هم من خشية ربّهم مشفقون . . .**﴾[٩] الآية، وقد تقدمت الإشارة من قرب إلى هذا المعنىٰ عند الكلام عن الخشية.

٢ ـ أن يكون هذا الخوف مسبباً عمّا يجنيه العبد بإقترافه المعاصي .

٣ ـ أن يكون منهما جميعاً ، وكلما زادت المعرفة بجلال الله ، وعظمته ، وتعاليه ، وبعيوب نفسه وجناياته إزداد الخوف . إذ أن إدراك القدرة القاهرة ، والعظمة الباهرة ، والقوة القوية ، والعزة الشديدة كل هذا يوجب الإضطراب والدهشة ، ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ، وأنىٰ لأحدٍ من أولي المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه ، ولكن من كان في إدراكه أقوىٰ وأقدم كان بربّه أعرف ، ومن كان به أعرف كان منه أخوف . قال تعالى :

---

(٩) سورة المؤمنون ، آية : ٥٧ .

﴿إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء﴾[١٠] . وقال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله ـ (أنا أخوفكم من الله) .

وأقلُ درجات الخوف ما يظهر أثره في الأعمال ، أن يكف عن المحظورات ويسمىٰ الكف عنها (ورعاً) ، فإن زادت قوته كف عن الشبهات ، ويسمى ذلك (تقوىً) . إذ التقوىٰ أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق في التقوىٰ ، وهذا الصدق يسمىٰ صاحبه (صديقاً) . فيدخل في الصدق التقوىٰ ، وفي التقوىٰ الورع ، وفي الورع العفة ؛ لأنها عبارة عن الإمتناع عن مقتضىٰ الشهوات .

إن الخوف لا يتحقق إلاّ بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، أو مكروهاً لإفضائه إلى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية إلى المكروه وهو عذاب الآخرة ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة فإما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته ، وسؤال النكيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحدته ، وهول المطلع ووحشته ، ، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته ، والحياء من كشف سريرته . وهذا خوف أرباب القلوب العارفة . قال تعالى : ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[١١] وقال تعالىٰ : ﴿وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوىٰ ، فإن الجنة هي المأوىٰ﴾[١٢] .

وهناك ما ورد في هذا النوع من الخوف وهو ما يطمئن الإنسان عند

---

(١٠) سورة فاطر، آية : ٢٨ .

(١١) سورة آل عمران ، آية : ٢٨ .

(١٢) سورة النازعات ، آية : ٤٠ ـ ٤١ .

لقائه بربّه . ففي الحديث القدسي (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة) . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (رأس الحكمة مخافة الله) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء) . وقال لإبن مسعود : (ان أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي) ، وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً) .

وعن ليث بن أبي سليم قال : (سمعت رجلاً من الأنصار يقول : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء ، يكوي ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة يقول : يا نفس ذوقي ، فما عند الله أعظم فما صنعت بك ، ورسول الله ينظر إليه ما يصنع . ثم إن الرجل لبس ثيابه ثم أقبل ، فأومأ إليه النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بيده ودعاه ، فقال له : يا عبد الله رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت ؟ فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم بما صنعت بك . فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لقد خفت ربّك حق مخافته ، وإن ربّك ليباهي بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه ، يا معشر من حضر ! إدنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم . فدنوا منه ، فدعا لهم . وقال : أللهم اجمع أمرنا على الهدىٰ واجعل التقوىٰ زادنا والجنة مآبنا .

وقال ـ عليه السلام ـ : (مما حفظ من خطب النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أنه قال : أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، الا إن المؤمن يعمل بين مخافتين بين أجل قد

مضىٰ لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل لا يـدري ما الله قـاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب ، وما بعدها من دار إلّا الجنة أو النار) .

إلى غير ذلك من الأحـاديث الجمة التـي تشيـر إلى الخوف بجميـع أنواعه التي مرت وفيها تظهر مكانة الخوف في حياة الإنسان ، فإن الله قـد أودع هذه الغريزة في سائر الكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان للمحافظة على النفس في مواطن الخطر .

وندرك بعد هذا الكلام المفصل ما كان يقصده عليه السلام من قوله : (أللهم ما أخاف فاكفني) . فهذا وإن كان وارداً عن الخوف من الـدنيا ، وعلى الخوف من الآخرة ، إلّا إنه بحسب القرائن التي تشير في الكلام إلى ان المقصود كفاية أمور الدنيا عامة من فقر وحرمان ومصائب ، وما قد يؤدي إلى بلبلة الإنسان واضطرابه في تلك الحالات الحرجة ، إضافة إلى ذلـك كله أنه لا يمكن أن ينسى الحسين ـ عليه السلام ـ في ذلك المـوقف مهام الآخرة ومواقفها العظيمة التي تذهـل فيها المـرضع عمّـا أرضعت ، فإنهـا المطلب الأسمىٰ كما أشرنا لذلك في مواطن كثيرة من الكتاب .

وقوله ـ عليه السلام ـ : (وما أحذر فقني) مرتبط كل الإرتباط بكلامه السابق ومتعلق به كعلقة سواد العين ببياضها فإن الحذر سبب عن الخوف ، والإكفاء هو الوقاية كما نص عليه علماء اللغة .

ثم انتقل إلى معنىً آخر في قوله ـ عليه السلام ـ (وفي نفسي وديني فاحرسني) . والحراسة في النفس والدين هو مطلب أسمىٰ أيضاً ونستطيع أن نقول بأن هذه الجملة قد جمعت الدعاء للدنيا والآخرة ، فالنفس هي ما

تتعلق بأمور الحياة ومتطلباتها ، وإن كان عن بعد قد يشمل هذا المعنىٰ أمور الآخرة ، ولكن لعلّه ليس ذلك المعنىٰ مقصوداً . وقد مر معنا في الجزء الأول بحث مفصل عن النفس وقسمناها فيما هنالك إلى ثلاثة أقسام ، أما ها هنا مختصر الكلام بأن النفس في كلامه ـ عليه السلام ـ هي أعم مما تقدم الكلام عنه ، كالنفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة ؛ لأنها بقرينة قوله : (فاحرسني) . يتبادر إلى الذهن طلب الحراسة في نفسه عن الإنحراف ، وفي جسمه من الأذىٰ .

أما بالنسبة إلى الدين فإن حراسته يعني دفع الشبهات عنه ؛ لكي يستطيع الإنسان أن يعبد الله كما أمر ، وبكلمة أخرىٰ أن النفس من متعلقات الدنيا . قال السموأل الشاعر :

صن النفس واحملها على ما يزينها   تعش سالماً والقول فيك جميل

ولا ترين الناس إلاّ تجملاً   نبا بك دهر أو جفاك خليل

وقال البوصيري :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقلت من جملة قصيدة :

النفس نفسك في الحياة يزينها   ترويضها ويشينها التدليل

فحراسته في نفسه إستطاعته ترويضها وكبح جماحها فإن النفس كما تقدمت الإشارة إليها لا تقنع بالقليل ، فإن أعطيت لم ترض إلاّ بالمزيد ، وإن لم تعط لم تصبر على منع العطاء ، وبذلك يقع الإنسان بين شقي الرحىٰ ، فأولى له ان يتحكم في أمرها ، ويتصرف بعقله المهيمن في إدارة شؤونها .

وأما الدين فينبغي أن يستبعد الإنسان فيه العواطف والميول والطبائع

ولا نقول بطرحها جانباً وعدم مدخليتها في الدين . فطرح الميول والطبائع يعني تجريد الإنسان من فطرته ، إلاّ ان الدين فوق كل هـذه الإعتبارات ، وإن كان هو يحترمها ويقدسها ، ولكن الإنسان لا ينبغي له أن يخضع الدين للدنيا، ويقدم الهـوى على أوامر المولى ، فإذا سلم الإنسـان من الفتنة في الـدين فهو في خير كثيـر ، والله يعين العبد على طـاعته إذا أخلص العبـد لله في الطاعة .

ثم انتقـل إلى طلب آخر فقـال : (وفي سفري فـاحفـظني) وذلـك معلوم بأن الأسفار محفوفة بالأخطار سواءً كانت براً أو بحراً أو جواً . وهي أخطار لا بدّ منها وذلك تبعاً لأسبابها وهي الأسفار .

والسفر يختلف مدةً ومسافةً ، وقد راعىٰ الشرع الحكيم هذا الجانب المتعب في السفر فجعل الصلاة مقصورة إذا طالت المسافة عمّا حدده لقطع تلك الطريق وأسقط ذلك سقوط عزيمة ، ثم أمر أمراً لازماً بـالإفطار . إذا صادف السفر في أيام صيام واجب ، علماً منه وتقييمـاً بتلك الأخطار التي يعاينها الإنسان في حركة التنقل وإن كان ذلك ليس بالعلة التامة للقصر في الصلاة والصوم . لذلك فإنه قد طلب في هذه العبارة حفظه مما يجيش به السفـر من الخطر والهلكـة التي ربما كـانت سبباً لعـطب الإنسان في تلك الحال . هذا وقد أعرضنا عن ذكر الأحكـام المتعلقة بـالسفر ؛ لأن الكتب الفقهية قد تضمنت ذلك ، ولأن كتابنا هذا لم يوضع لهذه المهمة . فإنه وإن مرّ بعض المسائل التي تحمل حكماً شرعياً فإنما ذكر ذلك إستطراداً .

ثم جاء قوله ـ عليه السلام ـ : (وفي أهلي ومالي وولدي فاخلفني) وفي هـذه العبارة تـطرق إلى الخلف في الأهل ، ومعنىٰ ذلـك أن الإنسان معرض لفقد الأولاد والإخوة والأقارب ؛ لأن ذلك لازم فرضه الخالق على خلقه من جن وإنس وحيوان ونبات وغير ذلك فهو يقول ـ عليه السـلام ـ :

إجعل لي خلفاً في من مضىٰ من أهلي ، والخلف هـو من يخلف متقدمـاً سابقاً عليه . قال تعالى : ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[13] قال المفسرون : إن آدم ـ عليه السـلام ـ قد خلف الأجنـاس المتقدمة التي سبق خلقها في الأرض مثل الجن والنسناس .

أما الخلف في المال فمعنـاه الرزق المتتـابع الـذي يتجدد من بعـد الإنفاق فكلما أنفق شيئاً من ماله رزقه رزقـاً آخر فيكـون خلفاً لمـا أنفق . وكذلك الخلف في الولد هو نفس الخلف في الأهل .

أما موضـوع الإستخلاف بهـذا المعنىٰ فإنـه يعطي إشـارة لكي ينظر الإنسان إلى ما حوله ، ويتحسس مسؤولياته في أمور حياتـه سواءً كـان في أهله أو ماله أو ولده . فإنه عندما يطلب من الله ذلك ينبغي أن يكون هـذا الطلب مصحوباً بالنية الحسنة فإنها جزءٌ من العمل .

اما قوله ـ عليه السلام ـ : (وفيما رزقتني فبارك لي) فالمقصود به أن الرزق مقرر من الله تعالى لا يزيد ولا ينقص ، ولكن عندما نرىٰ وفور المال في جهة من الجهات أو قلته في جهة أخـرىٰ فإنـه يعتمد ذلـك على وجود البركة وعدمها ، وقـد ورد هذا المضمـون عن الإمام أميـر المؤمنين ـ عليه السلام ـ في قوله : (لا تسألوا الله زيادة الرزق ، ولكن سلوه البركة) وذلك لأن الرزق كما قلنا مقرر قبل أن يخلق الإنسان ، ولكن الـزيادة والنقصـان يوجدان فيه بهذا الإعتبار . وقد مرّ الكلام كثيـراً حول هـذا الموضـوع في مواطن كثيرة من الكتاب .

---

(١٣) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .

التواضع

ثم قال ـ عليه السلام ـ ذاكراً التواضع بإسلوبه المعروف : (وفي نفسي فذللني) والتذلل هو التواضع الذي جعله الله شعار عباده الصالحين وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: **﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾**[(١٤)] فقد نهت هذه الآية عن تلك الصفة الذميمة وهي الكبر لأنه قد ورد أن الكبر رداء الله ، فمن نازع الله رداءه أكبه وأرداه في نار جهنم . ومثل قوله تعالى : **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً﴾**[(١٥)] .

والتواضع هو إنكسار للنفس يمنعها من أن ترى لذاتها مزية على الغير . قال الشاعر :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر　　　على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو سناؤه　　　على صفحات الجو وهو وضيع

ونبدأ الحديث في هذا الموضوع بذكر بعض الأخبار في مدح

(١٤) سورة الإسراء ، آية : ٢٧ .
(١٥) سورة الفرقان ، آية : ٦٣ .

التواضع وفوائده ، وهي كثيرة خارجة عن حد الإحصاء ، ولكننا نكتفي بإيراد بعض منها .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (ما تواضع أحد لله إلاّ رفعه) وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (طوبىٰ لمن تواضع في غير مسكنه ، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط الفقه والحكمة) . وروي : (أن الله سبحانه أوحىٰ إلى موسىٰ : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي) . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ لأصحابه : (ما لي لا أرىٰ عليكم حلاوة العبادة ! قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع) وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (إذا هدىٰ الله عبداً إلى الإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (أربع لا يعطيهن الله إلاّ من يحبه : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه) وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله ، ومن أكثر ذكر الله أظله الله في جنته) وروي : (أنه أتىٰ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ملك ، فقال : إن الله تعالىٰ يخيرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً . فنظر إلى جبرئيل ـ عليه السلام ـ وأومىٰ بيده أن تواضع ، فقال : عبداً متواضعاً رسولاً ، فقال الرسول ـ يعني : مع أنه لا ينقصك مما عند ربّك شيئاً) وقال

عيسىٰ ابن مريم ـ عليه السلام ـ : (طوبىٰ للمتواضعين في الدنيا : هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبىٰ للمصلحين بين الناس في الدنيا : هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة) . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (إن التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله) . وأوحىٰ الله تعالىٰ إلى داوود ـ عليه السلام ـ : (يا داوود كما أن أقرب الناس إلى الله المتواضعين كذلك أبعد الناس من الله المتكبرين) . وروي : (أن سليمان بن داوود إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتىٰ يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ، ويقول : مسكين مع مساكين) .

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : (التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة ، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب ، والتواضع ما يكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده . وللتواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين . قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلًّا بسيماهم﴾**(١٦). وقال تعالى : **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً﴾**(١٧) .

وقد أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ أعز خلقه وسيد بريته محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ بالتواضع فقال في التنزيل العزيز : **﴿واخفض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين﴾**(١٨) .

---

(١٦) سورة الأعراف ، آية : ٤٦ .

(١٧) سورة الفرقان ، آية : ٦٣ .

(١٨) سورة الشعراء ، آية : ٢١٥ .

ومن هذه الآيات والروايات نـدرك أن التواضـع من صميم الأخلاق الفاضلة التي يتحلىٰ بها الإنسان في جميع مراحل حياته وهو باب من أبواب العبادة بل هو من أوسع الأبواب التي يلجها الإنسان بعد معرفة الله[19] .

فلو لم يكن تواضع لم يكن هنـاك إخلاص في العبـادة ولو لم يكن تواضع لم يكن هناك تآلف بين الناس ، ولو لم يكن هناك تواضع لم تكن هناك أخلاق ، وبالتالي لم يكن هنـاك إنسجام ووئـام بين فئات المجتمـع وأفراده ، خصوصاً بعد أن رأينا كيف تنزرع المحبة في نفوس الناس إذا ما ظهرت بوادر التـواضع والإحتـرام بين الناس ، هـذا من جهة ، ومن جهـة أخرىٰ أن التواضع هو في حدّ ذاته عبادة لله لأنه أمر به ، وامتثال أمره طاعة ، ولأنه من ناحية أخرىٰ يجر إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً** . .﴾ الآية[20] .

وإلى هذا المعنىٰ أشار ـ عليه السلام ـ في العبارة المذكورة : (وفي نفسي فذللني ، وفي أعين الناس فعظمني) وقد مرّ معنىٰ هذه العبـارة في خلال الأحاديث التي ذكرناها ، وبكلمة مختصـرة يقول ـ عليـه السلام ـ : أللهم إجعلني متواضعاً فتعظمني في أعين الناس .

أما سؤاله السـلامة من شـر الجن والإنس وما يحـاك في الخفاء في قوله : (ومن شر الجن والإنس فسلمني) فالملاحظ أن معظم الشرور التي تحل بالإنسان ناتجة عن تصرفاته الخاطئة التي يحاول فيها أن يستبد بشيء من الأشياء ليحرم غيره منها ولو أدّىٰ ذلك إلى العطب ، وإن الجن والإنس في ذلك سواء ، فإنه كمـا كان تـاريخ الإنس حـافلاً بمثـل هذه المشـاكل

---

(١٩) جامع السعادات : ج١ ص٣٩٧ .
(٢٠) سورة الإسراء ، آية : ٣٧ .

الإنسانية الكبيرة والصغيرة والفردية والجماعية ، وسواءً كانت الأسباب كبيرة أو صغيرة لا تستحق الذكر ، فإن تاريخ الجن هو الآخر مملوء بمثل هذه المشاكل التي يضج بها ذلك المجتمع الآخر ، والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك عندما يستعرض قصة سليمان وغيرها من القصص التي تعرض ألواناً من نشاطاتهم في حياتهم سواءً كانت بين أبناء جنسهم أو مع الأجناس الأخرىٰ .

والمتتبع لأحوال سليمان ـ عليه السلام ـ مع الجن يرىٰ كثيراً مما حاولوا به أن يعيثوا في ملك سليمان ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتىٰ يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** . . . ﴾ الخ[٢١] هذه الآية وغيرها من الآيات التي تعرضت لأحوال سليمان وملكه دعامة سيرته تستعرض بعض المشاكل والشرور التي أحدثها الجن في مملكة سليمان وقد تسببت بها إلى إحداث القلق لولا أن الله قد أمكن سليمان منهم .

فقد ذكر المفسرون لهذه الآية كثيراً من الوجوه التي وردت ضمن كثير من الروايات من الفريقين ومنها نستشف بعد تأمل بأن الشياطين شياطين الجن قد لعبوا دوراً كبيراً في محاولة لهدم ما بناه نبي الله سليمان في ملكه .

فالآية الكريمة السابقة مع إختلاف آراء المفسرين فيها ، وحتىٰ على القول بأن الشياطين فيها هم شياطين الإنس فإن ذلك بعيد أن يقصد به غير الجن ؛ لأن الشياطين كلمة تتعلق بهذا الجنس البعيد عن أذهاننا ورؤيتنا

---

(٢١) سورة البقرة ، آية : ١٠٢ .

أكثر من تعلقها بنا . على أن شر الإنس لا يقل عن شر الجن ، وقد مرّ في مطاوي في الأبحاث السابقة كثير مما يتعلق بهذا البحث .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى إعتبار آخر ، ولون ناصع من ألوان التضرع والخشوع فقال : (وبذنوبي فلا تفضحني ، وبسريرتي فلا تخزني) وفضيحة الذنوب التي أشار إليها ليست هي في دار الدنيا ، وإن كانت لا تخلو من ذلك ولكنها في الدار الآخرة أدهىٰ وأمر ، وذلك عندما يقوم الناس لربّ العالمين ، ولا يجد الإنسان إلّا ما قدمت يداه وما ربّك بظلام للعبيد .

والفضيحة بالذنوب هي المحاسبة بين أولئك الناس الذين حشروا للغرض نفسه .

وقد مرّ في مقام سابق كيفية نسبة الذنب إلى المعصوم والبحث في نفيه عنه في مقام التنظير بين كلامه ـ عليه السلام ـ وبين الآية الكريمة : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)[٢٢] .

ثم إن السريرة وهو ما يعمله الإنسان وينوبه في خلواته بعيداً عن أعين الناس هو ما أشار إليه ـ عليه السلام ـ بقوله : (وبسريرتي فلا تخزني) ؛ لأن الإنسان ـ والمقصود هنا عموم الإنسان ـ قد يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ، كما نطق بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضىٰ من القول . . .**﴾ الخ[٢٣] .

---

(٢٢) سورة الفتح ، آية : ٢ .

(٢٣) سورة النساء ، آية : ١٠٨ .

وإذا كان الإنسان بطبعه ميالاً إلى حب الإجتماع فإن عمله هذا إن كان خيراً فإنه قد ابتعد عن الرياء والسمعة ، وإن كان شراً فإنه يبتعد عن الناس خوف الفضيحة ، ولكن العبارة في الدعاء كما يلوح من أفقها تشير إلى العمل السيء ؛ لأن الخزي لا يكون إلّا بذلك .

أما العمل الصالح فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ يظهره للعباد وإن حاول الإنسان أن يخفيه ، وذلك لاعتبارات وردت في الشرع الشريف .

فالخزي ينتاب الإنسان بسوء فعله ، وهذا سواء في الدنيا أم في الآخرة . فإن العمل السيء إذا ظهر للناس فقد حل الخزي بصاحبه إلّا أن العبارة يوجه القصد منها بحسب القرائن الدالة إلى يوم الجزاء في الآخرة .

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ كلامه بهذا المعنىٰ فيقول : (وبعملي فلا تبسلني ، ونعمك فلا تسلبني) . في الجملتين جناس غير تام بين قوله ـ عليه السلام ـ : (تبسلني) وبين قوله (تسلبني) ، وقد طرحنا في فصل اللغة المعنىٰ (تبسلني) معاني كثيرة ، ولكنها متقاربة ينشد بعضها إلى بعض إلّا أنه بحسب السياق في العبارة تعطي معنىٰ الكراهة أو التكريه ، فإنه إذا كره الخالق عمل مخلوق فإنه يكرهه عند الناس وهذا معنىٰ الإبسال ، وتكريه العمل من الله يعني عدم قبوله ، وبالتالي يعني بطلانه ، والعمل الباطل لا يثاب عليه . وإذا بطل عمل الإنسان حقت عليه كلمة العذاب .

أما سلب النعم وما يعنيه قوله ـ عليه السلام ـ : (ونعمك فلا تسلبني) فهو أخص من ذهاب النعمة ، لأن سلب النعمة بحسب ما أشار إليه النص من الله ـ عزّ وجلّ ـ ، وذلك لأسباب تعود إلى الإنسان نفسه ، إما بعدم تدبير النعمة وتوجيهها فهو يكون السبب في ذهابها ، وإما بسبب

المعاصي التي يرتكبها الإنسان بسبب النعمة الموفورة وقد ورد في الحديث عن أهل الذكر ـ عليهم السلام ـ (لا يعصىٰ الله إلّا بنعمه) وأبلغ من هذا ما جاء في التنزيل العزيز وهو قوله تعالى : **﴿كلّا إن الإنسان ليطغىٰ ، أن رآه استغنىٰ﴾**[٢٤] وقد جاء هذا المعنىٰ على لسان الشاعر فقال :

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

ولا تتبع ما يقول الهوىٰ ... فكم للهوىٰ من بناء هدم[٢٥]

ورجوعاً إلى كلام في ضوء الآية الكريمة نقول : بأن فيها ردعاً وزجراً إلى معاشر المكلفين وهو أيضاً بمعنىٰ حقاً على وجه القسم بأن الإنسان (ليطغىٰ) أي ليجاوز الحد في العصيان والخروج عن الطاعة إذا كثر ماله واستغنىٰ وخرج عن الحد المحدود له ، ويجوز أن يقال : رآه استغنىٰ من الرؤية بمعنىٰ العلم ، ولا يجوز من رؤية العين . قاله الشيخ في التبيان . وقال في الميزان في قوله تعالى : **﴿إن الإنسان ليطغىٰ﴾** أي يتعدىٰ طوره ، وهو إخبار بما في طبع الإنسان كقوله تعالى : **﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾**[٢٦]

وهناك أمور أخرىٰ يتسبب عنها سلب النعمة من العبد ، أو إنسلاخها ، وذلك تبعاً للأسباب التي تنشأ عنها كما هو صريح الآية .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ في قوله : (وإلى غيرك فلا تكلني) الضرر الناجم عن الإتكال على غير الله ، وأنه ربما تسبب في القطيعة ـ كما سوف يأتي في الفقرة القادمة من الدعاء ـ .

على أن التواكل على الغير هو في ذاته ضرر يعود على الإنسان من

---

(٢٤) سورة العلق ، آية : ٦ .

(٢٥) هذا البيت من تذييل المؤلف .

(٢٦) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

الداخل ومن الخارج ، نفسياً ومادياً ، إضافة إلى ذلك فهو يؤدي إلى الكسل وطرح المسؤولية ، والإبتعاد عن الشعور بالواجب ، وهذا بدوره يؤدي إلى تدهور الأوضاع العامة في المجتمعات الإنسانية .

أما التوكل على الله ضمن الإطار المشروع فهو يعكس هذا تماماً ، وهو عبادة محضة ، وإن تسليم أزمة الأمور إلى الله سبحانه وتفويضها إليه هو من خالص الإيمان .

وقد جاء في قوله تعالى : ﴿**وكفىٰ بربّك وكيلاً**﴾[٢٧] أي قائماً على نفوسهم وأعمالهم ، حافظاً لمنافعهم ، متولياً لأمورهم ، فإن الوكيل هو الكامل لأمور الغير القائم مقامه في تدبيرها وإدارة رحاها .

ومما تقدم يظهر معنىٰ كلامه ـ عليه السلام ـ : (وإلى غيرك فلا تكلني) لأن الإتكال على غير الله هلكة لا شك فيها . وفي حديث المفتري على الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن أبي جعفر المنصور ما رواه المفيد ـ عليه الرحمة ـ عن نقلة الآثار ، إن المنصور أمر الربيع بإحضار جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ فأحضره فلما بصر به المنصور قال له : **قتلني الله إن لم أقتلك أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل فقال له أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ : والله ما فعلت ولا أردت ، وإن كان بلغك فمن كاذب ولو كنت فعلت فقد ظلم يوسف فغفر ، وأبتلي أيوب فصبر ، وأعطي سليمان فشكر ، فهؤلاء أنبياء الله وإليهم يرجع نسبك فقال له المنصور أجل ارتفع ها هنا ، فارتفع فقال له : إن فلاناً أخبرني عنك بما ذكرت فأحضر الرجل فسئل فقال : نعم قال الصادق ـ عليه السلام ـ : فاستحلفه على ذلك فقال له : أتحلف قال : نعم وابتدأ باليمين فقال الصادق ـ عليه السلام ـ : دعني**

---

(٢٧) سورة الإسراء، آية: ٦٥.

أحلفه أنا قال : إفعل ، قال ـ عليه السلام ـ : قل برئت من حول الله وقوته ولجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل كذا وكذا جعفر فامتنع عنها هنيئة ثم حلف بها فما برح حتى ضرب برجله فمات فقال المنصور : جروا برجله فأخرجوه لعنه الله . قال الربيع : وكنت رأيت جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ يحرك شفتيه فكلما حركهما سكن غضب المنصور حتىٰ رضي عنه فلما خرج سألته بأي شيء يحرك شفتيه قال : بدعاء الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ فقلت جعلت فداك وما هو قال : (يا عدتي عند شدتي ويا غوثي عند كربتي ، أحرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بركنك الذي لا يرام) ، قال الربيع : فما نزلت بي شدة إلاّ دعوت به ففرج عني . وقلت لجعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ : لم منعت الساعي أن يحلف بالله قال : كرهت أن يراه الله يوحده ويمجده فيعلم عنه ويؤخر عقوبته . وسيأتي حول هذا الموضوع مزيد من التفصيل في البحث القادم إن شاء الله .

قال عليه السلام :

[إلىٰ مَنْ تَكِلُني ؟ إلى القَريبِ فَيَقْطَعَني ، أمْ إلىٰ البَعيدِ فَيَتَجَهَّمَني ، أمْ إلىٰ الْمُسْتَضْعِفينَ لي ، وَأنْتَ رَبِّي وَمَليكُ أمْري ، أشْكُو إلَيْكَ غُرْبَتي ، وَبُعْدَ داري ، وَهَواني عَلىٰ مَنْ مَلَّكْتَهُ أمْري] .

اللُّغَةُ

فيتجهمني : جهمه يجهمه إستقبله بوجه كريه ، قال عمران بن الفضفاض الجهني :

ولا تجهمينا أم عمرو فإنما   بنا داء ظبي لم تخنه عوامله

داء ظبي أنه إذا أراد أن يثب مكث ساعة ثم وثب ، وقيل : أراد أنه ليس بنا داء ، كما أن الظبي ليس به داء ، وتجهمه وتجهم له كجهمه المتقدمة إذا إستقبله بوجه كريه . وفي حديث الدعاء (إلى من تكلني إلى عدوٍ يتجهمني ؟) أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه . والجهمة بفتح الجيم وضمها أول مآخير الليل ، وقيل : هو بقية سوادٍ من آخره . قال الشاعر :

وقهوة صهباء باكرتها   بجهمة والديك لم ينعب

والجهام بالفتح السحاب الذي لا ماء فيه ، وقيل الذي هراق ماءه مع الريح .

المستضعفين : الضعف خلاف القوة وقيل : الضعف بالضم في الجسد ، والضعف بالفتح في الرأي والعقل ، وقيل : هما معاً جائزان في كل وجه ، وفي التنزيل قال تعالى : **﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً﴾**(١) . قال قتادة : خلقكم من ضعف قال من النطفة أي من المني ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً الهرم ، واستضعفه وتضعفه وجده ضعيفاً فركبه بسوء قال الشاعر :

عليكم بربعي الطعان فإنه أشق على ذي الرثية المتضعف

وفي الحديث : إتقوا الله في الضعيفين .

مليك : المليك مبالغة في الملك ، وهو من أسماء الله تبارك وتعالى ، ومليك الخلق أي ربّهم ومالكهم . وفي التنزيل : **﴿مالك يوم الدين﴾**(٢) . وفي إحدىٰ القراءات **﴿ملك يوم الدين﴾** . وكل من يملك فهو مالك ؛ لأنه بتأويل الفعل مالك الدراهم ومالك الثوب ومالك يوم الدين ، وقوله تعالى : **﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . . .﴾** الخ(٣) معناه تنزيه الله عن أن يوصف بغير القدرة ، وملكوت كل شيء أي القدرة على كل شيء ، وملوك النحل يعاسيبها التي تقتادها واحدها مليك . قال أبو ذؤيب الهذلي :

وما ضرب بيضاء يأوي مليكها إلى طنف أعيا براق ونازل

---

(١) سورة الروم ، آية : ٥٤ .

(٢) سورة الفاتحة ، آية : ٤ .

(٣) سورة يّس، آية : ٨٣ .

يريد يعسوبها ، ويعسوب النحل أميره .

أشكو : شكىٰ الرجل أمره يشكو شكواً ، وشكـوىٰ وشكاوة وشكـاية كلها بمعنىً واحد ، لأن أكثر مصادر فعاله من المعتل انما هو من قسم الياء نحو الجراية والوصاية . وشكوت فلانـاً إذا أخبرت عنـه بسوء فعله بـك ، ويقال : هو شاكٍ مريض والشكو هو المرض نفسه قال الشاعر :

أخي إن تشكىٰ من أذىً كنت طبـه   وإن كان ذاك الشكو بي فأخي طبي

ورجل شاكي السلاح إذا كان ذا شوكة ، والمشكاة في قوله تعالى : ﴿**كمشكاة فيها مصباح**﴾[٤] قال الزجاج هي الكوة .

غربتي : الغرب الذهاب والتنحي عن الناس ، وأغربه نحّاه . وقالوا فيما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إنه أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن وهو نفيه عن بلده ، وفيه غرابة . والغرب النوىٰ والبعد ، ويقال : غرب في الأرض وأغرب إذا أمعن فيها . قال ذو الرمّة :

أدنىٰ تقاذفه التغريب والخبب

وأغرب القوم أنتووا من النوىٰ وهـو البعد . وقـالوا هـل أطرفتنـا من مغربة خبراً ، أي هل من خبر جاء من بعد . والإغتراب والتغرب كذلك ، وغريب : بعيد عن وطنه ، والجمع غرباء والأنثىٰ غريبة قال الشاعر :

إذا كـوكب الخـرقـاء لاح بسحـرة   سهيـل أذاعت عزلهـا في الغرائب

واغترب الرجل نكح في الغـرائب ، وتزوج إلى غيـر أقاربـه . وفي الحديث ، (إغتربوا لا تضووا) أي لا يتزوج الرجل القرابة القريبة .

وقال الشيخ عبد الحسين الحلّي في قصيدة له بعنوان الوطن :

---

(٤) سورة فصّلت ، آية : ١٧ .

إن الغــريب وإن عــزت مكــانتــه   هيهات ينفك عن وجـد وعن حزن
إني لأعــذل من يبكي على أحــدٍ   ولّى وأعــذر من يبكي على وطـن
مـال النفـوس بـلا أوطـانهــا ثمن   وليس للوطن المحبـوب من ثمـن

وهواني : الهون الخزي ، وفي التنزيل العزيز : **﴿فأخذتهم صاعقة العـذاب الهون﴾**[٥] أي ذي الخـزي . والهون بـالضم الهـوان . والهـون والهوان نقيض العز ، هان يهون هواناً ، وهو هين ، وأهون . قال تعالى : **﴿وهو أهون عليه﴾**[٦] أي كل ذلك هين عليه ، وأهانه وهونه واستهان به ، وتهاون به استخف به ، والإسم الهوان ، والهون بالضم الهـوان ، والهون بالفتح الرفق . قال الشاعر :

مــررت على الـوديعــة ذات يـوم   تهـادى في رداء المــرط هــونـا

وبهذا نطق الكتاب العزيز في قوله (عزّ وجلّ) : **﴿وعباد الـرحمٰن الـذين يمشون على الأرض هـوناً﴾**[٧] قـال عكرمـة ومجاهـد : بالسكينـة والوقار ، ويمشي الهوينا تصغير الهونىٰ تأنيث الأهون .

البيان

تحدثنا فيما سبق عن الفرق بين التوكل والتواكل ، وقلنا : بأن التوكل على الله في حدود الإنضباط الشرعي ومعنىً ، ذلك إلاّ يبلغ الإنسـان إلى درجة الإهمال في أموره . وأما التواكل فهو أن يلقي الإنسان كلّه على الناس من أمثاله الذين ليس لهم حول ولا قوة ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

---

(٥) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٦) سورة الروم، آية: ٢٧.
(٧) سورة النساء ، آية : ٩٧ .

وإذا كـان الناس جميعاً في مستوىً واحد من الضعف أمام قدرة الخالق فلا فرق إذا بين أن يلقي الإنسان كلّه على القريب أو البعيد .

أما القريب فبإعتبار الصلات والوشائج بين السائل والمسؤول فقد يقيض البقاء على هذه السيرة لمدةٍ معينة ثم لا تلبث أن تتلاشىٰ ثم لا تلبث أن تنقطع ثم لا تلبث أن تنسىٰ . وقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله : (إلى من تكلني ؟ إلى القريب فيقطعني ؟) والقطيعة من القريب هو قاصمة الظهر وأم المشاكل التي تنبعث منها فتهدم البيوت والأسر والقبائل والمجتمعات بلا فرق وإلى هذا أشار طرفة بقوله :

فما لي أراني وابن عمي مالكاً ... متى أدن منه ينأ عني ويبعدِ
يلوم وما أدري علام يلومني ... كما لامني في الحي قرط ابن معبدِ
وآيسني من كل خير طلبته ... كأنا وضعناه إلى رمس ملحدِ
على غير ذنب قلته غير أنني ... نشدت فلم أغفل حمولة معبدِ
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم ... بكأس حياض الموت قبل التهددِ
فلو كان مولاي أمرأً هو غيره ... لفرج كربي أو لأنظر في غدي
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهندِ

وبهذا الإعتبار حث الشرع الشريف على صلة الأرحام ، وجعلها من أهم المكونات الإجتماعية والعلاقات الإنسانية في هذه الحياة ، وجعل الثواب على صلتها عاجلاً وآجلاً في الدنيا والآخرة ، ووضع العقاب على قطيعتها كذلك . وقد مرّ بعض من هذا في بحث سابق من الكتاب .

وأما البعيد فإنه من الأولىٰ أن تحدث منه القطيعة بل هي موجودة فعلاً بين البعيد والبعيد . فإن الإنسان وإن كان بطبعه إجتماعياً إلاّ إن له نزعات تراوده وتميل به عن فعل الخير وهو بطبيعته عدو ما أنكره ، فلا غرو إذاً إذا تجهم البعيد لآخر مثله . ويلوح من قوله ـ عليه السلام ـ : (أم إلى البعيد

فيتجهمني) بلحاظ اللغة أن البعيد الذي لا يعرفك لا يعطيك شيئاً ولا يلبي لك طلباً إلّا بعد فترة تأمل وأناة تعيشها في سأم وملل ، وبذلك يمن عليك فيما يعطيك ويلبي من طلباتك ؛ لأن المؤثرات الخارجية والداخلية تمنع الإنسان من فعل الخير ولو بنسبة قليلة .

وفي لغة التجهم معنىً أعمق وأكثر تركيزاً من كلمة (الإعراض) ، (والتقطيب) ، وهي ـ كما يلوح من المعنىٰ اللغوي السابق من الشواهد المعروضة والأقوال المذكورة ـ أنه لا يقوم في مقامها لفظ آخر مما ذكرنا ؛ وذلك لأن التجهم إعراض فيه إحتقار للسائل وتطاول عليه ، وهذا ما ركز عليه في العبارة المطروحة أمام البحث بحسب القرائن الموجودة قبل هذه الكلمة وبعدها .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (أم إلى المستضعفين لي) والمستضعف بكسر العين هو الذي يحتقر غيره ويعتدي عليه ، والمستضعف بفتح العين هو المحتقر بفتح القاف ، والمعتدىٰ عليه والذي يبدو ضعيفاً أمام المستضعف بكسر العين .

ولقد اقتضت الطبيعة البشرية منذ أن خلق الله الإنسان على وجه الأرض أن يحدث مثل هذا ، وتكون سنة الحياة إذا ما زاولت نشاطاً أن يكون هناك مستضعف ومستكبر . وقد تعرض لهذه الظاهرة في طبيعة الإنسان التنزيل العزيز فقال تعالى : **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾**[8] وقوله تعالىٰ : **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة**

(٨) سورة القصص ، آية : ٥ .

ونجعلهم الوارثين﴾[9] وقوله تعالى : ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**﴾[10] وفي هذه الآيات إشارات واضحة إلى هذه الظاهرة الموجودة في كيان الإنسان وقد إهتم بها إهتماماً بالغاً . والقرآن ليس كسائر الكتب التي تعرض المشاكل وتعلقها بدون حل ناجع ، ولكنه يطرح المشكلة ثم يطرح إلى جانبها الحل . وعندما يعالج القرآن المشاكل الإنسانية بهذا الشكل المهذب فإنه يحذر في الوقت نفسه الإنسان من الإرتطام في مثل هذه المعضلات التي يقف أمامها العقل حائراً مبهوتاً لا يعرف لها حلاً .

وفي ظل الآيات المتقدمة ندرك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعدّ الجهل بالدين وكل ممنوعية عن إقامة شعائر الدين ظلماً لا يناله العفو الإلهي ، ثم يستثني من ذلك المستضعفين ويقبل منهم معذرتهم بالإستضعاف ، ثم يعرّفهم بما يعمهم وغيرهم من الوصف ، وهو عدم تمكنهم ممّا يدفعون به المحذور عن أنفسهم ، وهذا المعنىٰ كما يتحقق في من أحيط به في أرض لا سبيل فيها إلىٰ تلقي معارف الدين لعدم وجود عالم بها خبير بتفاصيلها ، أو لا سبيل إلى العمل بمقتضىٰ تلك المعارف بالتشديد فيه بما لا يطاق من العذاب مع عدم الإستطاعة من الخروج والهجرة إلى دار الإسلام ، والإلتحاق بالمسلمين لضعف في الفكر أو لمرض أو نقص في البدن ، أو لفقر مالي ونحو ذلك ، كذلك يتحقق في من لم ينتقل ذهنه إلى حق ثابت في المعارف الدينية ، ولم يهتد فكره إليه مع كونه ممن لا يعاند الحق ولا يستكبر عنه أصلاً ، بل لو ظهر عنده حقاً إتبعه ، لكن خفي عنه الحق لشيء من العوامل المختلفة الموجبة لذلك . فهذا مستضعف لا يستطيع حيلة ولا

(٩) سورة النساء ، آية : ٩٨ .

(١٠) سورة النساء ، آية : ٩٩ .

يستطيع سبيلاً ، لا لأنه أعيت به المذاهب لكونه أحيط بـه من جهة أعـداء الحق والدين بالسيف والسوط ، بل إنما استضعفته عـوامل أخـرى سلطت عليه الغفلة ، ولا قدرة مع الغفلة ولا سبيل مـع هذا الجهـل . ويظهـر هنا أيضاً أن المستضعف صفر الكف لا شيء له ولا عليه لعدم كسبه أمراً ، بل أمره إلى ربّه ـ كما هو ظاهر قوله تعالى بعد آية المستضعفين **﴿فأولئك عسىٰ الله أن يعفو عنهم وكان الله عفـواً غفوراً﴾**[11] وقـوله تعـالى : **﴿وآخرون مـرجون لأمـر الله إمـا يعـذبهم وإمـا يتـوب عليهم والله عليم حكيم﴾**[12] ورحمته سبقت غضبه[13] .

أما آية القصص المتقدمة وهي قوله تعـالىٰ : **﴿ونريـد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض . . ﴾** الآية فقد ورد في تفسيرها عن أهل البيت الطاهر روايات كثيرة . فمنها ما ورد في معاني الأخبار بإسناده عن محمد بن سنان ، عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ يقول : إن رســول الله ـ صلى الله عليـه وآلــه ـ نـظر إلى علي والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ فبكىٰ وقال : أنتم المستضعفون بعدي . قال المفضل : فقلت له ما معنىٰ ذلك ؟ قال : معناه أنكم الأئمة بعدي إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول : **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفـوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾** فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة . .

ويظهر من المعاني التي تعرضت لها الآيات السابقة أن المجتمعات الإنسانية ـ كمـا أسلفنا ـ تتـأرجح بين مستكبـر ومستضعف ؛ وذلك لتغلب بعض نزعات الشر في الإنسان على نزعات الخير لعامل أو لآخر داخلي أو

---

(١١) سورة التوبة ، آية : ١٠٦ .

(١٢) الميزان : ج٥ ص٥١ .

(١٣) سورة النمل ، آية : ٢١ .

خارجي مما يجعلها تترك الآثار السلبية على حياة الناس عامة .

وإذا أوغلنا في القدم وجدنا أن هذه الشنشنة قد واكبت حياة الناس منذ الآيام الأولىٰ من عمر قابيل وهابيل حيث قتل أحدهما الآخر لا لذنب مقترف ، وإنما هي نزعة الشر في الإنسان .

وبعد التأمل في معنىٰ الآيات الشريفة المتقدمة خصوصاً ما ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ في تفسير آية القصص يظهر لك المعنىٰ المقصود من كلامه ـ عليه السلام ـ في الفقرة المطروحة بين يدي هذا البحث .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وأنت ربّي ومليك أمري) ولقد جاء خطابه هذا بعد ذكر الإستضعاف ؛ لأنه يريد أن يقول : إني ألجأ إليك لأني ضعيف بين يديك فأنت الذي تملك نفسي وتدبرني كيف ما تريد ، أما المستضعفين (بكسر العين) فإني وإن شعرت بالضعف أمامهم إلاّ أني أطلب منك الروح والفرج وإليك الملجأ ، وكل من لجأ إليك لم يخب ، ومما جرىٰ على شفتي في هذا المعنىٰ :

ألجأت أمري إلى ربي وفي أملي	ألا يخيب ظني فهو خلاقي
فالكل يفنى ولا يبقىٰ وما برحت	يداه للخير فهو الدائم الباقي
يا رازق الخلق من بدو ومن حضر	هب لي عطاياك خلاقي ورزاقي

ويقول علماء البلاغة إن تقديم المسند إليه (أنت) على المسند (ربي) يقتضي التخصيص وبهذا المعنىٰ فقد خصصه في خطابه إليه بالربوبية .

أما (مليك) الواردة في الفقرة فهي مبالغة في المالك ، ومعناه الدائم الملك الذي لا يزول .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى الشكوىٰ إلى الله بعد أن سلم إليه أمره واعترف له بالضعف أمام القوة القاهرة فقال ـ عليه السلام ـ : (أشكو إليك

غـربتي ، وبعد داري ، وهـواني على من ملكتـه أمـري) وهـذه الشكـاوي الثلاث كل منها لها إحتمالات ترد على ذهن الفَطِن اللبيب .

أما الشكوىٰ من الغربة فيحتمل :

١ ـ أن يقصد بالغربة كونه في مجتمع بعيد عن المفاهيم الإسلاميـة الحقة ، والتي قد إنصهر فيها في مثل ذلك الموقف . فإن الإنسان يعد غريباً في مجتمعـه أو في بلده إذا لم يقم له وزنـاً . ولقد جـاء في تفسيـر قـولـه تعالى : ﴿**لأعذبنه عذاباً شديداً** . . . ﴾ الآية[١٤] ، فإنه على أحد التفاسيـر قيل بأن يجعله بين أضداده ، وهو مروي عن ابن عباس . وورد أيضاً أنه أمر بحبسه مع الحدأة في قفص واحد . ومما يؤثر عن النبي ـ صلى الله عليـه وآله ـ في المتواتر : (أربعة في الدنيا غرباء . . ثم عدّ منها العالم إذا ضاع علمه بين جهال قومه) ، وعيش الإنسان مع قوم هو ليس منهم وهم ليسوا منه لا يستطيع أن ينسجم معهم على تلك الحال مهما كان فيـه من اللباقـة واللياقة .

٢ ـ ويحتمل أن يقصد بالغربة موقفه بين يدي ربّـه يوم القيـامة وهـو موقف تذهل فيه العقول وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ويتحير فيه اللبيب ، وبذلك يجد نفسه الإنسان غريباً ؛ لأن من حوله من أبناء البشر كل منهم مشغول بنفسه ، فالإنسان يكون في ذلك الموقف بعيداً من كـل أحد إلّا من شيء واحد هو العمل الذي يصاحب الإنسان إلى نهاية المـطاف ، فإما أن يوصله إلى الجنة أو يوصله إلى النار .

٣ ـ ويمكن أن يكون المقصود بالغربة هو الموقف المتباين بينه وبين بقية الموجودين في عرفه فهو يدعو الله وملؤه الخوف والرجاء وبذلك يتسامىٰ

---

(١٤) سورة النمل، آية: ٢١.

في دعائه وتضرعه عن الناس وذلك لتفاوت المعرفة بينهم وبينه .

وهناك إحتمالات ربما ترد مع ما تقدم أعرضنا عنها خوف الإطالة وأما الشكوىٰ من بعد الدار فإنه يحتمل فيه أمران :

الأمر الأول : أن يكون المقصود بما بعد الموت كما هو المتبادر إلى الذهن من حاق اللفظ وهذه فترة أمدها طويل وزمنها مديد . أما الدار المقصودة في كلامه ـ عليه السلام ـ فهي بلا شك الدار الآخرة ، فإنها هي التي يركز عليها أولياء الله ، ويتطلع إليها أحباؤه ، وهي دار القرار وما عند الله خير وأبقىٰ .

الأمر الثاني : هو البعد ما بين المدينة التي فيها داره ومكة التي فيها حدثت هذه المناجاة ، وهذا الوجه وإن كان بعيداً إلاّ إن كلامه ـ عليه السلام ـ يحتمل ذلك .

واما الهوان المقصود من كلامه فله إحتمالات أخرىٰ منها :

١ ـ عدم معرفته كإمام مفترض الطاعة بيده الحل والعقد من أزمة الأمور ، وجهل قدره بين الناس الذين يعايشهم ، ومن جهله فقد ظلمه .

٢ ـ ويمكن أن يقصد من ذلك كما يلوح من أفق هذه العبارة هو أن السلطة الدنيوية الشكلية ليست في يده . ومن المعروف أن الأنبياء والرسل والأئمة كلهم قد ابتلوا بأعداء يناهضونهم ويبتزونهم الحقوق التي فرضها الله لهم . وقد تطرقنا إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الجزء الأول من الكتاب ليرجع إليه من أحب ذلك ، وربما يكون للحديث صلة .

قال عليه السلام :

[اللَّهُمَّ فَلاٰ تُحْلِلْ بِي غضَبَكَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَضِبْتَ عَلَيَّ ، فَلاٰ أُبٰالي سِوٰاكَ ، غَيْرَ اَنَّ عٰافِيَتَكَ اَوْسَعُ لي ، فَأَسأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي اَشْرَقَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالسَّمٰاوٰاتُ ، وَآنْكَشَفَتْ بِهِ الظُّلُمٰاتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ اَمْرُ الأَوَّلينَ وَالآخِرينَ ، أَلاَّ تُميتَني عَلىٰ غَضَبِكَ ، وَلاٰ تُنْزِلْ بي سَخَطَكَ] .

اللُّغَة

تحلل : حل بالمكان يحل وحللاً بفك التضعيف ، النزول وهو نقيض الإرتحال وكذلك حل بالقوم وحلهم واحتل بهم واحتلهم باللزوم والتعدية ، فاما أن تكون لغتين كلتاهما وضع ، وإما أن يكون الأصل حل بهم ، ثم حذفت الباء وأوصل الفعل إلى ما بعده فقيل حله ، قال قيس بن الحطيم :

ديار التي كانت ونحن على منىً   تحل بنا لولا نجاء الركائب

والحلال بالكسر القوم المقيمون المتجاورون يريد بهم سكان الحرم .

غضبت : الغضب نقيض الرضىٰ وقد غضب عليه غضباً ومغضبة وأغضبته أنا فتغضب ، قال إبن عرفة : الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ومنه محمود ومذموم ، وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه ويقال هو مغضوب عليه وهي مغضوب عليها قال تعالى : **﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**[1] . وقال الشاعر دريد بن الصمة يرثي أخاه عبدالله :

فإن تعقب الأيام والدهر فاعلموا بني قارب أنا غضاب بمعبد

أبالي : يقال لم أبال ولم أبل على القصر ولم يخطر ببالي ذلك الأمر أي لم يكرثني . ويقال : لم يخطر فلان ببالي . وقولهم ليس هذا من بالي أي مما أباليه والمصدر البالة قال زهير :

لقد باليت فطعن أم أوفىٰ ولكن أم أوفىٰ لا تبالي

لا تبالي لا تكره . وفي الحديث : أخرج من صلب آدم ذرية فقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ثم أخرج ذرية فقال هؤلاء في النار ولا أبالي ، أي لا أكره .

أشرقت : شرقت الشمس تشرف شروقاً وشرقاً طلعت ، واسم الموضع المشرق وأشرق الرجل أي دخل في شروق الشمس وفي التنزيل العزيز : **﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾**[2] أي مصبحين وأشرق القوم دخلوا في وقت الشروق كما تقول : أصبحوا وأمسوا وأضحوا وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ، وفيه سميت أيام التشريق . وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر لأن لحم الأضاحي يشرق فيها للشمس أي يشرر .

---

(١) سورة الفاتحة ، آية : ٧ .

(٢) سورة الحجر ، آية : ٧٣ .

وقيل : سميت بذلك لأنهم كانوا يقولون في الجاهلية : أشرق ثبير كي ما نفير ، والتشريق الجمال وإشراق الوجه . قال ابن الإعرابي في بيت المرار :

ويزينهن مع الجمال ملاحة والدل والتشريق والفخر

إنكشفت : الكشف رفع الشيء عما يواريه ويغطيه ، والمكشوف في عروض السريع الجزء الذي هو مفعول ، أصله مفعولات حذفت التاء فيبقىٰ مفعولاً فينقل في التقطيع إلى مفعولاً ، والكشف في الجبهة إدبار ناصيتها من غير نزع والكشف إنقلاب في قصاص الشعر إسم كالنزعة . ولقحت الحرب كشافاً على المثل . وفيه قول زهير :

فتعرككم عرك الرحىٰ بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

سخطك : السخط بضم السين وتسكين الخاء ، وفتح السين وفتح الخاء ضد الرضىٰ وتسخط وسخط الشيء سخطاً كرهه . وسخط أي غضب فهو ساخط وتقول أسخطني فلان فسخطت سخطاً .

وفي خطبة الزهراء ـ عليها السلام ـ قالت : (وبرّ الوالدين وقاية من السخط) . وقال تعالىٰ : **﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم﴾**(٣) وقوله تعالى : **﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله﴾**(٤) .

البيان

في هذه الفقرة بدأ ـ عليه السلام ـ في حالة الإستعطاف التي يتصاغر فيها الإنسان أمام قدرة الباري . فقال : (أللهم فلا تحلل بي غضبك ، فإن

(٣) سورة المائدة ، آية : ٨٠ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٦٢ .

لم تكن غضبت عليّ فلا أبالي سواك) . وعندما يلجأ الإنسان إلى هذه الحالة من المتذلل والخضوع أنه ليعلم حقاً أن غضب الله لا يمكن أن يحل إلاّ بمن حقت عليه كلمة العذاب ، وقد حذر القرآن من ذلك الغضب الذي يحل بالإنسان في كثير من آيات القرآن الشريفة . قال تعالىٰ : **﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾**[٥] وقوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم . . .﴾** الخ[٦] وغيرها هي الآيات التي أشارت إلى جسامة الأمر ، وفداحة الخسارة ، وهول المصيبة التي تحل بالإنسان من جراء ذلك الغضب .

---

(٥) سورة طه ، آية : ٨١ .

(٦) سورة الممتحنة ، آية : ١٣ .

الغضب وأسبابه

وحلول الغضب من الله بهذا الإعتبار لا يكون إلّا بعد أن ينغمس الإنسان في اقتراف الذنوب والمآثم ، وانتهاك المحارم . ففي تفسير مقتضب للآيتين الكريمتين نستطيع أن نقول فيهما :

إن الغضب يتسبب عند الإنسان عن إثارة دوافع معينة كامنة في كيانه . أما سبب إثارتها فهو إما أن يكون خارجياً أو داخلياً ، والقوة الغضبية عند الإنسان تختلف قوة وضعفاً باختلاف أسبابها ، وهذا متسبب عن ضعف إرادة الإنسان ، وعدم إستطاعته الهيمنة علىٰ هذه الصفات الفطرية المودعة في كيانه أمام إحدىٰ المشاكل . وبذلك ينزل إلى مستوى البهيمية الخرقاء ؛ لأن صفة الغضب عند الإنسان هي من الصفات السبعية ، فإذا استطاع الإنسان ترويض هذه الصفة إرتفع بنفسه عن صفات الحيوان .

أما الغضب في تعريفه فهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج ، للغلبة . ومبدؤه شهوة الإنتقام ، وهو من جانب الإفراط ، وإذا إشتد يوجب حركة عنيفة يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم فيستر نور العقل الذي يستوضح به الرؤية ويضعف فعله ؛ ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة بل تزيده الموعظة غلظة

وشدة . قال بعض علماء الأخلاق : (الغضب شعلة نار أقتبست من نار الله الموقدة ، إلاّ أنها لا تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد إستكنان الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين) .

والناس في هذه القوة الغضبية بين إفراط وتفريط واعتدال . فالإفراط تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقىٰ له فكرة وبصيرة ، ولا يستطيع أن يستخدم عقله في هذه الحال وبذلك تنفلت أزمّة الأمور ويتصرف بحسب قواه الجسمية طارحاً العقل جانباً .

والتفريط أن يفقد هذه القوة أو يضعف بحيث لا يغضب عمّا ينبغي الغضب عليه شرعاً وعقلاً .

وبعبارةٍ أخرىٰ أن الإفراط والتفريط هما جانبا السلب والإيجاب عند الإنسان .

والإعتدال أن يصدر غضبة فيما ينبغي ولا يصدر فيما لا ينبغي فهو يضع الأمور في مواضعها بحيث لا يخرج عن سياسة الشرع والعقل ، بل يكون تابعاً لهما في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما .

ولا ريب في أن الإعتدال ليس مذموماً ، ولا معدوداً من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له وهو ناقص جداً . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس ، والجور وتحمل الذل من الإخساء ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء[٧] .

---

(٧) جامع السعادات : ج١ ص٣٢٣ .

فالغضب قد يخـرج الإنسان عن حـده وحدوده إذا لم يستـطع ضبط أعصابه في حادثة من الحوادث وقد ينعكس هذا فتراه فاتراً باهتاً لا يتكيف مع الحوادث والأحداث فلا يعيرها إهتماماً فكانما خلق قطعة من الرخام . ثم إن التغلب الحيـواني علىٰ القـوة العـاقلة واردٌ بـلا شـك في مثـل تلك الحالات التي يضطرب فيها الإنسان .

أما الغضب من الله ـ سبحانه ـ فهو يختلف عن الغضب من الإنسان . فليس هناك غرائز ، وليس هناك ميـول وليس هناك عـواطف ، وليس هناك حب لـلإنتقـام . وإنمـا الغضب لـلإنتصـاف من الـظالم إلى المـظلوم . والغضب منه ـ تعالى ـ ليس بدافع خارجي ولا داخلي ، فإن هذا المفهوم لا ينسحب من الإنسان إلى الله ـ تعالى ـ ، ولا حاجة بنا إلى ذكر هذه الفوارق التي يطول بها البحث ويتشعب إلى متاهات لسنا بحاجة ماسة إليها .

إذاً فالغضب غير الغضب والأسباب غير الأسباب ، فغضب الإنسان يطفؤه زوال سببه ، وغالباً ما تكون أسبـابه ودوافعـه عند الإنسـان المنافـع الخاصة وغيرها مما يتعلق بذاته وكيانـه . لكن الغضب من الله ليس مسبباً عن كل ذلك . وإذا تأملنا في بعض ما جاء في المتواتر المـأثور عن أهـل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ مثل قولهم : (صدقـة السر تـطفىء غضب الـرب) ، وغير ذلـك مما يتعلق بـأمر الغضب إستـطعنا أن نستجلي معنىً تقريبياً للغضب عند الله ـ تعالى ـ .

وبذلك نجزم بالقول أن الغضب من الله يؤدي إلى التردي في النار ، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز في مثل قوله تعالى : **﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوىٰ﴾**[٨] .

---

(٨) سورة طه ، آية : ٨١ .

ولهذا فإن العاقل يخاف من غضب الحليم ؛ لأن الحليم لا يغضب إلاّ للشيء العظيم ، ومن الأشياء العظيمة المعاصي والإصرار عليها التي توجب غضب الرب . ولقد ورد عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قوله : (أربعة كن منها على حذر . . وعدّ منها الحليم إذا غضب) .

ولهذا نراه ـ عليه السلام ـ يقول في هذه الفقرة المطروحة للبحث (فإن لم تكن غضبت عليّ فلا أبالي سواك) ومعنىٰ ذلك أني في سلامة من أمر ديني ودنياي ما لم يحل عليّ غضبك ، وبعد ملاحظة الآية الكريمة السابقة نجد أن هذا الغضب من أظهر مظاهره النار التي تطلع علىٰ الأفئدة ، وهو القائل ـ عليه السلام ـ في يوم عاشوراء متمثلاً :

الموت أولىٰ من ركوب العار والعار أولىٰ من دخول النار

وبعد أن استعطف الباري بأن يدرأ عنه الغضب إنتقل إلى شيء آخر (غير أن عافيتك أوسع لي) وقد مر معنىً يفسر هذه العبارة في أبحاث سابقة بشرح مفصل .

ثم إنتقل إلى تضرع آخر بمعنىً آخر فقال : ـ عليه السلام ـ (فأسألك بنور وجهك الذي أشرقت له الأرض والسماوات ، وانكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين) أقسم ـ عليه السلام ـ بنور وجه الله ـ تعالى ـ وهو النور الذي تجلّىٰ لموسىٰ من الجبل فخر صعقاً في جانب الطور الأيمن . وقد تكرر ذكر ذلك النور الذي يليق بجلال وجهه الكريم في القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿**الله نور السمٰوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**﴾[٩] وقال تعالى : ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾[١٠] وكثير هي الآيات التي وردت بهذا المعنىٰ الذي يرجع النور

---

(٩) سورة النور ، آية : ٣٥ .

(١٠) سورة التوبة ، آية : ٣٢ .

إليه ـ تعالى ـ . وقد ورد عن أهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ في تفسير ذلك النور المنسوب إليه ـ سبحانه ـ روايات كثيرة . ففي التوحيد بإسناده عن العباس ابن هلال قال سألت الرضا عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿الله نور السمٰوات والأرض﴾** فقال : هادٍ لأهل السمٰوات وهادٍ لأهل الأرض .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق ابن جرير قال : سألتني إمرأة أن أدخلها على أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت ومعها مولاة لها فقالت له : يا أبا عبدالله قول **﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** ما عنى بهذا ؟ فقال لها أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر إنما ضرب الأمثال لبني آدم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن طلحة ابن زيد عن جعفر ابن محمد عن أبيه ـ عليهم السلام ـ في هذه الآية : **﴿الله نور السمٰوات والأرض﴾** قال بدأ بنور نفسه **﴿مثل نوره﴾** مثل هداه في قلب المؤمن **﴿كمشكاة فيها مصباح﴾** والمصباح في جوف المؤمن والقنديل قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه . **﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾** :

قال : الشجرة المؤمن . **﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** قال : على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لها ، ولا شرقية أي لا غرب لها ، إذا طلعت الشمس طلعت عليها ، وإذا غربت الشمس غربت عليها . **﴿يكاد زيتها يضيء﴾** يكاد النور الذي في قلبه يضيء وإن لم يتكلم . **﴿نور على نور﴾** فريضة على فريضة ، وسنة على سنة . **﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾** يهدي الله لسننه وفرائضه من يشاء **﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾** فهذا مثل ضربه الله للمؤمن .

ثم قال : فالمؤمن ينقلب في خمسة من النور ، مدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، وكلامه نور ، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة

نور . قلت لجعفر ـ عليه السلام ـ إنهم يقولون : مثل نور الرب . قال : سبحان الله ليس لله مثل ، قال الله : **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾**[11] .

(١١) سورة النحل ، آية : ٧٤ .

معنى النور والضياء

والنور معروف ، وهو الذي تظهر به الأجسام الكثيفة فالأشياء ظاهرة به ، وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته ، أو بعبارة أخرىٰ هو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر . هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ، ثم عمم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الإستعارة أو الحقيقة الثانية ، فعدّ كل الحواس نوراً أو ذات نور يظهر به محسوسات كالسمع والشم والذوق واللمس . وقد ورد في الزيارة الجامعة (كلامكم نور) مع أن الكلام هو مسموع وليس بمرئي . ثم عمم لغير المحسوس فعدّ العقل نوراً يظهر به المعقولات . كل ذلك بتحليل معنىٰ النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره .

وإذا كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقاً تاماً للنور . ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله ـ تعالى ـ كان المصداق الأتم للنور . فهناك وجود ونور يتصف به الأشياء وهو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه ـ تعالى ـ ، (ووجود ونور) قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء .

فهو سبحانه نور يظهر به نور السمٰوات والأرض وهو المراد بقوله

تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ حيث أضيف النور إلى السماوات والأرض ، ثم حمل على إسم الجلالة .

وعلى هذا المعنى تحمل العبارة الواردة في النص الماثل أمامنا لأنه يستفاد من هذا وذاك أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء ، إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره ـ تعالى ـ ، فهو الظاهر لذاته له قبله ، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى : **﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾**[12] إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلون له ويسبحونه .

وإذا تأملنا ما سبق من معنى النور الذي تعرضت له الآية الشريفة السابقة المطابقة في تفسيرها لتفسير النص من الدعاء إستطعنا أن نلتمس فوارق بين هذه الكلمة (النور) وبين كلمة (الضياء أو الضوء) ـ كما اصطلح عليه علماء الفيزياء والتي تشعر لأول وهلة بالتساوي بينهما ، إلاّ أنه بعد تدقيق النظر يظهر واضحاً الفرق بين كل منهما ، ونستطيع أن ندرج هذه الفوارق مجملة فيما يلي :

١ ـ أن النور هو الذي ينبعث من جسم معتم بعد تلقيه للأشعة الأصلية بينما الضياء أو الضوء يأتي من جسم مشع لذاته ، وربما تجلى هذا المعنى بوضوح في قوله ـ تعالى ـ : **﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾**[13] والضياء على ما قيل مصدر ضاء يضوء ضوءاً ، واللفظ على ما قيل على تقدير مضاف ، والأصل جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور ، وقال ابن منظور في لسان العرب أن الضياء النور ، والنور ضد

---

(١٢) سورة النور ، آية : ٤١ .

(١٣) سورة يونس ، آية : ٥ .

الظلمة ، وفي المحكم النور الضوء أيّاً كان وفي ذلك نظر خصوصاً بعد التأمل في معنىٰ الآية الشريفة السابقة .

٢ ـ بناءً على ما تقدم أن النور هو الذي يسقط على الأجسام فيعكس الأشعة لتسقط على عين الرائي فيحس بالإبصار بعد أن تمتص الأجسام من هذه الأشعة مقداراً وتعكس مقداراً آخر ، وبمقدار ما تعكس من الأشعة لتسقط على عين الرائي وبمقدار صفاء تلك العين واستعدادها لتقبل الأشعة الساقطة تكون الرؤية واضحة وقد أشرنا إلى ذلك في بحث سابق من الكتاب . ولكن الضياء كما عرفه بالمثال في لسان العرب حيث قال : وقد ضاءت النار ، وضاء الشيء ، وأضاء يضيء ، وفي شعر العباس :

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض   وضاءت بنورك الأفق

وقد يأتي في بعض المواطن التساوي بين المعنيين ، فقد ورد ذلك في الدعاء المأثور عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ المعروف بدعاء كميل : (وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء) .

٣ ـ إن الضوء نستطيع أن نحلله إلى ألوان الطيف المعروفة إذا أخذنا الشعاع الأبيض نموذجاً لذلك كشعاع الشمس أو ما يسمىٰ بطيف الشمس ، أو ما يسمىٰ بالطيف المرئي ، ويتكون من الألوان السبعة بدءاً باللون البنفسجي فالنيلي فالأزرق فالأخضر فالبرتقالي فالأحمر على التوالي . هذه الألوان يعبر عن طول موجاتها (ل) بوحدة قياس طولية صغيرة تسمىٰ النانو متر [يساوي الواحد على المليون من الملمتر] حيث أطوال الموجات للون البنفسجي لـ = ٣٨٠ نانو متر ، وتنتهي بالأكثر طولاً للون الأحمر عند لـ = ٧٨٠ نانو متر وتختلف حساسية العين لرؤية هذه الألوان حيث تصل حساسيتها إلى أكثر قيمة للون الأخضر وتقل كلما اتجهنا نحو البنفسجي أو الأحمر لذلك نجد أن الله قد خلق لنا النباتات والأشجار كلها باللون

الأخضر . كما أن الأطباء ينصحون الناس بالراحة في الريف حيث الخضرة تحيط بهم من كل مكان مما يجعل العين تتعرض لأقل إجهاد ممكن وبالتالي تكون أكثر إسترخاءِ . والأشعة التي لها تردد + (ت) أكبر من تـردد اللون البنفسجي أو طـول موجي أقـل من ٣٨٠ نانـو متر تسمىٰ بـالموجـات فوف البنفسجية والتي لها تردد أقل من تـردد اللون الأحمر أو طـول موجي أكبـر من ٧٨٠ نانو متر تسمى بالموجات تحت الحمراء . وأكثر المـوجات فـوق البنفسجيـة ضـرراً على العين تلك التي لهـا طـول مـوجي يتـراوح مـا بين (٣٠٥ ـ ٣٢٠) نانو متر حيث أنها أكثر نفاذيـة عبر جـدار القرنيـة من باقي الموجات فوق البنفسجية .

أما الأشعة فوق البنفسجية الضارة فقد بدأت في هذه الأيام تخلق أزمة عالمية بسبب ما أحدثته من إختراق في طبقة الأوزون وقد أحدث ذلك ضجة كبرىٰ وذعراً عـظيماً في الأوسـاط العلمية والعـالمية ؛ وذلـك بسبب أبخرة المواد الكيماوية المتصاعدة من المصانع مما تسبب في تمزق تلك الطبقة الواقية من هذه الأشعة .

أما الأشعة تحت الحمراء فقد استغلها الإنسان في كثير من المجالات الـطبية لإكتشـاف الأمـراض البـاطنيـة في الجسم لأن هـذه الأشعـة بسبب موجاتها الصغيرة جداً تنفذ في الأجسام وتؤخذ بها صور من بواطننا . ومن بعد الأشعة السينية تأتي أشعة (جيم) ، أو أشعة (جاما) تلك التي منها ما يبلغ جزءاً صغيراً من هذه الوحدة المتناهية الصغر التي نقيس بها موجـات الضوء . وهي الأشعة التي تخرج عند إنفلاق الذرة فتضر بالناس أيما ضرر وقد تقتل .

وما نريد أن نقوله هو أن الضوء قد يكون مرئياً وقد يكون غير مرئي ـ كما سبق الإشارة إلى ذلك ـ وأما النور فلا يسمىٰ بذلك إلاّ إذا كان مرئياً .

وبهذا التوضيح يظهـر الفرق بين الضـوء (الضياء) والنـور ، وتثبت بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق . وبهذا يظهر السر في استعمـاله ـ عليـه السلام ـ كلمة النور في قولـه : (فأسـألك بنـور وجهك الـذي أشرقت لـه الأرض والسماوات ، وانكشفت به الظلمات . . .) النص فإن العلاقة بين كلمة (النور) وكلمة (أشرقت) تفسر ما تقدم تفسيراً واضحـاً ، وذلك ان الإشراق معناه ـ بحسب ما ذكرنا في فصل اللغة ـ الطلوع والظهور .

وأما إنكشاف الظلمات فهـو لا يكون إلّا بـالنور وليس بمجـرد وجود الأشعة سواءً كانت مرئية أو غير مرئية فإن النور وجود ، والظلمة عدم ، وهما نقيضان إذا ارتفع أحدهما ثبت الآخر .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وصلح عليه أمر الأولين والآخرين) فإنه مربوط بـالقسم كل الـربط ، محكوم بـه كل الإحكـام ، منسجم معه كـل الإنسجام ؛ لأن الصلاح المقصود هو قوام الإنسان واعتـداله في سيـرته . وهو بما أودع الله فيه من الغرائز لا يمكن أن يقيده قانون عرفي وضعي مهما اختلقت العبقريات البشرية من ذلك .

وأمامنا نماذج من حياة الإنسان الإجرامية في غياب الدين ؛ لأنّا نرىٰ هـذا الـواقـع نصب أعيننـا ، فكلمـا إبتعـد الإنسـان عن ربّـه تـردّى إلى الحضيض ، فـلا يمكن أن يهيمن عـليــه إلّا وازع من ديـن ، ورادع من ضميـر . فمعنىٰ صلوح الأولين والآخـرين بنـور وجهـه تعـالىٰ يعني إنـارة قلوبهم بمعرفته ، فـإن معرفتـه نور تنـور القلوب فينشرح لهـا قلب المؤمن فيبعده على معرفة ، وعندما يعبد الله ويطيعه بهذه المعرفة فإنـه بالضـرورة يبتعـد عن المعـاصي قـال تعـالى : ﴿**إن الصـلاة تنهىٰ عن الفحشـاء**

والمنكر﴾[١٤] فهي أظهر مظاهر الطاعة فإنه بالضرورة كلما قرب الإنسان من الله إبتعد عن الفواحش والمنكرات قال الشاعر في هذا المعنىٰ :

شكوت إلى وكيع سوء فهمي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدىٰ لعاصي

ومجمل معناه أن الهوىٰ إذا غلب العقل وانغمر في المعاصي تعطل العقل عن عمله وفي غياب العقل لا يفهم الإنسان شيئاً والعكس بالعكس .

خصوصاً مع مراعاة ما ورد عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ في تفسير آية النور في ما تقدم قبل قليل في هذا البحث .

وأما قوله ـ عليه السلام ـ : (ألّا تميتني على غضبك ، ولا تنزل بي سخطك) فهو جواب للقسم . والموت في غضب يبعد الإنسان عن الطمع في المغفرة يوم القيامة ويلاشي أمله في الرحمة التي وسعت كل شيء ، والغضب من الله ـ كما تقدم ذكره ـ ليس ناتجاً عن عصبية أو عاطفة وإنما مناط ذلك الطاعة والمعصية وليس كل معصية تستوجب غضب الرب ، فإن الإنسان بما يحيط به من مغريات في هذه الحياة معرض بالضرورة إلى المعاصي ولا يمكن أن يؤاخذ الله الإنسان كل الإنسان بما إقترفوا بل هو يعفو عن الكثير قال تعالى : **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾**[١٥] وقال تعالى : **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها . . .﴾** الآية[١٦] .

فقد ورد في تفسير آية النحل هذه : لو أخذ الله الناس بظلمهم

---

(١٤) سورة العنكبوت ، آية : ٤٥ .
(١٥) سورة النحل ، آية : ٦١ .
(١٦) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .

مستمراً علىٰ المؤاخذة ما ترك علىٰ الأرض من إنسان يدب ويتحـرك ، أما جلّ الناس فإنهم يهلكون بظلمهم ، وأما الأشذ الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك آبـائهم وأمهاتهم من قبـل ، وفي معنىٰ الدابة في الآية إطلاق في معناها وهو كل مـا يدب على الأرض من إنســان وحيوان معــاً . ومعنىٰ الآية : أنـه لو يؤاخـذهم بظلمهم لأهلك البشر وكل حيوان على الأرض . فتوجه إليه أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك ولا ظلم له ، أو يهلك بظلم من الإنسان .

وأجيب عن ذلك بأن الله تعالىٰ لو أخـذهم بظلمهم بكفـر أو معصية لهلك عامة الناس بظلمهم إلاّ المعصومين منهم وأما المعصومون على قلة عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وأمهاتهم من قبل ، وإذا هلك الناس وبطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان ؛ لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصـالحهم كمـا يشعــر بـه قــولـه تعــالى : ﴿خلق لكم مـا في الأرض جميعاً﴾[17] .

وهناك وجوه أخرى عرضها المفسرون للآية الكـريمة فيهـا أخذ ورد ونقض وإبرام ليس ذكرها من غرضنا .

ثم قـال عليه السـلام : (ولا تنزل بي سخـطك) وهـذا يـدل على الخوف من الله ، وإذا تأملت تجد أن كلمة (غضبك) وكلمة (سخطك) تشيران إلى معنى واحد ، إلا أن متعلقهما قد غير فيهما قليـلاً ، وذلك أن الإمـاتة تختلف عن إنـزال الغضب ؛ لأن الإمـاتـة على غضب الله يقتضي تأجيل العقوبة إلى يوم الجزاء ، وأما إنزال السخط فهو لتعجيل النقمـة في الدنيا والعقوبة في الأخرة ، وبهذا اللحاظ يظهر الفرق بين العبارتين .

---

(١٧) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .

وفيما ذكرته الصديقة الطاهرة الزهراء ـ سلام الله عليها كما ذكرناه في فصل اللغة ـ (وبر الوالدين وقاية من السخط) دليل على هذا المعنى ، كما يدل أيضاً على أن الإنسان يستطيع أن يرد السخط والغضب ببر الوالدين الذي تكرر ذكره في القرآن المجيد مثل قوله تعالى : ﴿**وقضى ربّك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً**﴾[18] ، وقوله تعالى : ﴿**وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً**﴾[19] ، وقوله تعالى : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسناً**﴾[20] ، وكثير هي الآيات التي تعرضت لهذا المعنى وسيوافينا قريباً بحث لاحق حول ذلك إن شاء الله .

---

(١٨) سورة ، الاسراء آية : ٢٣ .

(١٩) سورة مريم ، آية : ١٤ .

(٢٠) سورة العنكبوت ، آية : ٨ .

قال عليه السلام :

[لَكَ الْعُتبىٰ حَتَّى تَرضىٰ ، مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ ، لَا إِلَـهَ اِلَّا اَنْتَ ، رَبَّ الْبَلَدِ الْحَرَامِ ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَالْبَيْتِ الْعَتيقِ الَّذي اَحْلَلْتَهُ الْبَرَكَةَ ، وَجَعَلْتَهُ لِلنّاسِ أَمَنَةً ، يٰا مَنْ عَفا عَنْ الْعَظيمِ مِنَ الذُّنُوبِ بِحِلْمِهِ ، يٰا مَنْ أَسْبَغَ النِّعْمَةَ بِفَضْلِهِ ، يٰا مَنْ اَعْطىٰ الْجَزيلَ بِكَرَمِهِ ، يٰا عُدَّتي في كُرْبَتي ، يٰا مُؤْنِسِي فِي حُفْـرَتِي ، يٰـا وَلِيَّ نِعْمَتي ، يٰـاإِلٰهي ، وَاِلٰـهَ آبـائي إِبْـراهِيمَ وَإِسْمٰاعيلَ ، وَإِسْحٰـاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَرَبَّ جَبْـرَئِيلَ وَميكٰـائيلَ وَإِسْـرٰافيلَ ، وَرَبَّ مُحَمَّـدٍ خَاتِمِ النَّبِيّينَ وَآلِـهِ الْمُنْتَجَبينَ ، وَمُنْـزِلَ التَّـوْراةِ وَالإِنْجيـلِ وَالـزَّبـوُرِ وَالْقُـرْآنِ الْعَـظِيمِ ، وَمُنَـزِّلَ كٰهيٰعٰصٰ ، وَطٰـهٰ وَيٰسٓ ، وَالْقُـرْآنِ الْحَكيمِ] .

« اللُّغة »

العتبى : عاتبه معاتبة وعتـاباً لامـه ، ويقال : مـا وجدت في قـوله عتباناً ، وذلك إذا ذكر أنه أعتبك ، ولـم تر لذلك بياناً . قال الأزهري : لـم أسمع العتب والعتبان والعتاب بمعنىٰ الإعتاب ، إنما العتب والعتبان لومك

الرجل على إساءةٍ كانت منه إليك ، والعتب بكسر العين وسكون التاء الرجل الذي يعاتب صاحبه أو صديقه في كل شيء إشفاقاً عليه ونصيحةً له . ويقال إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . والعتبىٰ الرضا ، قال ساعدة ابن جؤية :

شاب الغراب ولا فؤادك تارك ذكر الغضوب ولا عتابك يعتب

ترضىٰ الرضا ضد السخط . وفي حديث الدعاء : أللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، والرضا والسخط من صفات القلب ورضيت عنك وعليك رضاً . قال العقيلي :

إذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها

ورضوىٰ جبل بالمدينة المنورة والرضا من القاب الإمام الثامن من أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ سمي بذلك لأنه قد رضي بولايته المؤالف والمخالف .

المشعر : شعر به علم ، وأشعر لفلان ما عمله ، وما شعرت فلان ما علمته . ومن كلام العرب : (ليت شعري) أي ليت علمي أو ليتني علمت .

وعن الكسائي ليت شعري لفلان ما صنع وأنشد :

يا ليت شعري عنكم حنيفاً وقد جدعنا منكم الأنوفا

وفي التنزيل : (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً)[1] .

والإشعار للقارن هو جرح سنام البعير إذا إختاره على التلبية لعقد الإحرام وذلك إذا ساقه هدياً . والمشعر الشعار ، والمشاعر كل موضع فيه

---

(١) سورة الكهف ، آية : ١٩ .

حمر وأشجار . قال ذو الرمة يصف ثور وحش :

يلوح إذا أفضىٰ ويخفىٰ بـريقـه   إذا مـا أجنتـه غيـوب المشـاعـر

والمشعر هو أرض يقف بها الحاج يوم العاشر من ذي الحجة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقد ورد ذكره في التنزيل العزيز في قوله تعالى : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فـاذكروا الله عنـد المشعر الحـرام . .﴾ الآية[٢] . وسيوافينا تفصيل ذلك في فصل (البيان) قريباً إن شاء الله .

أمنةً : الأمنة والأمن بمعنىٰ ، ومنه قولـه تعالى : ﴿أمنـةً نعاسـاً﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنةً منه﴾[٤] والأمـانة ضـد الخيانـة ، والأمن ضد الخوف ، والإيمان ضد الكفـر وفي التنزيـل العزيـز : ﴿وهذا البلد الأمين﴾[٥] أي الأمن يعني مكة المكرمة وهو من الأمن واليمين هو ما يأخذه الإنسان علي نفسه من إلزام والتزام . قال الشاعر :

ألم تعلمي يـا أسم ويحـك أنني   حلفت يمينـاً لا أخـون يمـيني

بحلمه : الحلم بالكسـر الأناة والعقـل ، وجمعه أحـلام وحلم وفي التنزيل العزيز : ﴿أم تأمرهـم أحلامهم بهذا أم هم قـوم طاغـون﴾[٦] وقال جرير : -

هـل من حلوم لأقـوام فتنـذرهم   ما جرب الناس من عضّي وتضريسي

وحلم بالضـم يحلـم حلماً صار حليماً ، والحليم الصبـور ، والحليم

---

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٩٨ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٥٤ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ١١ .
(٥) سورة التين ، آية : ٢ .
(٦) سورة الطور ، آية : ٣٢ .

صفة من صفات الباري والحلم بضم الحاء وسكون اللام ، وبضم الحاء وضم اللام الرؤيا وهو ما يراه النائم في نومه من الأشياء ، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح ومنه قوله تعالى : ﴿**قالوا أضغاث أحلام**﴾[٧] وفي هذا القول نظر[٨] .

أسبغ : شيء سابغ أي كامل واف ، وسبغ الشيء وطال إلى الأرض واتسع ، وإسباغ الوضوء المبالغة فيه وإتمامه ، واسبغ الله عليه النعمة أكملها وأتمها ووسعها . قال تعالى : ﴿**وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة**﴾[٩] والدرع السابغة التي تجرها في الأرض ، أو على كعبيك طولاً وسعةً ، قال عبدالله بن الزبير الأسدي :

وسابغة تغشىٰ البنان كأنها أضاة بضحضاح من الماء ظاهر

وقال تعالى في القرآن المجيد : ﴿**أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً**﴾[١٠] .

الجزيل : العظيم ، وأجزلت له من العطاء أي أكثرت ، وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيراً ، والجزل الحطب اليابس ، والمعنى الجزل إذا كان أكثر من لفظه . والجزل في زحاف البحر الكامل من الشعر هو إسكان الثاني من (متفاعلن) وإسقاط الرابع فيبقىٰ (متفعلن) وهو بناء غير منقول فينتقل

---

(٧) سورة يوسف ، آية : ٤٤ .

(٨) وينشأ ذلك النظر مما ورد في التنزيل العزيز أيضاً في سورة الإسراء الآية : ٦٠ قال تعالى : ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس**﴾ وذلك لأنها تشير إلى رؤيا رآها النبي (ص) فانتبه من نومه منزعجاً وكان ذلك سبب نزولها .

(٩) سورة لقمان ، آية : ٥ .

(١٠) سورة سبأ ، آية : ١١ .

إلى بناء مقول منقول وهو (متفعلن) وبيته :

منـــزلـة صم صـداهـا وعـفت أرسـمـهـا إن سئلت لـم تـجـب

عدتي : العدة ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح ، يقال : أخذ للأمر عدته وعتاده بمعنىً . قال الأخفش ومنه قـوله تعـالى : ﴿الذي جمع مالاً وعدده﴾[11] . والعدة ما أعدّ لأمر يحدث مثل الأهبة والإستعداد للأمر والتهيء له ، والعدة من السـلاح ما أعـددته . قاله ابن دريد . وفي خطبة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ في خطابها للمهاجرين والأنصار : (وأنتم ذوو العدد والعدة) .

مؤنسي : الأنس خلاف الوحشة وهو مصدر قولـك أنست به أنسـاً . والأنس والإستئنـاس هـو التـأنس ، والإنسي منسـوب إلى الأنس والجمـع أنـاسي قال تعـالى : ﴿ونسقيه ممـا خلقنا أنعـامـاً وأنـاسي كثيـراً﴾[12] . والإنسـان مأخـوذ من الانس ، وهذا معنىً قـولهم باللغـة المعاصـرة : أن الإنسان إجتماعي بـالطبـع ، أي من طبعه الإجتمـاع بأبنـاء جنسه والأنس بهم .

« البَيَانُ »

في هذه الفقرة جاءنا الحسين ـ سلام الله عليه ـ بلون آخر من ألوان التضرع وأسلوب آخر من أساليب الإعتذار المهذبة ، فهو يريـد أن يعترف بما هو فيه من التقصير في العبادة مع كمالها وتمامها منه ، إلاّ أنه إمعاناً في التـذلل والخشـوع والإلحـاح في المسـألـة في ذلـك اليـوم . قـال ـ عليـه السلام ـ : (لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ من قبل ذلك) .

---

(١١) سورة الهمزة ، آية : ٢ .

(١٢) سورة الفرقان ، آية : ٤٩ .

وإذا تأملت هذه العبـارة وجدت أنـه يلقي قياده ويسلم تسليمـاً لرب العالمين . فإن قوله ـ عليه السلام ـ : (حتىٰ تـرضىٰ) لا يمكن أن تكون في محلها كلمة أخرىٰ تعطي معناها .

وقد ورد هذا المعنىٰ مفسراً عن أهل البيت الطاهر ـ سلام الله عليهم ـ وشرح معنىٰ رضاه وسخطه .

معنى الرضا والسخط

جاء في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ـ رحمه الله تعالى ـ عدة روايات في هذا المعنىٰ .

عن أحمد ابن أبي عبدالله عن أبيه رفعه إلى أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿فلما آسفونا إنتقمنا﴾**[13] قال : إن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون ، وهم مخلوقون مدبرون ، فجعل رضاهم لنفسه رضىً وسخطهم لنفسه سخطاً ؛ وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه ؛ فلذلك صاروا كذلك وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقد قال أيضاً : (من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها) . وقال أيضاً : **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[14] وقال أيضاً : **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾**[15] وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك ، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ،

---

(١٣) سورة الزخرف ، آية : ٥٥ .

(١٤) سورة النساء ، آية : ٨٠ .

(١٥) سورة الفتح ، آية : ١٠ .

ولو كان يصل إلى المكون الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل أن يقول : إن المكون يبيد يوماً ما ؛ لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغير وإذا دخله التغير لم يؤمن عليه الإبادة ، ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكوِّن من المكوَّن ، ولا القادر من المقدور ، ولا الخالق من المخلوق ، تعالى عن هذا القول علوّاً كبيراً ، هو الخالقُ للأشياء لا لحاجة ، فإذا كان لا لحاجة إستحال الحد والكيف فيه ، فافهم ذلك إن شاء الله[١٦] .

وفي رواية أخرىٰ حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل ـ رضي الله عنه ـ قال : حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم ، عن أبيه ، عن العباس بن عمرو الفقيمي ، عن هشام بن الحكم أن رجلاً سأل أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن الله ـ تبارك وتعالى ـ له رضى وسخط ؟ فقال : نعم ، وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ، وذلك أن الرضا والغضب دخال يدخل عليه فينقله من حال إلى حال ، معتمل مركب ، للأشياء فيه مدخل[١٧] وخالقنا لا مدخل للأشياء فيه واحد ، أحدي الذات ، وأحدي المعنىٰ ، فرضاه ثوابه ، وسخطه عقابه من شيء يتداخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال فإن ذلك صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين ، وهو تبارك وتعالى القوي العزيز الذي لا حاجة به إلى شيء مما خلق ، وخلقه جميعاً محتاجون إليه ، إنما خلق الأشياء من غير حاجة ولا سبب إختراعاً وابتداعاً .

وقال حدثنا أحمد بن حسن القطان ، قال حدثنا الحسن بن علي

---

(١٦) التوحيد : ص١٦٨ .

(١٧) قوله معتمل على صيغة المفعول أي منفعل يتأثر من الأشياء ، وتقدير الكلام لأن المخلوق معتمل (كما في الكافي) .

السكري ، قال : حدثنا محمد بن زكريا الجوهري ، عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال سألت الصادق جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ فقلت له : يا بن رسول الله أخبرني عن الله ـ عزّ وجلّ ـ هل له رضى وسخط ؟ فقال : نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ، ورضاه ثوابه . ويأخذك الذهول عندما تقرأ ما بعد هذه العبارة وهو قوله : (من قبل ذلك) ومعناه من قبل المقام الذي صدر فيه هذا التضرع لعلمه ـ عليه السلام ـ بأن الله يعلم بعزمات الإنسان وخطرات الجنان قبل أن تكون ، وقد جاء هذا المعنىٰ في دعاء الصباح المروي عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قوله : (يا من قرب من خواطر الظنون ، وبعد عن لحظات العيون ، وعلم بما كان قبل أن يكون) . وبهذا المعنىٰ جاء قوله تعالى : ﴿**لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾[١٨] وقوله تعالى : ﴿**وإن ربّك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون**﴾[١٩] ، وقوله تعالى : ﴿**والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً**﴾[٢٠] وكثير هي الآيات التي وردت في الذكر الحكيم وهي تحمل هذا المعنىٰ .

ومرة أخرىٰ نعود فنقول إن العتبىٰ من الله للعبد قبل صدورها وبعد صدورها معناه المحبة والرضا ؛ لأن الله إذا أراد للعبد خيراً عاقبه بأي شكل من الأشكال ليحول بينه وبين المعصية ، لأنه لو لم يكن كذلك لما أعتبه ؛ ولأرسله إرسال من لا خير فيه ـ كما سوف يأتينا هذا النص في مطاوي الأبحاث القادمة من الدعاء ـ خصوصاً إذا نظرنا ـ إلى ما ورد في معنىٰ اللغة لهذه الكلمة وأنها هي الملامة ، وهي لا تقع إلاّ بين طرفين تربطهما أنواع

---

(١٨) سورة النحل ، آية : ٢٣ .

(١٩) سورة النمل ، آية : ٧٤ .

(٢٠) سورة الأحزاب ، آية : ٥١ .

من العلاقات وأي علاقات أوثق من علاقات الخالق بالمخلوق ، والموجد بالموجود . ولقد ذكر الله قوماً في النار كانوا يستعتبون فلم يعتبوا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿**فإن يصبروا فالنار مثوىً لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين**﴾[٢١] فقد ورد في معناها كما ذكر الطوسي في التبيان عن البلخي معناه فإن يتخيروا المعاصي فالنار مصير لهم ، وقال قوم : معناه وإن يصبروا في الدنيا على المعاصي فالنار مثواهم ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ بضم الياء معناه إن طلب منهم العتبىٰ لم يعتبوا ، أي لم يرجعوا ولم ينزعوا . وقال قوم : المعنىٰ فإن يصبروا أو يجزعوا فالنار مثوىً لهم ، ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ معناه فإن يجزعوا فيستعتبوا ﴿**فما هم من المعتبين**﴾ ؛ لأنه ليس يستعتب إلاّ من قد جزع مما قد أصابه فطلب العتبىٰ حينئذٍ ، كما قال تعالى : ﴿**اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم**﴾[٢٢] ومعنىٰ الآية ﴿**فإن يصبروا**﴾ على ما هم فيه فمقامهم في النار ، ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ أي وإن يطلبوا العتبىٰ وهي الرضا ﴿**فما هم من المعتبين**﴾ أي ليس بمرضي عنهم ، لأن السخط من الله تعالى بكفرهم قد لزمهم وزال التكليف عنهم فليس لهم طريق إلاّ الاعتاب .

وهناك إحتمال آخر في قوله ـ عليه السلام ـ (من قبل ذلك) وهو قبل خلقه ، وبذلك فإنه ـ عليه السلام ـ قد أعطىٰ ربّه الحق المطلق في إيجاده وعدمه ، ولكن يرد على هذا : أن الخطاب لا يوجه إلاّ للكائن الحي العاقل البالغ المكلف الموجود فعلاً ، (والعتبىٰ) هي من جملة الخطابات الموجهة إلى العقلاء . ويمكن الجواب عن ذلك بأن (العتبىٰ) من جملة الحوادث التي تكتب على الإنسان الذي في علم الله أنه سيوجد كغيرها من

---

(٢١) سورة فصّلت ، آية : ٢٤ .

(٢٢) سورة الطور ، آية : ١٦ .

جملة الأحداث التي تعتريه في حياته . وهناك أُخَرْ أخرىٰ ربما لا يحتملها المقام طويناها خوف الإطالة .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ يردد كلمة الإخلاص التي تعتبر أنشودة الأخيار ولهجة الأبرار ، وطعام الأطهار ، الكلمة التي تتردد على كل سمع ، ويرددها كل حيوان ونبات وجماد كما قال تعالىٰ : **﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة﴾**[٢٣] ألا وهو قوله ـ عليه السلام ـ : (لا إله إلاّ أنت) وهي كلمة لا يأثم قائلها ، فإذا حلت في مكان حلت البركة ، ونزلت الرحمة ، وقد مر الحديث عنها وما يناسبها من الكلام فيما مضىٰ من أبحاث الكتاب .

ثم لم يغب عن الحسين ـ عليه السلام ـ ذكر المكان الذي هو فيه ، واستحضار المناسبة التي هو فيها وهي أقرب إلى الذهن من غيرها . فقال ـ عليه السلام ـ : (ربّ البلد الحرام ، والمشعر الحرام) أما البلد الحرام فهو مكة وما حولها .

والحديث عن مكة حديث طويل ، ولقد أسهب العلماء في وصفها حتى لم يدعوا شاردة ولا واردة .

ونقل عن يحيىٰ ابن أبي أنيسة قال مكة هو الحرم كله وبكة هو موضع البيت . وقال زيد ابن أسلم بكة الكعبة والمسجد ومكة ذو طوىٰ وهو بطن الوادي الذي ذكره الله ـ تعالى ـ في سورة الفتح ، ولها أسماء غير ذلك .

---

(٢٣) سورة الرعد ، آية : ١٣ .

أسماء مكة وصفتها

ومن هـذه الأسمـاء النـاسّـة ، وأم رحم ، وأم القـرىٰ ، ومعـاد والحاطمة ؛ لأنها تحطم من استخف بها أو لأنها تحطم الذنوب التي على الإنسان عند الحطيم كما هـو المروي عن أهـل البيت ـ عليهم السلام ـ ، والحرم ، وصلاح ، والبلد الأمين . وسميت مكة لأنها تمـك الجبارين أي تذهب نخوتهم . وقال ابن الأنباري : ومكة مدينة في وادٍ ، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حـول الكعبة ، وبنـاؤها من حجـارة سود وبيض ملس وعلوها آجر كثيرة ، كثيرة الأجنحـة من خشب الساج ، وهي طبقات لطيفة مبيضة ، حارة في الصيف إلاّ إن ليلها طيب ، وقـد رفع الله عن أهلها مؤنة الإستدفاء ، وأراحهم من كلف الإصطلاء ، وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة ، وعرضها سعـة الوادي ، والمسجـد في ثلثي البلد إلى المسفلة ، والكعبة في وسط المسجد ، وليس بمكة وادٍ ومياهها من السمـاء ، وليس لهم آبار يشـربون منها ، وأطيبها بئر زمزم ، ولا يمكن الإدمـان على شربهـا ، وليس بجميع مكـة شجر مثمـر إلاّ شجر البـادية ، فـإذا جزت الحـرم فهناك عيـون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل . وأما الحرم فليس به شجر

مثمر إلّا نخيل يسيرة متفرقة[٢٤] .

وهناك آراء مختلفة حول تحديد الحرم والحدود الفاصلة بينه وبين الحل وقد تكفلت الكتب الفقهية في تحديد ذلك فليرجع إليها من أراد .

وباختصار فإن البلد الحرام ـ كما قدمنا ـ هو مكة وما حولها وذلك بسبب وجود البيت الذي يعتبر مركز الدائرة في تلك المنطقة ، البيت الذي جعله الله مثابة للناس وآمناً ، وقد أطلقوا عليه البلد الحرام ؛ لأن من دخله حرِّم عليه الإلحاد بجميع أنواعه ، وإن كان محرماً في الأصل . قال تعالى : **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾**[٢٥] ، وحرم صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يدخله الإنسان إلّا محرماً ، وهناك كثير من الأسباب التي تناسب هذه التسمية .

---

(٢٤) معجم البلدان ياقوت الحموي : ص١٨٧ ج٥ .

(٢٥) سورة الحج ، آية : ٢٥ .

المشعر الحرام

وأما المشعر الحرام فهو المذكور في قوله تعالى : **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾**[٢٦] وهو مزدلفة وجُمَع يسمىٰ بها جميعاً وهو من أهم مناسك الحج وقد روىٰ عياض في ميمه الفتح والكسر ، والصحيح هو الفتح كما نطق بذلك الكتاب العزيز ، وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان تحت عنوان المزدلفة حدّه إذا أفضت من عرفات تريده فأنت فيه حتى تبلغ القرن الأحمر دون محسر وقزح الجبل الذي عند الموقف وهي فرسخ من منىٰ بها مصلّىٰ وسقاية ومنارة وبرك عدة إلى جنب جبل ثبير . ثم قال :

والمزدلفة المشعر الحرام ومصلّىٰ الإمام ، يصلي فيه المغرب والعشاء والصبح ، وهو مبيت للحاج ، ومجمع الصلاة إذ صدروا من عرفات ، وهو مكان بين بطن محسر والمأزمين .

وقد قالوا في معناه وسبب تسميته أن مزدلفة منقولة من الإزدلاف ، وهو الإجتماع ، وقيل الإزدلاف الإقتراب ، أما لأنها مقربة من الله ، أو لأن

---

(٢٦) سورة البقرة ، آية : ١٩٨ .

الحاج بعد إفاضته من عرفات ونزوله بهـا يقترب من مكـة ، قال تعـالى : ﴿**إنما نعبدهم ليقربـونا إلى الله زلفىٰ**﴾[٢٧] وقيـل لازدلاف الناس من منىٰ بعد الإفاضة منها ، وقيل لازدلاف آدم وحواء بها ، أي لاجتماعهما ، وقيل لنزول الناس بها في زلفة الليل ، وقيل الـزلفة القـربة فسميت مـزدلفة لأن الناس يزدلفون فيها إلى الحرم أي يقتربون منه بعد خروجهم منها .

أما حدود المشعر ـ كما ورد في الشرع الشريف ـ فهو ما بين المأزمين إلى الحياض إلى وادي محسر ، والمراد بالمأزمين مضيق بين جمع وعرفة ، ويقال على ما بين مكة ومنىٰ ، والمراد به الأول ، ووادي محسر هو حدّ منىٰ فلا واسطة بين المشعر ومنىٰ ، بل حدّ أحدهما متصل بالآخر . وحياض حدّ آخر من المشعر ، وهذا التحديد ورد في روايات أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ .

ففي صحيح معاوية بن عمار عن أبي عبدالله ـ عليه السـلام ـ قال : حد المشعر الحـرام من المأزمين إلى الحيـاض إلى وادي محسر ، وكثيـر غيرها من الروايات التي رسمت الحدود لهذه البقعة المقدسة .

أما وقت الوقوف به فحدوده بما طلوع الفجر إلى طلوع الشمس من يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة للمختار ، وهناك موقفان آخران أحدهما اضطراري وهو بمنزلة الإختياري لبعض الأفراد ، وهـو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر من ليلة النحر ، وهناك موقف اضطراري محض وهو ما بين طلوع الشمس إلى زوالها من يوم النحر ، وهذه تـوسعة من الله للعباد .

---

(٢٧) سورة الزمر ، آية : ٣ .

أما الأحكام المتعلقة بهذا الواجب فيرجع إليها في مضانها من الكتب الفقهية .

وقد ورد في ذلك الموقف الكثير من الأدعية المأثورة عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ ، ونحن نورد هذا الدعاء تيمناً به ولئلا يخلو كتابنا هذا من بركته وهو :

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

أللهم ربّ المشعر الحرام ، وربّ الركن والمقام ، وربّ الحجر الأسود وزمزم ، وربّ الأيام المعلومات فك رقبتي من النار ، وأوسع عليّ من رزقك الحلال ، وادرأ عني شر فسقة الجن والإنس ، وشر فسقة العرب والعجم ، أللهم أنت خير مطلوب إليّ وخير مدعوٍ ، وخير مسؤول ، ولكل وافدٍ جائزة ، فاجعل جائزتي في موطني هذا أن تقيلني عثرتي ، وتقبل معذرتي ، وتتجاوز عن خطيئتي ، وتجعل التقوىٰ من الدنيا زادي وتقلبني مفلحاً منجحاً مستجاباً لي بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك وحجاج بيتك الحرام .

أللهم هذه جمع ، أللهم إني أسألك أن تجمع لي فيها جوامع الخير ، أللهم لا تؤيسني من الخير الذي سألتك أن تجمعه في قلبي وأطلب إليك أن تعرفني ما عرفت أولياءك في منزلي هذا ، وأن تقيني جوامع الشر .

أللهم اهدني من الضلالة ، وأنقذني من الجهالة ، واجمع لي خير الدنيا والآخرة ، وخذ بناصيتي إلى هداك وانقلني إلى رضاك ، فقد ترى مقامي بهذا المشعر الذي انخفض لك فرفعته ، وذلّ لك فأكرمته ، وجعلته علماً للناس ، فبلغني فيه مناي ونيل رجائي ، أللهم اني أسألك بحق المشعر الحرام أن تحرم بشري على النار ، وأن ترزقني حياة في طاعتك ،

وبصيرة في دينك ، وعملاً بفرائضك ، واتباعاً لأوامرك ، وخير الدارين ، وأن تحفظني في نفسي ، ووالدي وولدي ، وأهلي ، وإخواني وجيراني برحمتك .

وأما البيت العتيق الذي ذكره في قوله ـ عليه السلام ـ (والبيت العتيق الذي أحللته البركة ، وجعلته للناس أمنة) فهو الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً بدعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإنه لما دعا للمؤمنين وترك الكفار لم يدع لهم بشيء فقال الله تعالى : **﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار﴾**[٢٨] .

وقال مجاهد إن في حَجَرٍ في الحِجْرِ (أنا الله ذو بكة صغتها يوم صغت الشمس والقمر ، وحففتها سبعة أملاك حنفاء ، مبارك لأهلها في اللحم والماء ، يحلها أهلها ، ولا يحلها أول من أهلها)[٢٩] وقال : لا تزول حتىٰ تزول الأخشبان . قال أبو محمد الخزاعي : الأخشبان يعني الجبلين . وعن مجاهد أيضاً قال : وجد في بعض الزبور (أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين ، وصغتها يوم صغت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وجعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل ، فليس يؤتىٰ أهل مكة إلاّ من ثلاث طرق ، من أعلىٰ الوادي وأسفله ، وكدا ، وباركت لأهلها في اللحم والماء)[٣٠] .

وفي رواية عن يحيىٰ بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عبّاد أنه حدّثه أنهم وجدوا في بئر الكعبة في نقضها كتابين من صفر مثل بيض النعام

---

(٢٨) سورة البقرة ، آية : ١٢٦ .
(٢٩) أخبار مكة : ج١ ص٧٩ للأفرزقي .
(٣٠) أيضاً أخبار مكة : ج١ ص٧٩ .

مكتوب في إحداهما (هذا بيت الله الحرام رزق الله أهله العبادة لا يحله أول من أهله)[٣١] .

وهناك روايات كثيرة وردت من الفريقين بطرق شتىٰ تدل على مكانة هذا البيت الذي حماه الله من أيدي المعتدين ، وأطماع الطامعين ، وقد نوه القرآن الكريم ببعض ذلك ومنها حادثة الفيل التي اشتهرت في تاريخ الإسلام وغيره وقد أنزل الله سورة بكاملها في خصوص هذه الحادثة فقال تعالى : **﴿بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾** .

---

(٣١) أخبار مكة : ج١ ص٧٩ .

حادثة الفيل

وملخص هذه الحادثة كما ذكر في مجمع البيان أن الرواة أجمعت على ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو إبرهة بن الصباح الأشرم وقيل : إن كنيته أبو يكسوم ، ونقل عن الواقدي إنه جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ .

ثم ساق الكلام في قصة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال : ثم انه بنىٰ كعبة باليمن وجعل فيها قباباً من ذهب ، فأمر أهل مملكته بالحج إليها ، يضاهي بذلك البيت الحرام ، وإن رجلاً من بني كنانة خرج حتىٰ قدم اليمن فنظر إليها ، ثم قعد فيها ـ يعني لحاجة الإنسان ـ فدخل إبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال : من إجترأ عليّ بهذا ؟ ونصرانيتي لأهد من ذلك البيت حتىٰ لا يحجه حاج أبداً ! ودعا بالفيل وأذن قومه بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن ، وكان أكثر من إتبعه منهم عك والأشعرون وخثعم . قال : ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس إلى حج بيته الذي بناه ، فتلقاه أيضاً رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حنقاً وحث السير والإنطلاق .

وطلب من أهل الطائف دليلاً فبعثوا معه رجلاً من هذيل يقال له نفيل

فخرج بهم يهديهم ، حتىٰ إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال ، فبعثوا مقدماتهم إلى مكة فخرجت قريش في رؤوس الجبال وقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء ، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته وغير شيبه بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت ، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادة البيت ثم يقول :

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدواً محالك
إن يدخلوا البلد الحرام إذاً فأمر ما بدا لك

ثم إن مقدمات إبرهة أصابت نعماً لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، فلما بلغه ذلك خرج حتى أتىٰ القوم وكان حاجب إبرهة رجلاً من الأشعريين ، وكان له بعبد المطلب معرفة ، فاستأذن له على الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحي ووحشها في الجبل ، فقال له : إئذن له .

وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً فلما رآه أبويكسوم أعظمه أو يجلسه تحته وكره أن يجلسه معه على سريره ، فنزل من سريره فجلس على الأرض وأجلس عبد المطلب معه . ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك ، وقال أبو يكسوم : والله لقد رأيتك فأعجبتني ، ثم تكلمت فزدت فيك . فقال : ولم أيها الملك ؟ قال لأني جئت إلى بيت عزكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس وشرفكم عليهم ودينكم الذي تعبدون ، فجئت لأكسره ، وأصيبت لك مائتا بعير ، فسألتك عن حاجتك فكلمتني في أبلك ، ولم تطلب إليّ في بيتكم !

فقال له عبد المطلب أيها الملك : أنا أكلمك في مالي ، ولهذا البيت

ربّ هو يمنعه لست أنا منه في شيء ، فراع ذلك أبا يكسوم وأمر برد إبل عبد المطلب عليه ، ثم رجع وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنها تكلمهم كلاماً لإقترابها منهم فأحست نفوسهم بالعذاب إلى أن قال : حتىٰ إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة ، فجعلت ترميهم وكل طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرىٰ . فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلّا خرقه ، ولا عظم إلّا أوهاه وثقبه . وثاب أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة ، فجعل كلما قدم أرضاً إنقطع له فيها إرب . حتىٰ إذا انتهىٰ إلى اليمن لم يبق شيء إلّا أباده ، فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك . ولم يصب من الأشعريين وخثعم أحداً . . الحديث .

ولقد تكرر وصف هذا البيت (العتيق) ، وهذه الكلمة على ما في معناها من السهولة توجه إلى عدة وجوه وقد احتملوا فيها كثيراً من المعاني ، إلّا أن ما ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هو ما نلتزم به من هذه التوجيهات ، فقد ورد كثير من الأحاديث في سبب تسميته أو وصفه (بالعتيق) نكتفي بذكر بعض منها .

فمن ذلك ما ورد في علل الشرائع للشيخ الصدوق ـ رحمه الله ـ عن أبيه قال حدثنا سعد بن عبدالله ، عن أحمد بن محمد عن الحسن بن علي الوشاء ، عن أحمد بن عائذ ، عن أبي خديجة عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : لم سمي البيت العتيق ؟ قال : إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أنزل الحجر الأسود لآدم من الجنة وكان البيت درة بيضاء فرفعه الله إلى السماء ، وبقي أسّه فهو بحيال هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه أبداً فأمر الله إبراهيم وإسماعيل يبنيان على القواعد . وإنما سمي

بالبيت العتيق لأنه أعتق من الغرق[٣٢] .

وقال في رواية أخرىٰ ، قال : حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد ـ رحمه الله ـ قال : حدثنا محمد بن يحيىٰ العطار وأحمد بن إدريس جميعاً عن محمد بن أحمد عن يحيى بن عمران الأشعري عن الحسن بن علي ، عن مروان بن مسلم ، عن أبي حمزة الثمالي قال : قلت لأبي جعفر ـ عليه السلام ـ في المسجد الحرام لأي شيء سماه الله البيت (العتيق) ؟ قال : ليس من بيت وضعه الله على وجه الأرض إلّا له ربّ ، وسكان يسكنونه غير هذا البيت ، فإنه لا يسكنه أحد ولا ربّ له إلّا الله وهو الحرام . وقال : إن الله خلقه قبل الخلق ثم خلق الله الأرض من بعده فدحاها من تحته .

وفي رواية أخرىٰ ، عن أبيه ـ رحمه الله ـ قال : حدثنا سعد بن عبدالله ، عن أحمد بن محمد ، عن علي بن الحسن الطويل ، عن عبدالله بن المغيرة ، عن ذريح بن يزيد المحاربي ، عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أغرق الأرض كلها يوم نوح إلّا البيت ، فيومئذٍ سمي (العتيق) لأنه أعتق يومئذٍ من الغرق . فقلت له : أصعد السماء ؟ فقال : لا لم يصل إليه الماء ورفع عنه .

وفي قصيدة بعنوان (وليد الكعبة) قلت فيها :

حرم حماه الله من طمع العدى   من جيش إبرهة غداة تجمعوا
زحفوا برايات الضلال فأصبحوا   في مهمةٍ قفرٍ جميعاً صرعوا

هذا بعض ما ورد من التعليل عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ

---

(٣٢) علل الشرائع : ص٣٩٨ .

وهو لا يتنافى مع بعض التوجيهات لهذه الكلمة إن وجدت ، ومنها مثلاً أن من حج إليه أعتق من النار ، فإن هذا المعنى وارد مع التأمل في الروايات الأخرى والدالة على مكانة البيت السامية عند الله خصوصاً عندما تأتينا الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿**ومن دخله كان آمناً**﴾[٣٣] ـ كما سوف يأتينا .

أما إحلال البركة فإن السبب في ذلك يرجع إلى دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ذكر ذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿**ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع . عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾[٣٤] فقد ورد في تفسير الآية أن المراد ﴿**بغير ذي زرع**﴾ غير المزروع وهو آكد وأبلغ ؛ لأنه يدل ـ كما قيل ـ على عدم صلاحيته لأن يزرع ؛ لكونه أرضاً حجرية أو رملية خالية من المواد الصالحة للزرع ، بعيدة عن صفات التربة الصالحة للزراعة التي يعبر عنها الزراع (بالتربة الصفراء) أو التربة الطينية اللزجة ، وقد دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أواخر عمره بعد ما بنى الكعبة ، وبنى الناس بلدة مكة وعمروها ، كما يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق**﴾[٣٥] .

وقد احتاجت تلك المنطقة إلى هذا الدعاء المبارك لما هي فيه من قحط وجدب بسبب وعورة الطريق المؤدي إليها ، والجبال المكتنفة لها والتي تملأ أرضها مما يعسر معه الزراعة من أي نوع من أنواعها . أما لو كانت صالحة للزراعة فإنها لم تكن في حاجة ماسة إلى ذلك الدعاء

---

(٣٣) سورة آل عمران ، آية : ٩٧ .

(٣٤) سورة إبراهيم ، آية : ٣٧ .

(٣٥) سورة إبراهيم ، آية : ٣٨ .

بخصوصها ؛ فإن الإنسان بما أعطاه الله من قدرة وفطنة ، مع تعهده به لرزقه يستطيع أن يستثمرها فيما لو كانت غير ذلك .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى وصف البيت بصفة أخرىٰ وهو كونه للناس (أمنة) جرياً مع الآيات الكريمة في التنزيل العزيز التي وصفته بهذا الوصف كقوله تعالى : **﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾**(٣٦) وقوله تعالى : **﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال : ومن كفر فامتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾**(٣٧) قال المفسرون إن المراد بالأمن الذي سأله ـ عليه السلام ـ الأمن التشريعي دون التكويني ، فهو يسأل ربّه أن يشرع الأرض مكة حكم الحرمة والأمن ، وهو ـ على خلاف ما ربما يتوهم ـ من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ، فإنّا لو تأملنا هذا الحكم الإلهي الذي شرعه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإذن ربّه ، أعني حكم الحرمة والأمن ، وأمعنا فيما يعتقده الناس من تقديس هذا البيت العتيق ، وما أحاط به من حرم الله الآمن ، وقد ركز ذلك في نفوسهم منذ أربعة آلاف سنة حتىٰ اليوم ، وجدنا ما لا يحصىٰ من الخيرات والبركات الدينية والدنيوية عائدة إلى أهلها وإلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم ويتعلق قلبه بهم ، وقد ضبط التاريخ من ذلك شيئاً كثيراً وما لم يضبط أكثر فجعله ـ تعالىٰ مكة بلداً آمناً من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على عباده .

ثم قال ـ عليه السلام ـ (يا من عفىٰ عن العظيم من الذنوب بحلمه)

---

(٣٦) سورة إبراهيم ، آية : ٣٥ .

(٣٧) سورة البقرة ، آية : ١٢٦ .

وفي وقفة تأمل في هذه العبارة نرىٰ أنه قد قرن بين العفو والعظيم من الذنوب ، وهذا من أروع البيان الذي يخاطب به الباري بلهجة مهذبة ومؤدبة في آنٍ واحد ؛ وذلك لأنه صفة يختص بها ـ تبارك وتعالى ـ فإن العظيم من الذنوب لا يتجاوز عنه عادة بل يحاسب المذنب عليها ، لأنها عظيمة ، وإذا كان الذنب عظيماً فإن له جزاء عظيماً ، إما في الشريعة وإما في قانون البشر . ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ بما أنه قادر على كل شيء ثم يعفو بعد ذلك مع قدرته على الإنتقام فإنه (الحلم) الذي عبر عنه في النص الماثل أمامنا ، وذلك لأننا لا نستطيع أن نميز الحلم من غيره إلّا عند المقدرة . فإن الحلم عند الإنسان هو ضبط الأعصاب والأناة ، وعدم التسرع في الإنتقام .

أما بالنسبة إلى الله فإنه التجاوز والعفو والمغفرة عن الذنب العظيم الجليل ، والخطير الذي يستحق الإنسان عليه العقاب ـ كما هو المذكور في العبارة في قوله ـ عليه السلام ـ (بحلمه) فإن الحلم لا يصدق على ذلك بمجرد العفو عن مجرد الذنب ، ولكنه العفو عن الذنوب العظيمة .

والحلم كما تحدثت عنه الآيات والروايات ونسبته إلى الله ـ سبحانه ـ هو من أصدق المصاديق على الرأفة والرحمة عنده تعالى اللتين أدخرهما للعباد يوم القيامة ، وفي ما ذكرناه هنا كفاية على إدراك المعنىٰ المقصود من هذه الكلمة في العبارة التي ذكرها ـ عليه السلام ـ ، وربما تكون لنا عودة في بحث جديد حول ذلك .

أما إسباغ النعم فكثيراً ما تحدثنا عنها فيما سبق من أبحاث الكتاب ، ونضيف هنا فنقول : إن ما يلوح من أفق العبارة في قوله ـ عليه السلام ـ (يا من أسبغ النعمة بفضله) إنه أعطىٰ النعمة وأسبغها على الإنسان تكرماً

وتفضلاً منه تعالى ـ كما هو شأن الكريم المتفضل على غير إستحقاق من العبد ومن غير حق في هذا الاسباغ ـ ولكن بما أنه قد تعهد له برزقه قبل أن يخلقه فإنه يأتيه رغداً من كل مكان . أما التفضل والإسباغ فمعناه الزيادة في الرزق عن الحاجة، كما نستشفّ ذلك من الموارد اللغوية التي تعرضت لشرح اللفظ ، وفي هذه العبارة إطناب من نوع التكرار بالمعنىٰ الذي يأتي بالتأكيد ، وذلك كقوله تعالى : ﴿**كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون**﴾[٣٨] ، وهو تأكيد باللفظ ، والمعنىٰ في ذلك غير خفي ، وهذا المعنىٰ يتجلّىٰ لك أيضاً أكثر وضوحاً في العبارة التالية بعد العبارة السابقة بلا فصل . وهو قوله ـ عليه السلام ـ :

(يا من أعطى الجزيل بكرمه) والعطاء الجزيل لا يكون إلّا من الكريم ، لأن البخيل لا يعطي إلّا القليل إذا أعطى ، وكثيراً ما منع العطاء . والعبارة هذه كسابقتها وردت لغرض الإستعطاف والتضرع ، واستمداد العطاء والإلحاح على الله ـ تعالى ـ في المسألة وهذا ما يظهر طافحاً من تكرار العبارات باللفظ أو المعنىٰ فقوله ـ عليه السلام ـ هذا لم يكن مجرد وصف بالكرم ، فربما يكون الكريم كريماً ولكنه لا يعطي في كل الحالات ، أو لا يعطي من لا يستحق ، ولكن الحسين ـ عليه السلام ـ قد وصف ربّه في العبارة بالكرم ، والكرم صفة لا يمكن فصلها عن الذات ووصفه بجزيل العطاء فهو كريم دائماً وعطاؤه جزيل دائماً بدوام الكرم . وهذا ما يدعو إلى الدهشة وحيرة العقل وتجمده أمام هذا الاسلوب الرصين ، فإنه ـ عليه السلام ـ لم تأخذه رهبة ذلك الموقف عن التأدب في الخطاب والسؤال والثناء على الله بأعظم صفاته وأحبها إليه ، ثم لم تفته ـ

---

(٣٨) سورة التكاثر ، آية : ٣ ، ٤ .

عليه السلام ـ تلك الملازمة بين السؤال الملح منه إلى الله ـ تعالى ـ بواسطة ذلك التكرار ، وبين الصفة المناسبة التي تنسجم والطلب القائم وهو الكرم .

ثم شرع ـ عليه السلام ـ في طلب المعونة من الله فقال : (يا عدتي عند كربتي) والعدّة بحسب ما ورد في اللغة هو ما يعده الإنسان لمصائب الدهر وكرباته . وفي معنى آخر الإستعداد بالمال والسلاح ، ومعنىٰ ذلك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ هو الرازق والمعين على حوادث الدهر وصروف الأيام والليالي ، وهذا لا يكون إلّا في الأزمات الحادّة التي يقف عندها الإنسان حائراً مبهوتاً ، أما المشاكل الهينة فإن الله قد أعطىٰ الإنسان عقلاً مفكراً يستطيع به أن يجد له منها مخرجاً .

ثم قال : (ويا مؤنسي في حفرتي) في هذه العبارة طلب غير مباشر بأن يكفيه أهوال القبر ، وأهوال القبر قد حذر منها الأنبياء ، والأوصياء الذين جاؤوا للناس كافة مبشرين ومنذرين ، ولكن الناس في غفلتهم ساهون .

وخير ما ورد من هذا التحذير بعد كتاب الله العزيز ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ في كتاب نهج البلاغة فيما كان ينفر من الغفلة (فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم وذهلتم وسمعتم وأطعتم ، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا ، وقريب ما يطرح الحجاب ، ولقد بصرتم إن أبصرتم ، وأسمعتم إن سمعتم ، وهديتم إن اهتديتم ، وبحق أقول لكم : لقد جاهرتكم العبر ، وزجرتم بما فيه مزدجر ، وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر) .

هذا الكلام الذي فيه مزدجر صدر عمّن يعلم بمستقبل الأمور ومستجداتها فمحض النصيحة للناس كافة وحذرهم من الغفلة ووضع

المؤشـرات والنصب على الطريق الطويل القصير .

الطويل بمراحلة من موتـه إلى يوم القيـامة ، والقصيـر الذي لا يفتـأ الإنسان فيه بين عشية وضحاها سالكاً إياه والذي يفصل مـا بنية في حيـاته الدنيا وبين الموت إلاّ حضور الأجـل وهو نفس إن دخـل لم يخرج ، وإن خرج لم يدخل ـ كما صور ذلك الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ . وقد أشار إلى هذا أبو الحسن التهامي في رائعته الوعظية حيث قال :

فـالـعيش نـوم والـمنيـة يقـظة   والمـرء بينهـمـا خيـال سـاري

وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ثم قال ـ عليه السلام ـ معترفاً بأن الخير من الله الذي وهب لـه هذه النعم وأعطاه من الخيرات ما يكفيه لاستمرار حياته فقال (يا ولي نعمتي) وهذا نظير قوله تعالى : ﴿**والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهـو يشفين**﴾[٣٩] فقد ذكر المفسرون أن ذلك كالكناية عن جملة النعم الماديـة التي يرزقه الله إياها لتتميم النواقص ورفع الحـوائج الـدنيويـة ، وقد خص بالذكر منها ما هو أهمها وهو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض .

وبلحـاظ ما تقـدم نـدرك أن النعمـة التي ذكـرهـا في العبـارة ليست مقصورة على المال ، وإنما يتعدىٰ ذلك إلى كل ما يشمل الإنسان في حياته من الخيرات من مـالٍ وجاهٍ وسمعة طيبة وصحة وقـوة وعلم وفطنـة وإيمان وغير ذلك مما يهب للإنسان الحياة السعيدة وراحة البال .

ثم توجه في خطابه جهة أُخرىٰ بتوسل آخر في السؤال ، فتراه يتوسل بـآبائـه إبراهيم وإسمـاعيل وإسحـاق ويعقوب ولكن بلون آخـر من ألـوان

---

(٣٩) سورة الشعراء ، آية : ٧٩ .

المسألة (يا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب) فهو لم يقصد بذكرهم تعداد الأسماء ، أو التصريح بنسبه الشريف المنتهي إليهم ولكنه قدمهم بين يدي حاجاته لأنهم وسائل إلى الله وشفعاء إليه فذكرهم في هذا الموضع والتوسل بهم يدل على الإلحاح والمسألة من الله ولم يفته قصد التبرك بهم .

أما كون هؤلاء آباءه فلأنه من سلالة النبيين ، وذلك فيما إذا رجعنا بسلسلة نسبه الطاهر إلى الوراء ، لأنه هو الحسين بن رسول الله محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد بن هاشم ، واسمه عمرو بن عبد مناف ، واسمه المغيرة بن قصي ، واسمه زيد بن كلب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن إد بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل ، بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروع بن ارغو بن فالغ بن عابر ، وهو هود ـ عليه السلام ـ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ بن مالك بن متوشلخ بن اخنوخ ، ويقال احنوح ، وهو إدريس ـ عليه السلام ـ بن باذر بن هلايل بن قينان بن أنوش بن شيث وهو هبة الله بن آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ .

وإلى هذا النسب الشريف لوّح القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾[٤٠] قال في مجمع البيان : قيل معناه وتقلبك في الساجدين الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً ، عن ابن عباس ، وفي رواية عطاء وعكرمة ، وهو المروي عن أبي

(٤٠) سورة الشعراء ، آية : ٢١٨ ، ٢١٩ .

جعفر وأبي عبدالله ـ عليهما السلام ـ قالا : أصلاب النبيين ، نبي بعد نبي ، حتى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم .

وبهذا المعنىٰ ورد ما في كتاب العلل والخصال ومعاني الأخبار بإسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ (أنا أشبه الناس بآدم وإبراهيم ، أشبه الناس في خلقه وخلقه وسماني الله من فوق عرشه عشرة أسماء وبين الله وصفي وبشرني على لسان كل رسول بعثه الله إلى قومه ، وسماني ونشر في التوراة اسمي وبث ذكري في أهل التوراة والإنجيل وعلمني كتابه ورفعني في سمائه ، وشق لي إسماً من أسمائه وسماني محمداً وهو محمود ، وأخرجني في خير قرن من أمتي ، وجعل إسمي في التوراة أحيد فبالتوحيد حرم أجساد أمتي على النار ، وسماني في الإنجيل أحمد ، فأنا محمود في أهل السماء ، فجعل أمتي الحامدين . وجعل إسمي في الزبور ماحي ، محىٰ الله عزّ وجلّ بي من الأرض عبادة الأوثان ، وجعل إسمي في القرآن محمداً ، أنا محمود في جميع القيامة في فصل القيامة في فصل القضاء لا يشفع أحد غيري ، وسمّاني في القيامة حاشراً يحشر الناس على قدمي ، وسماني الموقف أوقف الناس بين يدي الله عزّ وجلّ ، وسماني العاقب أنا عقب النبيين ، ليس بعدي رسول ، وجعلني رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم ، والمقتفي قفيت النبيين ، جماعة وأنا المقيم الكامل الجامع ، ومن علي ربي وقال لي : يا محمد صلى الله عليك ، فقد أرسلت كل رسول إلى أمته بلسانها ، وأرسلتك إلى كل أحمر وأسود من خلقي ، ونصرتك بالرعب الذي لم أنصر به أحداً ، وأحللت لك الغنيمة ، ولم تحل لأحد قبلك ، وأعطيتك لك ولأمتك كنزاً من كنوز عرشي ، فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة ، وجعلت لك ولأمتك الأرض كلها مسجداً وطهوراً ،

وأعطيت لك ولأمتك بالتكبير ، وقرنت ذكرك بذكري حتى لا يذكرني أحد من أمتك إلّا ذكرك مع ذكري ، فطوبىٰ لك يا محمد ولأمتك .

ولقائل أن يقول : ما هي الصلة بين هذه السلالة النبوية وبين الحسين ـ عليه السلام ـ ، وهو لم يتصل بالأنبياء إلّا عن طريق الأم فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ والحال أن النسب في المفهوم الإنساني لا يتصل لأي جهة من الجهات إلّا عن طريق الأب ، وقد قال شاعر العرب :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

إلّا أن هذا غير وارد في المفهوم الشرعي وقد تعرض القرآن المجيد لهذه المسألة كما هو مذكور في مناظرة الرجل العلوي مع الحجاج .

العَلَويُّ والحَجَّاج

حكي عن الشعبي الحـافظ لكتاب الله ـ تعـالى ـ قال : استـدعـاني الحجـاج في يوم عيـد الأضحىٰ فقال لي أي يـوم هـذا ؟ فقلت هـذا يـوم الأضحيـة قال : بم يتقـرب الناس في مثـل هذا اليـوم ؟ فقلت بالأضحيـة والصدقة وأفعال البر والتقوىٰ . فقال لي : إعلم إني قد عزمت أن أضحي برجل حسيني قال الشعبي : فبينما هو يخاطبني إذ سمعت من خلفي سلسلة وحديد فخشيت أن ألتفت فيستخفي ، وإذا قد مثل بين يـديه رجـل علوي وفي عنقه سلسلة وفي رجليه قيـد من حديـد . فقال لـه الحجاج : ألست فلان بن فلان ؟ فقال نعم أنا ذلك الرجل . فقال له أنت القائل أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ـ صلى الله عليـه وآله ـ ؟ قـال : ما قلت ولا أقول ، ولكني أقول إن الحسن والحسين ولدا رسول الله ، وإنهما دخلا في ظهره ، وخرجا من صلبه على رغم أنفـك يا حجـاج . قال : وكـان متكئاً فاستوىٰ جالساً وقد اشتد غيظه وغضبه وانتفخت أوداجه . ثم قال للرجل يا ويلك ! إن لم تأتني بدليل من القرآن يدل على ذلك قتلتك شر قتلة ، وإن أتيتني بما يدل على ذلك أعطيتك هذه البذرة التي بيدي وخليت سبيلك . قال الشعبي وكنت حافظاً كتاب الله كله ، فلم يخطر على بالي آية تدل على ذلك . فحزنت وقلت في نفسي يعز علي والله ذهاب هذا الرجل العلوي .

قال فابتدأ الرجل يقرأ الآية فقال : ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ فقطع عليه الحجاج قراءته . وقال لعلك تريد أن تحتج عليّ بآية المباهلة وهو قوله تعالى : ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم﴾(٤١) فقال العلوي هي والله حجة مؤكدة متعمدة ، ولكني أتيك بغيرها . ثم ابتدأ يقرأ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم : ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهٰرون وكذلك نجزي المحسنين﴾(٤٢) وزكريا ويحيىٰ وسكت فقال له الحجاج فلم لا قلت وعيسىٰ أنسيت عيسىٰ ؟ فقال له الحجاج : إنه دخل في صلبه من حيث أمه . فقال العلوي وكذلك الحسن والحسين دخلا في صلب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من حيث أمهما فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ قال فبقي الحجاج ساكتاً كأنما ألقم حجراً . ثم قال له الحجاج ما الدليل على أن الحسن والحسين إمامان ؟ فقال العلوي : يا حجاج لقد ثبتت لهما الإمامة بشهادة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في حقهما : ولداي هذان إمامان إن قاما وإن قعدا ، تميل عليهما الأعداء فيسفكون دمهما ويسبون حرمهما ، ولقد شهد النبي لهما بالإمامة أيضاً حيث قال إبني هذا يعني الحسين ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة فقال الحجاج : يا علوي كم عمر الحسين في دار الدنيا فقال : ستاً وخمسين سنة فقال وفي أي يوم قتل فقال : يوم العاشر من شهر عاشوراء بين الظهر والعصر فقال له : ومن قتله ؟ فقال : لقد جند الجنود ابن زياد بأمر يزيد فلما اصطفت العساكر لقتاله قتلوا حماته وأنصاره وأطفاله وبقي فريداً وحيداً يستغيث فلا يغاث ويستجير فلا يجار يطلب جرعة من الماء ليطفي بها حر الظمأ بينما هو واقف إذ جاء سنان بسنانه ورماه خولي بسهم فوقع في لبته وسقط عن ظهر

---

(٤١) سورة آل عمران ، آية : ٦١ .

(٤٢) سورة الأنعام، آية: ٨٤.

الجواد إلى الأرض يخور في دمه فجاء شمر فاحتز رأسه بحسامه ورفعه فوق قناته فقال الحجاج : خذ هذه البذرة لا بارك الله لك فيها فأخذها العلوي وهو يقول هذا من عطاء الله لا من عطائك يا حجاج ثم إن العلوي بكى وجعل يقول :

صلى الإلٰه ومن يحف بعرشه والطيبون على النبي الناصح
وعلى قرابته الذين تهضموا بالنائبات وكل خطب فادح
طلبوا الحقوق فأبعدوا عن دارهم وعوى عليهم كل كلب نابح

ثم نستطيع أن نقول أن الحسين ـ عليه السلام ـ جعل هذه الأسماء ، أسماء الأنبياء ، وسيلة وباباً في مناجاته ـ كما مر ـ لعلمه بمكانتهم عند الله ، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (وربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل) وهذه الملائكة بأعيانها قد تقدم البحث عنها في كلام سابق ، وهذه الأسماء فيها ما فيها من الأسرار الخفية التي تستحق أن يقسم بها على الله ويتوسل بها لديه ، فإذا سئل بها أجاب وأعطى وما أحوج الإنسان إلى ذلك ، وقد ورد في التنزيل العزيز هذه الظاهرة حتى على لسان الأنبياء فقد قال على لسان موسى ـ عليه السلام ـ : **﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾**[٤٣] وهو النبي المرسل .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وربّ محمد خاتم النبيين ، وآله المنتجبين) فإنه استعطاف وتوسل بالنبي وآله في آنٍ واحدٍ ، فإن الذكر للنبي وآله لم يأت إعتباطاً وإنما جاء بقصد التوسل بهم والتبرك ، إلى غير ذلك من الأغراض الجليلة التي ترد على خاطر الإنسان بدافع ذلك المقام .

وانتقال آخر في الكلام نراه ماثلاً في قوله ـ عليه السلام ـ : (ومنزّل

---

(٤٣) سورة القصص ، آية : ٢٤ .

التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن العظيم) وفي إيراد هذه الكتب السماوية في المقام يرد الكثير من الإحتمالات المقصودة :

١ ـ أن يقصد ـ عليه السلام ـ من ذكر هذه الكتب التفضل منه ـ سبحانه ـ على خلقه بالهداية بالتعاليم السماوية والأحكام المنزلة في هذه الكتب التي تعبد بها الناس .

٢ ـ أن يقصد بأن هذه الكتب لها شأن يختلف عن بقية الكتب التي يتداولها الإنسان من صنع يده لأنها لا تخلو من شوائب النزعات الإنسانية .

٣ ـ أن يكون المقصود من ذكرها هو العدل الإلٰهي الذي يقتضي إلقاء الحجة على الإنسان بإبلاغه الدعوة ووصولها إليه عن طريق الأنبياء الذين جاؤوا يحملون هذه الكتب المنزلة منه ـ تعالى ـ إلى العباد ، وهذا ما يطابق ما جاء في الكتاب العزيز ﴿**وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً**﴾(٤٤) .

٤ ـ ويمكن أن يكون المقصود بذكر هذه الكتب التعريض بالرحمة المودعة فيها والتي حملها الأنبياء ورغبوا الناس إليها ، ومن ثم التعرض لهذه الرحمة . وهناك كثير من المقاصد الأخرىٰ التي لا تغيب عن الذهن اللبيب والتي تفرضها رهبة ذلك الموقف .

ثم يفيض ـ عليه السلام ـ في هذا التضرع ، ويلح في هذا السؤال ، فيطرح كثيراً من الصفات الإلٰهية التي تليق بعز جلاله ـ سبحانه ـ فيقول : (ومنزل كهيعص ، وطه ، ويٓسٓ ، والقرآن الحكيم) . وفي بحث سابق لهذه الحروف المقطعة أشرنا إليها بصورة عابرة ، وذكرنا أنها أسرار خفية ، بين الله ونبيه المخاطب بها ، وقد ذكرنا فيما هنالك بعض ما تعرض له

---

(٤٤) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

العلماء من الأقوال التي ذكروها في تفسير هذه الرموز التي أشار بها ـ تبارك وتعالى ـ في القرآن إلى غايات ومقاصد . وبقي هنا أن نذكر بعض الروايات عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ والتي أشارت إلى تفسيرها .

أما تفسير ﴿كهيعص﴾ فقد ذكر السيد هاشم البحراني في تفسير البرهان عن ابن بابويه ، قال : أخبرنا أبو الحسن محمد ابن هارون الزنجاني فيما كتب إليّ على يدي علي بن أحمد البغدادي الوراق قال : حدثنا معاذ بن المثنى العنبري ، قال : حدثنا عبدالله بن أسماء ، قال : حدثنا جويرية عن سفيان بن سعيد الثوري ، قال : قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ : يا بن رسول الله ، ما معنى ﴿كهيعص﴾ ؟ قال : معناه أنا الكافي ، الهادي الولي العالم الصادق الوعد .

وفيه بحذف الإسناد عن جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ سأله رجل عن ﴿كهيعص﴾ فقال عليه السلام : (كاف) كافٍ لشيعتنا ، (ها) هادٍ لهم ، (ياء) ولي لهم ، (عين) عالم بأهل طاعتنا ، (صاد) صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدها إياهم في بطن القرآن .

وعنه بحذف الإسناد أيضاً ، عن سعد بن عبدالله القمي في حديث له مع أبي محمد الحسن بن علي العسكري ـ عليهم السلام ـ : ما جاء بك يا سعد ؟ فقلت : شوقني أحمد بن إسحاق إلى لقاء مولانا . قال : والمسائل التي أردت أن تسأل عنها ؟ قلت : على حالها يا مولاي . قال : فاسأل قرة عيني ، وأومأ بيده إلى الغلام ـ عليه السلام ـ عما بدا لك ، وذكر المسائل . . إلى أن قال : قلت : فأخبرني يا بن رسول الله عن تأويل ﴿كهيعص﴾ . قال : هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا عليها ، ثم قصها على محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ وذلك أن زكريا ـ عليه

السلام ـ سأل ربّه أن يعلمه الأسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبرئيل ـ عليه السلام ـ فعلمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعليّاً ، وفاطمة والحسن سرى عنه همه ، وانجلى كربه ، وإذا ذكر الحسين ـ عليه السلام ـ خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة ، فقال ذات يوم : إلٰهي ما بالي إذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي ؟! فأنبأه ـ تبارك وتعالى ـ عن قصته فقال ﴿**كهيعص**﴾ فالكاف إسم كربلاء ، والهاء هلاك العترة ، والياء يزيد ـ لعنه الله ـ وهو ظالم الحسين والعين عطشه والصاد صبره ، فلما سمع بذلك زكريا ـ عليه السلام ـ لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه ، وأقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته : (إلهي أتفجع خير خلقك بولده ، أتنزل بلوىٰ هذه الرزية بفنائه إلهي أتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة ؟ إلهي أتحل كربة هذه الفجيعة بساحتها ؟ ثم كان يقول : إلٰهي ارزقني ولداً تقر به عيني عند الكبر ، واجعله وارثاً وصيّاً واجعل محله من محل الحسين ـ عليه السلام ـ فإذا رزقتنيه فأفتني بحبه ، ثم أفجعني كما تفجع محمداً حبيبك بولده ، فرزقه الله يحيىٰ وفجعه به ، وكان حمل يحيىٰ ـ عليه السلام ـ ستة أشهر ، وحمل الحسين ـ عليه السلام ـ كذلك .

أما ﴿**طه**﴾ فإنه إسم مركب تركيب إسناد من فعل وفاعل ومفعول (طأ) فعل أمر فاعله ضمير مستتر ، والهاء مفعول به .

وقد ورد عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ قال يا كلبي . كم لمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ من إسم في القرآن ؟ فقلت : إسمان أو ثلاثة ، فقال يا كلبي له عشرة أسماء : ﴿**وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل**﴾[٤٥] ، وقوله : ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي**

(٤٥) سورة آل عمران ، آية : ١٤٤ .

إسمه أحمد﴾[٤٦] ، و ﴿لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾[٤٧] ، و ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ﴾[٤٨] ، و ﴿يٓس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم﴾[٤٩] ، و ﴿نون والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾[٥٠] ، و ﴿يا أيها المدثر﴾[٥١] ، و ﴿يا أيها المزمل﴾[٥٢] ، وقوله : ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾[٥٣] . قال الذكر إسم من أسماء محمد ، ونحن أهل الذكر ، فاسأل يا كلبي عمّا بدا لك ، فقال نسيت والله القرآن كله فما حفظت منه حرفاً أسأله عنك .

وفي البرهان بحذف الإسناد عن سفيان بن سعيد الثوري ، قال : قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ يا بن رسول الله ما معنىٰ قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿طه﴾ ؟ قال : طه إسم من أسماء النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ ؟ بل لتسعد به .

أما عن ﴿يس﴾ فإن ذلك إسم أيضاً من أسماء الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ العشرة التي نص عليها الحديث السابق . وذكر الطبرسي في الإحتجاج عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقد سأله بعض الزنادقة عن آي

---

(٤٦) سورة الصف ، آية : ٦ .
(٤٧) سورة الجن ، آية : ١٩ .
(٤٨) سورة طٓه ، آية : ٢ .
(٤٩) سورة يٓس ، آية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٥٠) سورة نون ، آية : ١ ، ٢ .
(٥١) سورة المدثر ، آية : ١ .
(٥٢) سورة المزمل ، آية : ١ .
(٥٣) سورة الطلاق ، آية : ١٠ .

من القرآن ، فكان فيما قال منه ـ عليه السلام ـ قوله : ﴿يٰسٓ ، **والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين**﴾ فسمىٰ الله النبي بهذا الإسم حيث قال : ﴿**يٰس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين**﴾ .

وذكر الشيخ في مجالسه بإسناده قال : قال أبو عبدالله : علّموا أولادكم (يٰس) فإنها ريحانة القرآن .

وذكر السيد البحراني في البرهان نقلاً من خواص القرآن روي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أنه قال : من قرأ هذه السورة يريد بها الله عزّ وجلّ غفر الله له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن إثنتي عشر مرة ، وأيما مريض قرأت عليه عند موته نزل عليه بعدد كل آية عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً ، ويستغفرون له ، ويشهدون موته ، ويتعنون جنازته ، ويصلون عليه ، ويشهدون دفنه ، وإن قرأها المريض عند موته لم يقبض ملك الموت روحه حتى يؤتىٰ بشراب من الجنة ويشربها وهو على فراشه ويقبض ملك الموت روحه ، فيدخل قبره وهو ريان ويبعث وهو ريان ويدخل الجنة وهو ريان ومن كتبها وعلقها عليه كانت حرزة من كل آفة ومرض .

ومما تقدم من الروايات التي دلت على عظمة هذه الأسماء وفضلها عند الله يظهر لك مدىٰ القسم العظيم فيها والذي أقسم به الحسين ـ عليه السلام ـ في ذلك الموقف ـ . على أن هذه الأسماء ليست مجرد حروف منمقة ، أو أشكال منسقة ولكنها أسماء وردت في القرآن في مستهل سورها ، وهي إما أسماء لها أو أسماء لغيرها ، أو هي رموز من علم الغيب التي أطلع الله عليها نبيه كما سبق الإشارة إلى ذلك مراراً في الأبحاث السابقة من الكتاب .

قال عليه السلام :

[أَنْتَ كَهْفِي حينَ تُعْيِيني الْمَذَاهِبُ في سَعَتِهَا ، وَتَضيقُ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَلَوْلاَ رَحْمَتُكَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَفْضُوحِينَ ، وَأَنْتَ مُؤَيِّدي بِالنَّصْرِ عَلَىٰ الأَعْداءِ ، وَلَوْلاَ نَصْرُكَ لِي لَكُنْتُ مِنَ الْمَغْلُوبينَ] .

اللُّغَة

كهفي : الكهف كالمغارة في الجبل إلاّ أنه أوسع منها ، فإذا صغر فهو غار ، وفي الصحاح : الكهف كالبيت المنقور في الجبل ، وجمعه كهوف . ويقال : فلان كهف فلان ، أي ملجأ ، ويقال : فلان كهف أهل الريب إذا كانوا يلوذون به فيكون ملجأ لهم ، وفي التنزيل قال تعالى : ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقم كانوا من آياتنا عجباً . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً**﴾[1] .

(١) سورة الكهف ، آية : ٩ ، ١٠ .

تعييني : عيّ بالأمر عياً واستعيا عجز عنه ولم يطق إحكامه ، وقد أعياه الأمر ، وهو متعدي ، وأما قول أبي ذؤيب : وما ضرب بيضاء يأوي مليكها إلى طنف أعيا براق ونازل فإنما عدى (أعيا) بالباء ؛ لأنه في معنى برح . وأعيا الماشي كلَّ ، وأعيا السيد البعير ونحوه أكلّه . وعى في المنطق عيّاً حصر . والداء العياء الذي لا دواء له ، ويقال : الداء العياء الحمق . وقال الجوهري : داء عياء أي صعب لا دواء له كأنه أعيا على الأطباء .

وقال النابغة الذبياني :

عيت جواباً وما بالربع من أحد

رحبت : الرحب بالضم السعة ، وأرحب اتسع ، ورجل رحب الصدر واسعة ، والرحيب الشيء الواسع . وجاء في التنزيل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وضاقت عليهم الأرض بما رحبت**﴾[٢] أي على رحبها وسعتها ، وأرض رحيبة واسعة . وقولهم في تحية الوارد : أهلاً ومرحباً ، أي صادفت أهلاً ومرحباً أو أتيت أهلاً وأتيت سعة ، فاستأنس ، ولا تستوحش . وسئل الخليل عن نصب (مرحباً) فقال : فيه كمين الفعل . أراد به إنزل أو أقم .

المفضوحين : إفتضح الرجل يفتضح إفتضاحاً إذا ركب أمراً سيئاً فاشتهر به . ويقال للنائم وقت الصباح : فضحك الصبح فقم ، ويقال أيضاً : **فصحك** الصبح بالصاد المهملة ومعناهما متقارب ، وفضح الشيء فافتضح إذا إنكشفت مساويه . وفضح القمر النجوم غلب ضوءه ضوءها فلم يتبين . والأفضح الأبيض وليس بشديد البياض قال ابن مقبل :

---

(٢) سورة التوبة ، آية : ٢٥ .

فأضحىٰ له جلب بأكناف شرمة أجش سماكي من الوبل أفضح

مؤيدي : أيدته أي قويته ، والتأييد مصدر ، قال الله تعالى : ﴿**إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً**﴾[3] والأيد بتسكين الياء القوة . قال تعالى : ﴿**واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب**﴾[4] أي ذا القوة . وقال تعالى : ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون**﴾[5] ورجل أيّد بالتشديد أي قوي . قال الشاعر :

إذا القوس واترها أيّد رمىٰ فأصاب الكلىٰ والذرا

وقد قالوا : إن قولهم : أيده الله مشتق من ذلك ، أي قوّاه الله .

البيان

في هذا النص الماثل بين أيدينا إستعارة . والإستعارة ـ كما قال البلاغيون ـ هي إستعمال اللفظ في غير ما وضع له ؛ لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه ، والمعنىٰ المستعمل فيه ، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنىٰ الأصلي ، فهي تشبيه مختصر ولكنها أبلغ منه ولها أركان ثلاثة : مستعار منه ، ومستعار له ، ومستعار .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (أنت كهفي حين تعينيي المذاهب في سعتها) تظهر فيه هذه الإستعارة . فالكهف بحسب ما ورد في اللغة لا يسمىٰ بذلك إلّا إذا كان في داخل الجبل ، والجبل هو أقوىٰ الثوابت على وجه الأرض . قال تعالى : ﴿**والجبال أرساها**﴾[6] فقد ذكر المفسرون أن

---

(٣) سورة البقرة ، آية : ٨٧ .

(٤) سورة ص ، آية : ١٧ .

(٥) سورة الذاريات ، آية : ٤٧ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ٣٢ .

معنىٰ ذلك أثبت الجبال في الأرض ، والإرساء الإثبات بالثقل ، فالسفينة ترسو أي تثبت بثقلها ، فلا تزول عن مكانها ، وربما أرست بالبحر بما يطرح لها . فأما الجبال فإنها أوتاد الأرض وأرسيت بثقلها ، وفي جعلها على الصفة التي هي عليها أعظم العبرة .

وهنا يظهر لنا السر في كلمة (الكهف) الذي يلجأ إليه الإنسان في حالة الخوف ؛ لأنه حصن حصين يحميه جبل أصم تتحطم عليه كل محاولات الإنسان إذا ما أراد بصاحب الكهف شراً . فاستعارة كلمة (الكهف) جاءت في محلها من حيث البلاغة ومن حيث الإستعمال طبقاً للمعنىٰ .

فالله ـ سبحانه ـ كهف حصين يلجأ إليه الإنسان عندما يحس بالخطر الداهم (وتعييه) المذاهب ويعجز عن كيفية التصرف للخروج من المأزق والتخلص من الحرج .

ولمّا كان الكهف بهذه المنزلة من القوة والحصانة فقد لجأ إليه الفتية الذين آمنوا بربّهم وزادهم هدىً ـ كما هو صريح القرآن الذي أسهب في قصة فرارهم من ملكهم الكافر (دقيانوس) ـ وملخص هذه القصة التي أطال في عرضها القرآن الكريم مأخوذة من جملة من التفاسير هو كما يلي :

قصة أصحاب الكهف في القرآن

قال تعالى : ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾[7] وقال تعالى مخاطباً لنبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ : ﴿**فلا تمار فيهم إلّا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً**﴾[8] كان أصحاب الكهف والرقيم فتية نشأوا في مجتمع مشرك لا يرىٰ إلّا عبادة الأوثان فتسرب في المجتمع دين التوحيد ، فآمن بالله قوم منهم فأنكروا عليهم ذلك وقابلوهم بالتشديد والتضييق والفتنة والعذاب ، وأجبروهم على عبادة الأوثان ورفض دين التوحيد ، فمن عاد إلى ملتهم تركوه ومن أصرّ علىٰ المخالفة قتلوه شر قتلة . وكانت الفتية ممن آمن بالله إيماناً على بصيرة ، فزادهم الله هدىً على هداهم وأفاض عليهم المعرفة والحكمة ، وكشف بما آتاهم من النور عما يهمهم من الأمر ، وربط على قلوبهم فلم يخشوا إلّا الله ولا أوحشهم ما يستقبلهم من الحوادث والمكاره ، فعلموا أنهم لو أداموا المكث في مجتمعهم الجاهل المتحكم لم يسعهم دون أن يسيروا بسيرتهم فلا يتفوهوا

---

(٧) سورة الكهف ، آية : ٩ .

(٨) سورة الكهف ، آية : ٢٢ .

بكلمة الحق ، ولا يتشرعوا شريعة الحق ، وعلموا أن سبيلهم أن يقوموا على التوحيد ورفض الشرك ثم إعتزال القوم وعلموا أن لو اعتزلوهم ودخلوا الكهف أنجاهم الله من البلاء .

فقاموا وقالوا رداً على القوم في إقتراحهم وتحكمهم : **﴿ربّنا ربّ السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن إفترىٰ علىٰ الله كذباً﴾**[٩] .

ثم قالوا : **﴿وإذ إعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾**[١٠] .

ثم دخلوا الكهف واستقروا على فجوة منه ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، فدعوا ربّهم بما تفرسوا من قبل أنه سيفعل بهم ذلك . فقالوا : **﴿ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾**[١١] فضرب الله على آذانهم في الكهف سنين ولبثوا في كهفهم وكلبهم معهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، وترىٰ الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وذات الشمال وهم في فجوة منه وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ويقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط يديه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً .

ثم إن الله بعثهم بعد هذا الدهر الطويل وهو ثلاثمائة وتسع سنين من يوم دخلوا الكهف ليريهم يوم نجاهم من قومهم فاستيقظوا جميعاً ووجدوا أن

---

(٩) سورة الكهف ، آية : ١٤ ـ ١٥ .

(١٠) سورة الكهف ، آية : ١٦ .

(١١) سورة الكهف ، آية : ١٠ .

الشمس تغير موقعها وفيهم شيء من لوثة نومهم الثقيل قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قال قوم منهم لبثنا يوماً أو بعض يوم لما وجدوا من تغير موقع الشعاع وترددوا هل مرت عليهم ليلة أو لا ؟ وقال آخرون منهم : بل ربّكم أعلم بما لبثتم ثم قال فابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكىٰ طعاماً فليأتكم برزق منه فإنكم جياع وليتلطف الذاهب منكم إلى المدينة في المسيرة إليها وشرائه الطعام ولا يشعرن بكم أحداً إنهم إن علموا بمكانكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفحلوا إذاً أبداً .

وهنا أراد أن يعثر الله ـ سبحانه ـ الناس عليهم ، فإن القوم الذين إعتزلوهم وفارقوهم يوم دخلوا الكهف قد انقرضوا ، وذهب الله بهم وبملكهم وملتهم ، وجاء بقوم آخرين الغلبة فيهم لأهل التوحيد والسلطان ، وقد اختلفوا ـ أعني أهل التوحيد وغيرهم ـ في أمر المعاد . فأراد الله ـ سبحانه ـ أن يظهر لهم آية في ذلك فأعثرهم على أصحاب الكهف .

فخرج المبعوث من الفتية وأتىٰ المدينة ، وهو يظن أنها التي فارقها البارحة ، لكنه وجد المدينة قد تغيرت بما لا يعهد مثله في يوم ولا في عمر ، والناس غير الناس ، والأحوال والأوضاع غير ما كان يشاهد بالأمس فلم يزل على حيرة من الأمر حتىٰ أراد أن يشتري طعاماً بما عنده من الورق وهي يومئذٍ من الورق الرائجة قبل ثلاثة قرون فأخذت المشاجرة فيها ولم تنته دون أن كشفت عن أمر عجيب ، وهو أن الفتىٰ ممن كانوا يعيشون هناك قبل ذلك بثلاثة قرون وهو أحد الفتية كانوا في مجتمع مشرك ظالم فهجروا الوطن واعتزلوا الناس صوناً لإيمانهم ودخلوا الكهف فآماتهم الله هذا الدهر الطويل ثم بعثهم ، وها هم الآن في الكهف في انتظار هذا الذي بعثوه إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً يتغذون به .

فشاع الخبر في المدينة لساعته واجتمع جمع غفير من أهلها فساروا

إلى الكهف ومعهم الفتىٰ المبعوث من أصحاب الكهف فشاهدوا ما فيه تصديق الفتىٰ فيما أخبرهم من نبأ رفقته وظهرت لهم الآية الإلٰهية في أمر المعاد .

ولم يلبث أصحاب الكهف بعد بعثهم كثيراً دون أن توفاهم الله ـ سبحانه ـ وعند ذلك إختلف المجتمعون على باب الكهف من أهل المدينة ثانية فقال المشركون منهم ابنوا عليهم بنياناً ربّهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم وهم الموحدون لنتخذن عليهم مسجداً .

وحول هذه القصة تثار الكثير من علامات الإستفهام والتعجب ويقع الخلاف بين المسلمين وغيرهم في موقع هذا الكهف .

فقد عثر على كثير في مختلف بقاع الأرض من الكهف ، وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، ومعهم كلب وفي بعضها بين أيديهم قربان يقربونه ، ويقرب من الظن أن هذه النقوش والتماثيل إشارة إلى قصة الفتية ، وانها انتشرت وذاعت بعد وقوعها في الأقطار فكان يتذكرها الرهبان والمتجردون للعبادة في هذه الكهوف .

وأما الكهف الذي إلتجأ إليه واستخفىٰ فيه أهل الكهف وجرىٰ عليهم ما جرىٰ فالناس فيه في اختلاف وقد ادعي ذلك في عدة مواضع .

الكهف الأول : كهف أفسوس وهذه مدينة خربة أثرية واقعة في تركيا وهو كهف وسيع فيه مئات من القبور مبنية من الطوب . وهذا الكهف إذا تأمله المتأمل لا ينطبق عليه ما في الكتاب العزيز من المشخصات ولا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

الكهف الثاني : كهف رجيب وهذا الكهف واقع على مسافة ثمانية كيلومترات من العاصمة الأردنية عمّان بالقرب من قرية تسمىٰ رجيب وعلى

الجدران نقوش وخطوط باليوناني القديم وصورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزويقات أخرىٰ . وبعد الكشف عنه والحفر والتنقيب فيه ظهر بعد خفائه قروناً وقامت عدة من الأمارات والشواهد الأثرية على كونه كهف أصحاب الكهف المذكورين في القرآن .

والكهف الثالث : كهف بجبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب إلى أصحاب الكهف .

والكهف الرابع : كهف بالبتراء ببلاد فلسطين ينسبونه إلى أصحاب الكهف . وهناك كهوف أخرىٰ ذكرتها المصادر التاريخية الإسلامية وغير الإسلامية ولكنها لا تمت إلى الحقيقة بصلة .

ومما تقدم ندرك ضرورة إستعمال كلمة الكهف في النص الماثل وذلك لأنه ـ عليه السلام ـ عندما قال : (أنت كهفي) يعني : أعيش في كنفك وحمايتك ، فلا أتأثر بما حولي كما أن الكهف الواقع في الجبل لا يتأثر من يلجأ إليه بالمؤثرات الخارجية كالأمطار والرياح والعواصف وغيرها ؛ لأنه في جبل .

وربما يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمة أنه يلجأ إلى قوة قاهرة جبّارة لا تغلب ، فإذا لجأ إليها فإنه في أمان من الغلب والإعتداء ـ كما يشير إلى ذلك سياق كلامه ـ عليه السلام ـ في ذيل هذه الفقرة ـ وربما ورد على الخاطر أنه باستعمال هذه الكلمة يلجأ إلى قوة لا تتأثر ، كما أن الكهف لا يتأثر لأنه في الجبل . وهناك بعض الخفايا التي ربما تطفح وتظهر أمام الذهن الحاذق . .

وهذا اللجوء لا يكون عادة إلّا عند الضرورة ، عندما تنسدّ المنافذ أمام الإنسان ويتعذر الإلتجاء إلى أحد إلّا إلى الله عندما يخذل الصديق ،

وتقل الحيلة ـ كما ورد ذلك في دعاء آخر له ـ عليه السلام ـ في يوم كربلاء وهو قوله : (أللهم أنت ثقتي في كل كرب ؛ ورجائي في كل شدّة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعـدة ، كم من كرب يضعف منـه الفؤاد !؟ وتقل فيـه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني فيه إليك عمّن سواك ، ففرّجته وكشفته وكفيتـه ، فأنت ولي كـل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهىٰ كل رغبة) .

أما (المذاهب) التي وردت في هذا النص فالمقصود بها الطرق التي يسلكها الإنسان للنجاة من الخطر الذي يحدق بـه من كل مكـان ، فكأنـه يقول : إن سعة هذه المذاهب وهي سعة الأرض قد تضيق على الإنسان ، وذلـك بجوره وإسـرافه على نفسـه وبفعل أنـانيته التي تـرديـه في مهـاوي الردىٰ ، وينقلب السحر على الساحر فلا يبقىٰ أمام الإنسان والحال هذه إلاّ الإلتجاء إلى الله ، ويواصل هذا المعنىٰ بقوله : (وتضيق عليّ الأرض بما رحبت) فـإن الأرض هي الأرض لا تـزيـد ولا تنقص ، ولا تتمـدد فكيف تضيق الأرض على الإنسان بما رحبت وهي جامـدة ؟ .

يترائىٰ ذلك للإنسان عندما يلم به الخطب المهول ، ويعجز عن حل مشكلة تدهمه سواءً كانت بصورة مفاجئة أو غير ذلـك ، وتتعقد الأمـور ، ويقف عقله حائراً لا يدري من أين يبدأ في حلّ هذه المشكلة التي أطاشت عقله وأذهبته .

وفي معنىٰ قـولـه تعـالى : **﴿وضـاقت عليكم بمـا رحبت ثم وليتم مدبرين﴾**[١٢] وقوله تعـالى : **﴿حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرض بمـا رحبت**

---

(١٢) سورة التوبة ، آية : ٢٥ .

وضاقت عليهم أنفسهم﴾[١٣] قال البيضاوي برحبها أي بسعتها ، لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ، أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه .

وقال الشيخ في التبيان ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ معناه ليس فيها موضع يصلح لكم لفراركم من عدوكم ، والضيق مقدار ناقص عن مقدار . والرحب السعة في المكان ، وقد يكون في الرزق والسعة في النفقة ، ولكن ليس المقصود في الآية ذلك . وقد نزلت هذه الآية في يوم حنين ، وذلك لمّا انهزم المسلمون ولم يبق مع النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إلّا تسعة نفر من بني هاشم ، أيمن بن أم أيمن ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب في آخرين ، فأخذ النبي كفاً من الحصباء فرماهم به وقال : شاهت الوجوه . فانهزم المشركون .

وقال في التبيان في تفسير الآية الثانية : ﴿حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ الضيق ضد السعة ، ومنه ضيق الصدر خلاف إتساعة بالهم الذي يحدث فيه فيشغله عن غيره . ومعنىٰ ﴿بما رحبت﴾ أي بما اتسعت ، ومنه مرحباً وأهلاً أي رحبت بلادك وأهلت . وضيق أنفسهم هاهنابمعنى ضيق صدروهم بالهم الذي حصل فيها .

---

(١٣) سورة التوبة ، آية : ١١٨ .

الرحمة

(ولولا رحمتك لكنت من المفضوحين) الفضيحة هو الإشتهار بعمل السوء ، ومعنىٰ قوله هذا : هو أنه لولا رحمته التي أنـزلته هـذه المنزلـة ، فقربته من الطاعة وأبعدته عن المعصية ، ورفعته إلى درجة العصمة ، لولا ذلك كله لكان من المفضوحين .

فالإنسان بدونها ، ونعني بذلك العصمة بمفهومها العام وهـو سيطرة العقل على النفس وشهواتها ، معرض للكبائر والصغـائر . فـالنفس الأمارة بالسوء تطلب المزيد من الرغبات المحللة والمحرمة . غير أن العصمة تبعد الإنسان عن كل ذلك فهو لا يعصي ولا يهم بالمعصية ، بل ولا تحدثه نفسه بها ؛ لأن العقل إذا كان كبيراً سيطر على كل تصرفات الإنسان .

ومما ينقل عن أعداء سقراط الحكيم أنهم عرضوا له صورته منحوتة ، وسألوه عن طبائع صاحبها ، فقال : إنه رجل يحب الزنا ، فضحكوا من قوله هذا فسألهم عن السبب ، فقالوا إن هذه صورتك وقد أقررت على نفسك . فقال نعم إني أحب ذلك ولكني أمنع نفسي .

ثم إن الرحمة بهذا الإعتبار الذي ذكره النص الماثل أمامنا هي عبارة عن التكريم الذي منحه الله إياه ، على انـه ابن رسول الله ، وسيـد شباب

أهل الجنة وخامس أصحاب الكساء ، والإمام المعصوم ، وغير ذلك من الصفات التي يستحيل وجودها في غيره فلولا ذلك لكان من سائر الناس الذين يخطئون ويصيبون والرحمة أيضاً عندما يتصف بها ـ سبحانه ـ باعتبارات مختلفة عن سائر المخلوقات فإن العرض الذي بسطه القرآن الكريم في مطاوي الآيات يشير إلى تفاوت كبير بين الرحمة التي يتصف بها هو ـ سبحانه ـ وبين الرحمة التي يتصف بها سائر مخلوقاته وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿**قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾[١٤] فقد ذهب المفسرون في الكلام عن هذه الآية الكريمة أن هناك رحمة إلٰهية عامة يتنعم بها المؤمن والكافر والبر والفاجر وذو الشعور وغير ذي الشعور فيوجدون بها ويرزقون بها في أول وجودهم ثم في مسيرة الوجود ما داموا سالكين طريق الوجود ، ورحمة إلٰهية خاصة وهي العطية الهنئية التي يجود بها الله ـ سبحانه ـ في مقابل الإيمان والعبودية ، وتختص لا محالة بالمؤمنين الصالحين من عباده من حياة طيبة نورانية في الدنيا وجنة ورضوان في الآخرة ، ولا نصيب فيها للكافرين والمجرمين ، ويقابل الرحمة الخاصة عذاب ، وهو اللاّ ملائم الذي يصيب الكافرين والمجرمين وجرمهم في الدنيا كعذاب الإستئصال والمعيشة الضنك وفي الآخرة في النار وآلآمها ، ولا يقابل الرحمة العامة شيء من العذاب ، إذ كل ما يصدق عليه إسم شيء فهو من مصاديق الرحمة العامّة لنفسه أو لغيره ، وكونه رحمة هي المقصودة في الرحمة وليس وراء الشيء شيء .

وقد اتضح أن سعة الرحمة ليست سعة شأنية . وأما قوله في ذيل

---

(١٤) سورة الأعراف ، آية : ١٥٦ .

الآية : ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[١٥] تفريع على ما تقدم ، أي لازم وجوب إصابة العذاب بعض الناس ، أن أوجب الرحمة على البعض الباقي ، وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة .

وقد ذكر الذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامة وهي التقوىٰ وإيتاء الزكاة والإيمان بآيات الله من غير أن يقيدهم بأن يخص قوماً ما .

وفي ما ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ في خصوص الرحمة قول فصل وليس بالهزل ، فقد ورد عن أمير المؤمنين قوله يا أصبغ لئن ثبتت وتمت ولايتك وانبسطت يدك فالله أرحم بك من نفسك[١٦] . وقال : ما ظنك بالرؤوف الرحيم الذي يتودد إلى من يؤذيه بأوليائه ، فكيف بمن يؤذىٰ فيه ، وما ظنك بالتواب الرحيم الذي يتوب على من يعاديه ، فكيف بمن يترضاه ويختار عداوة الخلق فيه[١٧] .

وجاء عن الإمام علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ : (إن الحسن البصري قال : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، وإنما العجب ممن نجىٰ كيف نجىٰ !) فقال ـ عليه السلام ـ : (أنا أقول ليس العجب ممن نجىٰ كيف نجىٰ ، وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله !)[١٨] . وجاء عنهم أيضاً إن الله تعالى خلق مائة رحمة ، فرحمة بين خلقه يتراحمون بها وأدّخر لأوليائه تسعة وتسعين وجاء عنهم أيضاً لا يهلك

---

(١٥) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

(١٦) البحار : ج٤٢ ص١٤٦ .

(١٧) البحار : ج٤٢ ص١٤٦ .

(١٨) البحار : ج٧٨ ص١٥٣ .

مؤمن بين ثلاث خصال : شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وشفاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وسعة رحمة الله ـ عزّ وجلّ ـ[١٩] .

وجاء في الدعاء : (يا من هو أبرّ بي من الوالد الشفيق ، وأقرب إلي من الصاحب اللزيق ، أنت موضع أنسي في الخلوة إذا أوحشني المكان ولفظتني الأوطان)وفي الكتاب العزيز وردت آيات تعرضت للرحمة لا مزيد عليها منها قوله تعالى : **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾**[٢٠] ومنها قوله تعالى : **﴿ربّنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾**[٢١] وقوله تعالى : **﴿فقل ربّكم ذو رحمة واسعة﴾**[٢٢] وقوله سبحانه : **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾**[٢٣] وبكلمة أخيرة إن رحمته ـ تبارك وتعالى ـ التي وسعت كل شيء وكما سبق الإشارة إلى ذلك أنها منشورة على الخلائق في الدنيا والآخرة .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (وأنت مؤيدي بالنصر على الأعداء ، ولولا نصرك لي لكنت من المغلوبين) التأييد بالنصر على الأعداء هو الغلبة ، وإذا تأملنا هذه الكلمة (مؤيدي بالنصر) فهي ليست مجرد قصد النصر ، لأن النصر قد يكون من غير تأييد كانتصار الكافر على المسلم كما حدث ذلك في بعض المواقع من الحروب في صدر الإسلام ، فهذا وإن كان نصراً إلّا أنه غير مؤيد من الله ، لأن العدو الكافر غير مؤيد ، فتأييده

---

(١٩) البحار : ج٩٤ ص١٥٧ .
(٢٠) سورة الأعراف ، آية : ٥٦ .
(٢١) سورة غافر ، آية : ٧ .
(٢٢) سورة الأنعام ، آية : ١٤٧ .
(٢٣) سورة الروم ، آية : ٥٠ .

منتفٍ من رأس ، ولكن التأييد بالنصر من الله هو للإنسان الذي يسعىٰ في مرضاة الله ، فيؤيده الله بالنصر لأنه مرتبط به ، متقرب إليه في سعيه .

والنصر في عقيدة الإنسان المسلم لا يكون إلّا بسبب من الله ولولاه لكان من المغلوبين . وقد مرّ في الأبحاث الماضية من الكتاب أن الله لو أوكل الإنسان إلى نفسه طرفة عين لكان من الهالكين .

والمراد من النصر في هذا النص هو الجنس ؛ لأنه ينطبق على كل إنسان أراد له النصر . وليس هذا كما أشارت إليه الآية الشريفة في قوله تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾[٢٤] فإنه ليس المراد بالنصر هنا الجنس حتىٰ يصدق على جميع المواقف التي أيّد الله فيها نبيه على أعدائه ، وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه ، وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قيل ، إذ لا يلائمه قوله بعد : ﴿**ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً**﴾[٢٥] لعدم إنطباق الآية الثانية بمضمونها عليه .

أذاً فالنصر المشار إليه في كلامه ـ سلام عليه ـ هو كما ذكرنا ، ويؤيده قوله ـ عليه السلام ـ : (ولولا نصرك لي لكنت من المغلوبين) .

وذلك على إعتبار أنه واحد من الناس المحتاجين إلى الله والمفتقرين إلى رحمته . وربما يلتمس تخصيص في هذه العبارة من بعد ؛ وذلك بالنظر إلى اعترافه بالنعم وتعددها ـ كما هو وارد في مثل ذلك الموقف .

---

(٢٤) و (٢٥) سورة النصر، آية : ١و٢ .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِالسُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ ، فَأَوْلِيٰاؤُه بِعِزِّهِ يَعْتَزُّونَ ، يٰا مَنْ جَعَلَتْ لَهُ الْمُلوُكُ نَيْرَ الْمَذَلَّةِ عَلىٰ اَعْنٰاقِهِمْ فَهُمْ مِنْ سَطَوٰاتِهِ خٰائِفُونَ ، يَعْلَمُ خٰائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمٰا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَغَيْبَ مٰا تَأتي بِهِ الأَزْمَانُ وَالدُّهُورُ] .

اللُّغَةُ

بالسمو : السمو الإرتفاع والعلو وتقول منه : سموت وسميت مثل علوت وعليت ، وسلوت وسليت ، وسما به وأسماه أعلاه ، وسما بصره علا ، وقال أبو عمرو : المساماة المفاخرة ، وسماء كل شيء أعلاه (مذكر) . والسماء سقف كل شيء وكل بيت ، قال تعالى : **﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾**[1] وقال الزجاج : السماء في اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا ، وكل سقف فهو سماء ، والسماء كل ما علاك فأظلك ، قال ابن بري :

فلو رفع السماء إليه قوماً   لحقنا بالسماء مع السحاب

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٣٢ .

نير : النير العلم ، وفي الصحاح علم الثوب ولحمته أيضاً ويقال : نرت الثوب وأنرته ونيرته إذا جعلت لـه علماً . وثـوب منيّر منسـوج على نيرين ، ونير الثوب هدبه ، قال أمرؤ القيس :

فقمت بهـا نمشي تجـر وراءنـا على أثرينا نيانيـر مـرط مـرجـل

ويقال للرجل : ما أنت سداة ولا لحمة ولا نيرة ، يضرب لمن لا يضر ولا ينفع . ويقال للخشبة المعترضة على عنق الثورين المقروبين للحراثـة نير ، وهو نير الفدّان ويقال للحرب الشديدة ذات نيرين ونائرة .

خائنة : خائنة الأعين ما تسارق من النظر إلى ما لا يحل وفي التنزيل العزيز : **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**[٢] ، قال بعضهم : هو أن ينظر نظرة مريبة وقيل : أراد يعلم خيانـة الأعين وسوف يـأتي تفسيرهـا والكلام في معناها في (البيان) .

ورجل خائن وخائنة أيضاً ، والهاء للمبالغة مثل علاّمـة ونسّابـة وفي الحديث نهي الرجـل أن يطرق أهله ليـلاً لئلا يتخـونهم ، يطلب خيـانتهم وعثراتهم ويتهمهم . وخانـه الدهـر غيّرْ حـاله من اللين إلى الشـدّة ، قال الأعشىٰ :

وخـان الـزمـان أبـا مـالـك وأي أمـرء لـم يخنـه الـزمن ؟

والخائنة بمعنىٰ الخيـانة ، وهي من المصـادر التي جاءت على لفظ الفاعلة ، كالعاقبة . ويقال للأسد خائن العين من ذلك ، وبه سمي خواناً .

غيب : كل ما غاب عنك ، قال تعالى : **﴿يؤمنـون بالغيب﴾**[٣] أي

---

(٢) سورة غافر ، آية : ١٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٣ .

يؤمنون بما غاب عنهم فما أخبرهم به النبي من أمر البعث والجنة والنار والموت ، والغيب أيضاً ما غاب عن العيون ، وإن كان محصلاً في القلوب . ويقال : سمعت صوتاً من وراء الغيب أي من موضع لا أراه ، وكل مكان لا يدرىٰ ما فيه فهو غيب ، وجمعه غيوب قال تعالى : **﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علّام الغيوب﴾**(٤) وقال تعالى : **﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك علّام الغيوب﴾**(٥) . وقال أبو ذؤيب :

يرمي الغيوب بعينيه ومطرفه ... مغضٍ كما كشف المتسأخذ الرمد

الأزمان : الأزمان والأزمن والأزمنة جمع الزمن أو الزمان ، وأزمن الشيء طال عليه الزمان ، والزمن ذو الزمانة وهي آفة في الحيوانات ورجل زمن أي ممتلىء بين الزمانة ، والزمانة العاهة . وقالوا : إن الزمان بمعنىٰ الحب واستشهدوا على ذلك ببيت ابن علبة :

ولكن عرتني من هواك زمانة ... كما كنت ألقىٰ منك إذ أنا مطلق

وفي ذلك وهم واضح وخطأ فاضح كما يلوح من المعنىٰ في أفق البيت وفي الحديث : (إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب) . قال ابن الأثير أراد إستواء الليل والنهار واعتدالهما .

الدهور : جمع الدهر والدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلها وقال أبو الهيثم يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع وفي أقوال العرب : أقمنا بموضع كذا وعلى ماء كذا دهراً وقيل الدهر ألف سنة . ومنهم من فرّق بين الزمان والدهر ومنهم من جعلهما بمعنىٰ واحد قال شاعرهم :

---

(٤) سورة المائدة ، آية : ١٠٩ .

(٥) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .

إن دهـراً يـلف حبـلي بـحبـل لـزمـان يـهـم بـالإحـسـان

البيان

في هذهِ الفقرة بدأ ـ عليه السلام ـ بذكر بعض الصفات التي يختص بها ذو الجلال سبحانه .

والصفات عندما تتعلق بالذوات إما أن تكـون ملازمـة لا تنفك عنهـا كالطول والقصر ، والسواد والبياض ، وأما غير ملازمة كالغضب والـرضا ، والفـرح والحزن ، فـإنها تـزول بزوال أسبـابها . هـذا بـالنسبـة لـلإنسـان المخلوق . أمـا بالنسبـة إلى الخالق فـإن صفاتـه عين ذاتـه ولكن صفـاتـه ـ سبحانه ـ تتميز دون الصفات ، كما أن ذاته غير الذوات ؛ لأنها لا تدرك بالحواس ولكنها تعرف بالآثار ، فالطول والقصـر يعرفـان في الإنسان بـأنه يدرك بالحواس ، وأما الخالق فإنه ـ سبحانـه ـ لم يكن متحيزاً لـذلك فـإن هاتين الصفتين منتفيتان في حقه وكل مـا شابههمـا ، إلاّ أن بعض صفاتـه الأخرىٰ قد تزول وتعود كالغضب والرحمة .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من خص نفسه بالسمو والرفعة فأولياؤه بعزه يعتزون) أما كونه ـ سبحانه ـ مختصاً بالسمو فإن ذلك معروف عند من يشاهد الآثار الظاهرة الدالة على عظمته وكبريـائه ومعنى ذلـك التعالي عن مسـاواة خلقه ، حتى في الصفـات المشتـركـة فـإنهـا تختلف بين الخـالق والمخلوق ، وفي قـول مـأثور بـأميـر المؤمنين ـ عليـه السـلام ـ في دعـاء الصباح : (يا من دلّ على ذاته بذاته ، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته ، وجلّ عن ملاءمة كيفياته) .

أما الرفعة التي وردت في هذا النص فإنها تـوجه بعـدة توجيهـات ، ونلتمس هـذه التوجيهـات من تفسير قـوله تعـالى : ﴿**رفيع الـدرجـات ذو**

العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾[٦] فقد ذكر المفسرون : أن معناه رفيع طبقات الثواب التي يعطيها الأنبياء والمؤمنين في الجنة ذكر ذلك الشيخ في التبيان .

وقال السيد الطباطبائي في الميزان : رافع السماوات السبع التي منها تصعد الملائكة إلى عرشه ، وقيل : رفيع مصاعد عرشه ، وقيل كناية عن رفعة شأنه وسلطانه .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : والذي يعطيه التدبر أن الآية وما بعدها يصفان ملكه ـ تعالى على خلقه أن له عرشاً تجتمع فيه أزمة أمور الخلق ، ويتنزل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه ، ولعلّها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته ، وأن أمره يتنزل بينهن ، وهي التي تحجب عرشه عن الناس .

ثم إن له يوماً هو يوم التلاق ، يرفع فيه الحجاب ما بينه وبين الناس يكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه وإظهار عرشه لهم ، فينكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء ، لا ملك إلاّ ملكه فيحكم بينهم .

فالمراد بالدرجات الدرجات التي ترتقىٰ منها إلى عرشه ، ويعود قوله : **﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾**[٧] إلى كناية استعارية عن تعالى عرش ملكه عن مستوىٰ الخلق وغيبته واحتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة ومراحل بعيدة .

---

(٦) سورة غافر ، آية : ١٥ .

(٧) سورة النساء ، آية : ١٣٩ .

وقال في كشف المراد : إن وجوب الوجود يدل على نفي الزائد ، ونفي الشريك ، ونفي المثل ، وهذا مذهب أكثر العقلاء ، وخالف فيه أبو هاشم ، فإنه جعل ذاته مساوية لغيره من الذوات ، وإن ما يخالفها بحالة توجب الأحوال الأربعة ، وهي الحيّة والعالمية والقادريّة والسجوديّة ، وتلك الحالة هي صفة الإلٰهية ، وهذا المذهب لا شك في بطلانه ، فإن الأشياء المتساوية تتشارك في لوازمها ، فلو كانت الذوات متساوية جاز إنقلاب القديم محدثاً ، وبالعكس ، وذلك باطل بالضرورة .

أما العز الذي ينسب إلى أولياء الله ـ كما ذكر عليه السلام : فإنه لا شك وارد كل الورود ، وذلك بعد معرفة أن العزة لله جميعاً ـ كما صرحت بذلك الآيات ـ في قوله تعالى : ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً**﴾[8] وقوله تعالى : ﴿**من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً**﴾[9] وقوله تعالى : ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾[10] وقوله سبحانه : ﴿**سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون**﴾[11] قال الراغب في المفردات : العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة قال تعالى : ﴿**أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً**﴾ .

فالصلابة هي الأصل في معنىٰ العزة ، ثم توسع فاستعمل العزيز في من يَقهر ولا يُقهر كقوله تعالى : ﴿**يا أيها العزيز مسنا**﴾[12] . والعزة بمعنى

---

(٨) سورة فاطر ، آية : ١٠ .

(٩) سورة المنافقون ، آية : ٨ .

(١٠) سورة الصافات ، آية : ١٨٠ .

(١١) سورة يوسف ، آية : ٨٨ .

(١٢) سورة ص ، آية : ٢٣ .

الغلبة ، قال تعالى : ﴿**وعزني في الخطاب**﴾[١٣] ، والعزة بمعنى القلة وصعوبة المنال ، قال تعالى : ﴿**وإنه لكتاب عزيز**﴾[١٤] ، وقال تعالى : ﴿**بل الذين كفروا في عزة ، وشقاق**﴾[١٥] إلى غير ذلك من الآيات التي تتعرض لمعان مختلفة تشير إليها القرائن الموجودة ضمن الكلام .

ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهراً غير مقهور ، وغالباً غير مغلوب تختص بحقيقة معناها بالله ـ عزّ وجلّ ـ إذ غيره تعالى ـ فقير في ذاته ، قليل في نفسه ، ولا يملك لنفسه شيئاً إلاّ أن يرحمه الله ، ويؤتيه شيئاً من العزة كما ذلك بالمؤمنين به ، قال تعالى : ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ .

ومما تقدم ندرك معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : ﴿**فأولياؤه بعزه يعتزون**﴾ فإن العز إذا كان من الله وهو صفة دائمة لا تزول عنه ولا تزول عنهم ، فإن من يواليه عزيز بعزته قوي بقوته . وقد قيل إن فاقد الشيء لا يعطيه ، فإن من ليس له عز لا يعطي العز لغيره ، ومن كان له عزّ يزول في يوم من الأيام فإنه لا ينبغي الإعتماد عليه ، فالعز الذي يعتز به أولياء الله عز باق ؛ لأن الله باق . وفي هذا المعنىٰ جرت بعض الأبيات التي سنح بها الخاطر بالحال :

كل عز يفنىٰ وعزك باق	يا إلٰه الورىٰ ويا خلّاقي
فأنلني يا بارىء الكون منه	ومضة كي أحس بالإشراقِ
فجناحي خفضته لك ذلاً	لكن الذل ليس بالأعناقِ
أنت كهفي كما يقول أبو الأحرار	والكهف من أذىٰ الشرواقِ

---

(١٣) سورة حم السجدة ، آية : ٤١ .
(١٤) سورة ص ، آية : ٢ .
(١٥) سورة المؤمن ، آية : ١٩ .

وإذا العـز يجتنىٰ من عـزيـز هـان للمـرء في العـلا ما يـلاقي

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من جعلت له الملوك نير المـذلة على أعناقهم فهم من سطواتـه خائفـون) وإذا تأملنـا هذه العبـارة بمقارنتهـا مع العبارة التي سبقت نجد الطباق البين في كل كلماتها خصوصاً ما بين قـوله ـ عليه السلام ـ : (بعـزه يعتزون) وقـوله : (نيـر المذلـة على أعناقهم) وهناك سؤال يطرح نفسه لماذا خص الملوك بنير المذلة دون غيرهم من سائر البشر ؟

من المعروف أن الناس فئات وهذه الفئات تكون الطبقات الإجتماعية والإنسان بمحض نصوره. يرىٰ أن هناك تفاوتاً بين الفئات من جهات شتىٰ . أما من جهة المجد والشرف ، وأما من جهة الفقـر والغنىٰ ، وأما من جهـة الكثرة والقلة . وأخيراً من جهة العزة والذلة والإنسان بعقله المحدود يـرىٰ أن العز مرهون وموكـول إلى القوة . وليس هنـاك فئة من النـاس أقوىٰ من الملوك هذا بمحض التصور الظاهر وإن كانت الحقيقة قد تتخلف في كثير من الحالات في مثل هذا المجال إلاّ أننا لا نستطيع أن ننكر المـلازمة بين القوة والعزفـالملوك بقوتهم يعتزون وإن كانت عزتهم مبنية على الناب والظفر كما هو الـواقع . إذاً فـالعز الـظاهري مـلازم للملوك لأنهم أقويـاء ، وقوة الملوك وعزتها من أظهر مظاهر الحياة الإنسانية ؛ ولهـذا فإنـه لم يغب عن الحسين ـ عليه السلام ـ هذا المعنىٰ فإنه قد أشار إلى أعز فئات الناس في المجتمعـات الإنسانيـة وهـم الملوك فهو يـريد أن يقـول إن هؤلاء الأعـزاء بقوتهم تواضعوا وسلموا القيـاد إلى الله بعد أن عـرفوا قـوته وانتقـامه عنـد الغضب فهم من سطواته خائفون لأنهم يعرفون قوته التي لا تحد ، وبأسـه الذي لا يرد .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

فإنه يقصد من ذلك إستراق العين والنظر من طرفٍ خفي بحيث لا يعلم المنظور بالناظر وإذا أراد المنظور أن يحدق ليعرف ذلك فإنه يعسر عليه عسراً كبيراً وذلك للسرعة الخارقة للنظر التي لا تتيح الفرصة للمتأمل أن يتأمل وفي تفسير هذه الآية : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[1] قالوا الخائنة مصدر كالخيانة نظير الكاذبة واللاغية بمعنىٰ الكذب واللغو ، وليس المراد خائنة الأعين كل معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع (ما تخفي الصدور) .

وقيل خائنة الأعين من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولازمه كون العلم بمعنىٰ المعرفة ، والمعنىٰ : يعرف الأعين الخائنة .

وفي ما ورد من طريق أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في تفسير هذا المعنىٰ ما جاء في المعاني بإسناده إلى عبد الرحمٰن ابن سلمة الحريري قال : سألت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ فقال : ألم ترىٰ إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر ؟ فذلك خائنة الأعين .

وجاء من طريق آخر حول هذا المعنىٰ في الدّر المنثور أخرج أبوداود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله الناس إلّا أربعة نفر وامرأتين ، وقال إقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة . منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان .

فلما دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ الناس إلى البيعة جاء به : يا رسول الله بايع عبدالله فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك أن يبايعه ثم بايعه ثم أقبل

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا إلى حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك . قال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين .

ثم يتدرج في عرض عظمة الخالق صاعداً فيقول : (وما تخفي الصدور) وهو ما تسره النفس وتستره من وجوه الكفر والنفاق وهيئات المعاصي التي لا تظهر للناظر ولا تحيط بها الخواطر وإنما يعلمها علّام الغيوب .

ويزيد في وصف ذلك فيقول : (وغيب ما تأتي به الأزمان والدهور) ولقد ذكرنا في فصل اللغة بأن الزمن هو فترة محدودة معروفة قد تكون شهرين إلى ستة أشهر . أما الدهر فهي مدة لا تنقطع وقد يطلق عليه من أول الدنيا إلى فنائها ، وكأنه يقول ـ عليه السلام ـ : (إن الله يعلم غيب ما تأتي به الأزمان المحدودة في مدتها من المستقبل والدهور وغيب الدهور المدة غير المحدودة وفي ذلك إشارة إلى علم الله غير المحدود الذي شمل جميع الأوقات ماضيها الغابر وحاضرها ومستقبلها المديد الذي لا نهاية له .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ لٰا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاٰ هُوَ ، يٰا مَنْ لٰا يَعْلَمُ مٰا هُوَ اِلاّٰ هُوَ ، يٰا مَنْ لٰا يَعْلَمُ مٰا يَعْلَمُهُ اِلاّٰ هُوَ ، يٰا مَنْ كَبَسَ الْاَرْضَ عَلَى الْمٰاءِ ، وَسَدَّ الْهَوٰاءَ بِالسَّمٰاءِ ، يٰا مَنْ لَهُ اَكْرَمُ الأسْمٰاءِ] .

اللُّغَة

كيف : إسم معناه الإستفهام ، وقال عنها بعض اللغويين هي مؤنثة وإن ذكرت جاز . وقال الأزهري : كيف حرف أداة ، وفتح الفاء فراراً به من الياء الساكنة فيها لئلا يلتقى ساكنان . قال الزجاج في قول الله تعالى : ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً**﴾[1] تأويل كيف استفهام في معنى التعجب ، والمصدر الكيفية .

وقال الجوهري : كيف إسم مبهم غير متمكنٍ وإنما جزم آخره لالتقاء الساكنين ، وبنى على الفتح دون الكسر لمكان الياء ، وهو للإستفهام عن الأحوال .

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨ .

كبس : الكبس طمك حفرة بتراب ، وكبست النهر والبئر كبساً طممتهما بالتراب، الكبس بكسر الكاف ، ويقال الهواء والكبس فالكبس ما كان نحو الأرض مما يسد من الهواء مسدّاً . والجبال الكبس الصلاب الشداد . والكبس البيت الصغير والتكبيس والتكبس الإقتحام على الشيء يقال كبسوا عليهم . وعام الكبيس في حساب أهل الشام ، عن أهل الروم في كل أربع سنين يزيدون في شهر شباط يوماً فيجعلونه تسعة وعشرون يوماً ، وفي ثلاث سنين يعدّونه ثمانية وعشرون يوماً يقيمون بذلك كسور حساب السنة ويسمّون العام الذي يزيدون فيه ذلك اليوم عام الكبيس . فكأن شهر شباط عندهم في سائر السنين هو ثمانية وعشرون يوماً وربع اليوم ، وتجتمع في كل أربع سنين أربعة أرباع اليوم فتكون يوماً واحداً . قال الجوهري : والسنة الكبيسة التي يسترق لها يوم وذلك في كل أربع سنين .

والكابوس ما يقع على النائم بالليل ، ويقال هو مقدمة الصرع ، ويسمىٰ الباروك والجاثوم ، وقال بعضهم أن الكابوس يحدث عندما ينقص ضخ الدم بفعل القلب إلى جميع أجزاء الجسم .

سدّ : السد إغلاق المخلل وردم الثلم ، والسد الجبل والحاجز ، وقرىء قوله تعالى : **﴿حتىٰ إذا بلغ بين السدين﴾**[2] فالفتح والضم . وكذا قوله سبحانه : **﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدّاً﴾**[3] بالفتح والضم الردم والجبل ، ومنه سد الروحاء وسد الصهباء ، وهما موضعان بين مكة والمدينة . وكل شيءٍ سددت به خللاً فهو سداد بالكسر قال العرجي :

---

(٢) سورة الكهف ، آية : ٩٣ .

(٣) سورة يٓس ، آية : ٩ .

أضــاعــوني وأي فتىً أضــاعــوا لـيــوم كــريـهــة وســداد ثــغــر

بالكسر لا غير.

البيان

تعرض ـ سلام الله عليه ـ في هذه الفقـرة إلى بعض صفات البـاري هي من أهم الصفات وأكثر دوراناً عند علماء الكلام فقال : (يا من لا يعلم كيف هو إلّا هو) فقد تعرضوا إلى هذه الصفة وجرىٰ لهم فيها الأخذ والرد والنفي والإثبات ، ونحن هنا لا بدّ لنا من وقفة معهم للتأمل في ما قالوا من وجهة نظر كـلامية جـرياً على عـادتهم ، غير أن مـا جاءنـا عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فيه قول فصل وقضاء حتم .

الكيف والحال

لقد قلنا بأن (كيف) يستفهم بها عن الكيفية ، والجواب عن ذلك يكون بالحال .

والحال عند علماء الكلام صفة لموجود ، ولا توصف بالوجود ولا بالعدم ، والباري قادر باعتبار تلك القادرية ، وعالم باعتبار تلك العالمية . . إلى غير ذلك .

وبطلان تلك الدعوى ضروري ؛ لأن الشيء إما موجود أو معدوم ، ولا واسطة بينهما ، ولا يتصور العقل شيئاً آخر غير هذين الطرفين .

وقال الحكماء والمحققون من المتكلمين إنه تعالى قادر لذاته وعالم لذاته ، إلى غير ذلك من الصفات ، وما يتصور من الزيادة من قولنا ذات عالمة وقادرة فتلك الأمور إعتبارية زائدة في الذهن لا في الخارج .

قال في شرح الباب الحادي عشر : إنه لو كان قادراً بقدرة أو قادرية أو عالماً بعلم أو عالمية إلى غير ذلك من الصفات لزم إفتقار الواجب في صفاته إلى غيره لأن تلك المعاني والأحوال مغايرة لذاته قطعاً ، وكل مفتقر إلى

---

(٤) شرح الباب الحادي عشر : ص٦٤ .

غيره ممكن ، فلو كانت صفاته زائدة على ذاته لكان ممكناً[٤] .

وقال السيد الطباطبائي ـ قدس سره ـ في كتاب بداية الحكمة :

في الكيف : وهو عرض لا يقبل القسمة ولا النسبة لذاته ، وقد قسموه بالقسمة الأولية إلى أربعة أقسام :

١ ـ الكيفيات النفسانية كالعلم والإرادة والجبن والشجاعة والبأس والرجاء .

٢ ـ الكيفيات المختصة بالكميات كالإستقامة والإنحناء والشكل مما يختص بالكم المتصل ، وكالزوجية والفردية في الأعداد مما يختص بالكم المنفصل .

٣ ـ الكيفيات الإستعدادية وتسمىٰ أيضاً القوة واللا قوة كالإستعداد الشديد نحو الإنفعال كاللين والإستعداد الشديد نحو اللا إنفعال كالصلابة وينبغي أن يعد منها مطلق الإستعداد القائم بالمادة ، ونسبة الإستعداد إلى القوة الجوهرية التي هي المادة نسبة الجسم التعليمي الذي هو فعلية الإمتداد في الجهات الثلاث إلى الجسم الطبيعي الذي فيه إمكانه .

٤ ـ الكيفيات المحسوسة بالحواس الخمس الظاهرة وهي إن كانت سريعة الزوال كحمرة الخجل وصفرة الوجل سميت إنفعالات ، وإن كانت راسخة كصفرة الذهب وحلاوة العسل سميت إنفعاليات .

ولعلماء الطبيعة اليوم تشكيك في كون الكيفيات المحسوسة موجودة في الخارج على ما هي عليه في الحس مشروحة في كتبهم[٥] .

---

(٥) بداية الحكمة للسيد الطباطبائي : ص١٠٥ .

وقال في تجريد الإعتقاد : وقسمة الحال إلى المعلل وغيره ، وتعليل الإختلاف بها وغير ذلك مما لا فائدة بذكره .

قال العلّامة في شرح هذا الكلام : شرع في تفاريع القول لثبوت الحال وذكر منها فرعين :

الأول : قسمة الحال إلى المعلل وغيره قالوا : ثبوت الحال للشيء إما أن يكون معللاً بموجود قائم بذلك الشيء كالعالمية المعللة بالعلم ، أو لا يكون كذلك كسوادية السواد فقسموا الحال إلى المعلل وغيره .

الثاني : اتفقوا على أن الذوات كلها متساوية في الماهية ، وإنما تختلف بأحوال تضاف إليها . واتفق أكثر العقلاء على بطلان هذا الوجوب ؛ لاستواء المتماثلين في اللوازم فيجوز على القديم الإنقلاب إلى المحدث وبالعكس ؛ ولأن التخصيص لا بدّ له من مرجح ، وليس ذاتاً ولا صفة ذات وإلّا تسلسل[٦] .

هذا ما أردنا نقله من أقوالهم التي لا حصر لها عند الإستقصاء وعند النظر في ذلك يرىٰ الإنسان الخلافة في معنىٰ (الكيف) وتقسيماته محتدماً ، والخلافة في الحال وتقسيماته كذلك .

والشيء المعروف أن هذا راجع إلى تفاوت الإدراك الإنساني ، واختلافه من فردٍ إلى آخر ، وهذا يدل بدوره على الأهمية التي أعطيت لهذا الجانب من سائر جوانب الصفات السلبية للذات المقدسة ، والتي ألمحنا إليها في أبحاث سابقة في الجزء الأول من الكتاب كما يعطينا مدىٰ الأهمية لهذا الموضوع عند البحث عن الصفات الأخرى .

---

(٦) تجريد الإعتقاد : ص٢٢ .

ثم إن الخلاف لا يمكن أن ينشأ لو كان التفكير ساذجاً ، ثم لا يمكن أن ينشأ أيضاً لو كانت المسألة في إدراكها بسيطة ، ولكن بما أنها تتعلق بالذات المقدسة لأنها صفة من صفاته تعالى وصفاته عين ذاته اكتنف تلك المسألة جانب الغموض ، ورد العقل عن ذلك خاسئاً وهو حسير .

ولهذا فقد ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ قولهم : (هو الذي أيّن الأين ، وكيّف الكيف) وبعد هذا التفصيل في كلام أهل الكلام ، وما أشرنا إليه في التعليق يظهر معنىٰ عبارة الدعاء من الفقرة الماثلة أمامنا للبحث وهي قوله (يا من لا يعلم كيف هو إلاّ هو) .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعلم ما هو إلاّ هو) وفي هذه العبارة تعرض ـ عليه السلام ـ إلى موضوع الماهية ، وهي عند علماء الكلام ما يقال في جواب (ما هو ؟) لما كانت تقبل الإتصاف بأنها موجودة أو معدومة ، أو واحدة أو كثيرة أو كلّية أو مفردة ، وكذا سائر الصفات المتقابلة كانت في حدّ ذاتها مسلوبة عنها الصفات المتقابلة .

اختِلافُ الماهِيَّة

فالماهية من حيث هي ليست إلّا هي ، لا موجودة ولا لا موجـودة ، ولا شيء آخر وهذا معنىٰ قولهم : إن النقيضين يرتفعان عن مرتبة الماهية ، يريدون به أن شيئاً من النقيضين غيـر مأخـوذ في الماهيـة ، وإن كانت في الواقع غير خالية عن أحدهما بالضـرورة . فماهيـة الإنسان وهي الحيـوان النـاطق مثلاً ـ وإن كـانت إما مـوجـودة وإمـا معـدومـة، والـوجـود والعـدم لا يجتمعـان ولا يـرتفعـان ـ لـكن شيئـاً من الـوجـود والـعـدم غيـر مأخوذ فيها . فالإنسان معنىً ، ولكل من الوجود والعدم معنى آخر ، وكذا الصفات العارضة حتىٰ عوارض المـاهية . فلمـاهية الإنسـان مثلاً معنىً ، وللإمكان العارض لماهيتـه معنىٰ آخر . ولـلأربعة مثـلاً معنىٰ ، وللزوجية العارضة لها معنىٰ آخر . ومحصل القول أن الماهية يحمل عليها بـالحمل الأولي نفسها ، ويسلب عنها بحسب هذا الحمل ما وراء ذلك[٧] .

أمـا ماهيـة الله ـ تعالى ـ فهي مخـالفة لسـائر المـاهيات لعين ذاتهـا المخصوصة ، خلافاً لأبي هاشم وأتباعه فإنه زعم أن الذوات كلها متساوية

---

(٧) بداية الحكمة للسيد الطباطبائي : ص٧٥ .

في الذاتية ومتخالفة بأحوال هي عليها .

وقد استدل الشيخ ميثم البحراني على ذلك بوجهين :

الأول : إن ماهيته ـ تعالى ـ نفس وجوده ، ولا شيء من ماهيات الممكنات كذلك ، فماهية الله تعالى غير مشاركة لشيء من ماهيات الممكنات في حقيقتها .

الثاني : لو كانت ماهيته مساوية لشيء من ماهيات الممكنات لكان إختصاصها بما لأجله صار مؤثراً في وجود العالم إن كان لأمر فإما لذات أو للازمها ، فيلزم إتصاف سائر الماهيات بصاة الإلهية؛ لوجوب إشتراك متماثلي الذات في جميع مقتضياتها ضرورة، وأما لغيره فيكون واجب الوجود محتاجاً في تحقق صفات الإلهية إلى غير خارجي عنه ، فكان في صفاته ممكناً معلولاً للغير وهذا خلف . وإن لا لأمرٍ لزم الترجيح بلا مرجح وهو محال[٨] .

هذا بعض ما قالوه في الماهية المأخوذة من جواب ما هو ؟ وإذا تأملت هذا الكلام وجدت أن معناه أن الشيء لا يتميز إلّا بصفاته سواءً كانت عارضة أو ذاتية لأنه لا يمكن معرفة معالم أي شيء إلّا بها ولكن هل أن الصفات المأخوذة في الإعتبار أهي هذه الماهية نفسها ؟ أو شيء زائد عن الذات هذا ما اختلفوا فيه ومن ثم فرقوا بين ماهية الإنسان وبين ماهية الله ـ تبارك وتعالى ـ وذلك نظراً لأن صفاته ـ تعالى ـ عين ذاته وصفات الإنسان زائدة عن الذات .

أما معرفة ماهية الإنسان فإنها تعرف من خلال الصفات والمكونات

---

(٨) قواعد المرام للشيخ ميثم البحراني : ص٦٨ .

الإنسانية العضوية وغيرها ، فالإنسان حيوان ناطق بالجمل الأولىٰ وهكذا نستطيع أن ندرك مميزاته في جميع الحالات إعتباراً بصفاته الظاهرة .

اما ماهية الله ـ تعالى ـ فإنه لما كانت صفاته عين ذاته ـ سواءً كانت صفات ثبوتية أو سلبية ـ فكما قلنا أن الذات القدسية مصونة لا تمس لأنه لا يمكن للإنسان بهذا الحجم الصغير أن يصل إلى ما هو أعلى منه مرتبة ، وبهذا يظهر معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ (يا من لا يعلم ما هو إلاّ هو) لأن الإنسان كما وقع له الخلاف في الصفات فبالأحرىٰ أن يقع في الخلاف في الذات وبذلك يشتبه عليه الطريق بين الحق والباطل أللهم إلاّ ما يرد عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في توضيح هذه الأمور فقد قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في إحدىٰ خطب نهج البلاغة : (. . . الذي لا يدركه بعد الهم ، ولا يناله غوص الفتن ، الذي ليس لصفته حدّ محذود ، ونعت موجودولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . . ثم استطرد ـ عليه السلام ـ يقول : أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله ـ سبحانه ـ فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثنّاه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن قال : (فيم ؟) فقد ضمنه ، ومن قال : (علام ؟) فقد أخلىٰ فنه ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنىٰ الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده .

ثم قال الحسين ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعلم ما يعلمه إلاّ هو) ولقد انتقل في هذه العبارة إلى ذكر ما يميز الذات القدسية عن غيرها في هذه الصفة ، فعلمه تعالى وهو العلم الحضوري يختلف عن علم الإنسان وهو العلم الحصولي ، وقد تعرض علماء الكلام إلى هذه الصفة الثبوتية فقالوا : (إتفق جمهور العقلاء والمتكلمين وغيرهم على أنه تعالى ، عالم ، إلاّ قوماً من الفلاسفة فإن منهم من نفىٰ عنه العلم أصلاً) . ثم قالوا : إن أفعاله تعالى محكمة متقنة ، وكل من كان كذلك فهو عالم . أما الأولى فحسّية ، والثانية بديهية[9] .

ثم استدلوا على ذلك بعدة وجوه وأطالوا .

وقال في كتاب شرح الباب الحادي عشر : (إنه تعالى عالم لأنه فعل الأفعال المحكمة المتقنة ، وكل من فعل ذلك فهو عالم بالضرورة)[10] .

وقال في شرح التجريد : (والأحكام والتجرد وكيفية قدرته واستناد كل شيء إليه دلائل العلم)[11] .

وقال الشيخ حسين آل عصفور في كتاب (محاسن الإعتقاد) .

---

(٩) قواعد المرام للشيخ ميثم البحراني : ص٨٥ .

(١٠) شرح الباب الحادي عشر : ص٣٢ .

(١١) شرح التجريد : ص٢٦٢ .

صفة العلم

في كونه تعالى عالماً وهي (أي هذه الصفة) من أجلّ الصفات ، وقد استدل على إثباتها له سبحانه وتعالى بأنها أعلىٰ صفات الكمال الموجودات فيجب إتصافه سبحانه بها وإلاّ فإن معلوله الممكن أشرف وأتم منه لثبوته له بالضرورة ، والمشهور في الإستدلال على ذلك بين المتكلمين والحكماء إشتمال أفعاله على لطائف الصنع وبدائع الترتيب والأحكام التي تحيز فيها العقول والأفهام وبأنه مجرد قادر فاعل بالقصد والإختيار ، ولا يتصور ذلك بدون العلم بالمقصود وبأنه مجرد عن المادة والمدة وبأنه عالم بذاته لعدم غيبة ذاته عنه والعلم هو حضور الماهية المجردة ، وإذا علم بذاته علم ما عداه لكونه مبدىء لغيره إما بواسطة أو بدون واسطة والعلم بالعلة يوجب العلم بالمعلوم .

ثم استدل رحمه الله على هذا الكلام بروايات وردت عن أهل بيت العصمة ـ سلام الله عليهم ـ تشير إلى ذلك فقال في صحيح أبي بصير قال : سمعت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ يقول : لم يزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ربّنا والعلم ذاته لا معلوم ، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم . وصحيح محمد بن مسلم عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : سمعته

يقول : كان الله ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما يكون ، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه .

وصحيح أيوب بن نوح ، إنه كتب إلى أبي الحسن ـ عليه السلام ـ يسأله عن الله ـ عزّ وجلّ ـ أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء ؟ أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها ، فعلم ما خلق عندما خلق ، وما كوّن عندما كوّن ؟

فوقع بخطه : لم يزل الله ـ تعالى ـ عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء ، كعلمه بالأشياء بعد خلق الأشياء .

وخبر جعفر بن محمد بن حمزة : قال كتبت إلى الرجل أسأله ان مواليك إختلفوا في العلم فقال بعضهم : لم يزل الله عالماً ؛ لأن معنى (يعلم) يفعل فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً فإن رأيت ـ جعلني الله فداك ـ أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه . فكتب عليه السلام بخطه : لم يزل الله عالماً ـ تبارك وتعالى[١٢] .

ومما تقدم من الكلام والأخبار كفاية ودليل على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ عالم لم يزل وكل هذا مبنى على أن صفاته عين ذاته ، وهذا معنىٰ الخبر المتقدم الوارد عن الحجة ـ عجل الله فرجه الشريف ـ : (لم يزل الله عالماً ـ تبارك وتعالى ـ) ولا يأتي الإشكال المطروح في قوله في صدر السؤال : (فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً) وذلك لأنه لا يمكن فصل الصفات عن الذات . وفي بحث هذا الموضوع كلام طويل أسهب فيه الحكماء من أراد التفصيل فليرجع إلى ما قالوا في الكتب الكلامية المطولة .

---

(١٢) محاسن الإعتقاد للشيخ حسين آل عصفور (مخطوط) .

ومما تقدم يظهر لك معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعلم ما يعلمه إلّا هو) .

ثم إنه من بعد هذا قد يظهر من قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعلم ما يعلمه إلّا هو) مطابقة معنوية بقوله ـ تعالى ـ : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلّا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبينٍ**﴾[13] .

فقد ذكر المفسرون لهذه الآية : إن ذلك مسوق لبيان إنحصار العلم بالغيب فيه تعالى ، إما لأن مخازن الغيب لا يعلمها إلّا الله ، وإما لأن مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالىٰ فلا سبيل لغيره إلى تلك الخزائن ، إلّا علم إذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها إلى فتحها والتصرف فيها كما أن شمول علمه تعالى بكل شيء أعم من أن يكون غيباً أو شهادة ، فإن كل رطب ويابس لا يختص بما يكون غيباً ، وهو ظاهر ، فالآية بمجموعها تبين شمول علمه تعالى بكل غيب وشهادة ، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب وذيلها ينبىء عن علمه بكل شيء أعم من الغيب والشهادة .

وحقيقة السبب في اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى أيّاً ما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه ، الغائب عنه من حيث أنه غائب ، ولا شيء غير محدود ولا غير متناهٍ محيط بكل شيء إلّا الله سبحانه فله العلم بالغيب .

فمعنىٰ علمه بالغيب والشهادة أنه لا غيب بالنسبة إليه ، بل الغيب

---

(13) سورة الأنعام ، آية : 59 .

والشهـادة اللذان يتحققان فيمن بين الأشيـاء بقياس بعضهـا إلى بعض وأن الـذي يمكن أن علم بـه أربـاب العلم ، وهـو الـذي لا يخـرج عن حــدّ وجـودهم ، والذي لا يمكن أن يعلمـوا به المكـونة غيبـاً خارجـاً عن حـدّ وجودهم هما معاً معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (لا يعلم ما يعلمه إلاّ هـو) إشارة إلى علم الغيب الـذي يختص بعلمه تعـالى دون غيره من سـائر المخلوقـات ، لأن الإنسان يعلم ماضي أيامه وحاضرها ويعلم شاهدها دون غائبها ، فالمستقبل المجهول والأشياء الغائبة ليس له إلى معرفتها سبيل .

فإن الإنسان وهـو أكرم المـوجودات عنـد الله ـ خلقه الله نـاقصاً في عقله ، نـاقصاً في سمعـه وبصره ، نـاقصاً في قـوته ، نـاقصـاً في جميـع حواسه ، ناقصاً في علمه ، فلا يمكنه بهذه الحال أن يكون كاملاً .

الأرض ومركزها في الكون

ثم قـال ـ عليه السـلام ـ : (يا من كبس الأرض على المـاء ، وسدّ الهواء بالسماء) تعرض في هذا الكلام لظاهرة من الـظواهر الـطبيعية التي سبقت خلق الإنسـان بغابـر من الـدهـر ، وهي كيفيـة تكـون الأرض التي اختلفت فيها النظريات العلمية .

قالوا : بأن الأرض من أولاد الشمس ، ومن أولادها عطارد والزهـرة والمريخ والمشتـري وزحل وغيـرها ، وكلهـا تدور حـول الشمس ؛ ولهذا سميت (السيـارة) وهي تظهـر بالليـل على صفحـة السمـاء . والكـواكب السيارة أسرة الشمس ، أسرة جاءت من أصل واحد أو من أصول مشتركة . هذا ما يقوله اليوم فلاسفتهم منـذ ألف وألف من السنين ، ولم يكن العلم الحديث قد أطل بقرنيه . ومجرىٰ هذه الأجرام كلها دائرة والـدائرة أجمـل المسـارات وأكملها . ويـأتي قياس الأبعـاد وقياس الـزوايا ، والمثلثـات ، والرجوع إلى النجوم سنداً لهذا القياس ، وهي عمليات مسح خطيرة تحتاج إلى أوقات طويلة وجهود متصلة .

وخرجت الحقيقة بأن الكرة الأرضية ـ بصرف النظر عما بسطحها من إرتفـاعات هي الجبـال ، ومن إنخفـاضـات هي البحـار ، تلك التي يسـدّ

بعضهـا خلل بعض إلى حدّ كبيـر ، ولا تؤثر بصغـرهـا في صـورة الأرض العامّة ، تأثيراً كبيراً ـ خرجت هذه الحقيقة بأن محور الأرض ، قطرها الذي يصـل بين قطبهـا الشمال وقـطبها الجنـوبي طولـه ٧٩٠٠ ميل . وقـطرهـا المتعامد على هذا ، قطر دائـرتها الإستـوائية طـوله ٧٩٢٦ ميـلاً . فالقـطر الإستوائي يزيد على القطر القطبي ٢٦ ميلاً ، وهو فرق إذا نسب إلى أكبـر القطبين كان (٣,٣) من الألف منه . فالأرض كادت أن تكون كـرة كاملة ولكنها لم تفعل . ورأي أفلاطون أن الكـون جميلٌ ، وأن أجمـل الأشكال الأرض ، وأجملها الكرة الكاملة ، ولكنه لم يتحقق في الأرض .

وهناك مقدمات كثيرة لهذا الموضوع يطول بهـا الحديث ولكنـا نأتي إلى ما نريد بسرعة فنحاول الكشف عن معنىٰ العبارة الماثلة بين يدي هذا البحث فنقول :

إن سطح الأرض الذي نستطيع أن نلمسه يداً أو نراه عيناً ، أو نكشف عنـه حفراً شيء من حيث السمـك يتضاءل كل التضاؤل إذا قـارنّـاه بسمـك الأرض ، ومع هذا فعلىٰ هذه القشرة الكبيرة السمك فيما تعودنا نحن بني الناس ، الضئيلة السمك بالمقارنة التي تتصل بالأرض من سموك وأبعاد ، على هذه القشرة نحيا ومنها نستمد العيش وعليها ومنها يحيا كل حيوان ، ويستمـد عيشه ، وفي تـربتها ينبت النبـات غذاءً لكـل من درج على هـذه القشرة من كل ذي حياة .

وإن تكن في جـوف الأرض حـركـة ففي هـذه القشـرة ألف حـركـة وحركة ، ولا نقصد حركة الأحياء ولكنا نقصد حركة الجماد .

إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة ، وفي تغير دائم يهتز البحر بالموج ، فيؤثر فيها ، ويتبخر ماء البحر تبخره الشمس فيصعد إلى السماء

فيكون سحباً تمطر الماء عذباً فينزل على الأرض متدفقاً ، فتكوّن السيول وتكوّن الأنهار تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها ، تؤثر في صخرها فتحله ، فتبدل فيه من صخر صخراً . وهي من بعد ذلك تفتته وتسحقه . وهي من ذلك تحمله وتنقله ، ويتبدل وجه الأرض على القرون ومئات السنين وآلافها . وتفعل الثلوج الجامدة بوجه الأرض على ما يفعل الماء . وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء والريح ، بما تطلق على هذا الوجه من نار ونور . والأحياء على ذلك تغير من وجهها كذلك . ويغير منها ما ينبثق فيها من جوف الأرض من براكين .

إذاً فقشرة الأرض ليست قشرة مكونة من طبقة واحدة من مادة واحدة أو من جسم واحد كقطعة من الرخام لا ، وإنما هي مكونة من مادة صلبة تجمع كثيراً من المعادن منها القيم الثمين كالذهب والفضة ومنها العادي كالحديد وغيره من المواد التي ينتفع بها الناس في حوائجهم ويبنون بها حضاراتهم ، ومنها السائل المختلف القوام ، والمختلف الكثافة والمختلف اللون كالزئبق والنفط والماء وكلها تقضي للإنسان ضرورة ماسة بحياته كل المساس . ومنها ما يقضي للإنسان حاجات كمالية تدفعه للتقدم والتطور .

فالأرض التي نعيش عليها ونسير فيها وتقلنا بصلابتها ليست كلها في صلابة فأجزاؤها منها الجامد ، ومنها السائل . ولكن كيف احتوت الأرض على هذا السائل وكبست ـ كما قال ـ عليه السلام ـ على الماء ؟ نطرح هذه الآية بما قال فيها المفسرون لنقرب المعنىٰ للذهن قال تعالى : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً . إن في ذلك لذكرىٰ**

لأولي الألباب﴾(١٤) قال المفسرون : أي فأدخله في عيون ومجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب .

وعن علي بن إبراهيم قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قوله : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض . . .﴾** الآية والينابيع هي العيون والركايا مما أنزل الله من السماء فأسكنه في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج بذلك حتى يصفر ، ثم يجعله حطاماً ، والحطام إذا يبست وتفتتت .

وربما راود العقل معنىً آخر في عبارة الدعاء ، وهذا المعنىٰ ربما كان يشير إليه الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح ، وهي من روايع الخطب في نهج البلاغة ، حيث قال : (كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ، ولجج بحار زاخرة ، تلتطم أواذي أمواجها ، وتصطفق متقاذفات أثباجها ، وتربو زبداً كالفحول عند هياجها ، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها ، وسكن هيج إرتمائه إذ وطأته بكلكلها ، وذل مستخذياً إذ تمعكت عليه بكواهلها ، فأصبح بعد إصطباخ أمواجه ساجياً مقهوراً ، وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً ، وسكنت الأرض مدحوةً في لجة تياره ، وردّت من نخوة بأوه واعتلائه ، وشموخ أنفه وسموّ غلوائه ، وكعمته على كظة جريته ، فهمد بعد نزقاته ، ولبد بعد زيفات وثباته . فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها ، وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكتافها ، فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها ، وفرّقها في سهوب بيدها وأخاديدها ، وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها ، وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان

---

(١٤) سورة الزمر ، آية : ٢١ .

لرسوب الجبال في قطع أديمها ، وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها ، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها ، وفسح بين الجو وبينها ، وأعدّ الهواء متنسماً لساكنها ، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها .

قال ابن أبي الحديد في كلام له بعد هذه الخطبة : (ظاهر كلام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أن الماء خلق قبل الأرض . وهو موافق لقول بعض الحكماء ، وهو موافق أيضاً لما في التوراة) .

وهذا القول من ابن أبي الحديد تحكم ؛ وذلك لأنه لا يلزم من ذكر الأول قبل الثاني وهي الأرض قبل الماء أنه خلق قبلها ، أو إدخالها فيه ، خلقه قبلها ، فيكون وجود الظرف قبل المظروف؛ لأنه سبحانه قد يخلقهما معاً ، إلاّ أننا نستخلص بحسب ما تقدم أن الله بقدرته قد كبس الجامد في السائل عندما خلقهما معاً وهو أمر طبيعي ، خلافاً للنظرية القائلة أن الأرض عندما انفصلت من الشمس بفعل القوة المركزية الطاردة للشمس كانت في حالتها الغازية ، وبعامل البرودة وانخفاض درجة الحرارة لإبتعادها عن الشمس تحولت إلى سائلة ، وفي هذه الحالة ـ كما تقول النظرية ـ إنفصل جزءٌ آخر من الجزء الأكبر أسميناه القمر ؛ وذلك بفعل القوة المركزية الطاردة للأرض ثم استقرت في دورانها بفعل الجاذبية المتوازنة بين الشمس وبين الجزء المنفصل منها الذي أسميناه الأرض ، ثم استقرت في نظامها الفلكي ضمن المجموعة الشمسية تلك الأجزاء المنفصلة عن الشمس أيضاً ضمن نظام معين ، ولكن بإرادة إلٰهية محضة .

الغلاف الجوي

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وسدّ الهواء بالسماء) فالسماء تعني كل ما يعلو الإنسان من سقفٍ ومن سحابٍ ومن هواءٍ وهي مـأخوذة من السمـو والرفعة ، وعند الحديث عن معنىٰ هذه العبارة نراها مـرتبطة كـل الإرتباط بموضوع علمي بحت وهو موضـوع الغلاف الجـوي . وهنا نـريد أن نقف وقفة تأمل للنظر في ما قاله العلماء حول جو الأرض . فقد قالوا فيه إنه بحر من هواء نعيش في أعماقه ، والأرض كرة تلفها قشرة من صخر ، وتلف أكثر الصخر ـ كما قلنا ـ طبقة من مـاء ، وتلف الصخر والمـاء جميعاً طبقـة من هواء ، وهي طبقة من غاز سميكة كالبحر ، ونحن والحيوان والنبات نعيش في هذه الأعماق هانئين بالذي فيها .

فمن الهواء نستمد أنفـاسنا من أكسجينـه ، ومن الهواء يبني النبـات جسمه ، من كربونه بل من أكسيد كربونه ، ذلك الذي يسميه الكيمـاويون ثاني أكسيد الكربون ، يبني النبات جسمه من أكسيـد الفحم هذا ، ونحن نأكل النبات ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات ، ومن كليهما نبني أجسامنا ، ومن هنا نشأت شبهة (الآكل والمأكول) عند بعض الملاحدة ، ولكن ليس هذا محلها فليرجع إليها من أراد في الكتب الكلامية المطولة .

بقي من غـازات الهـواء النتـروجين ، أي الآزوت ، فهـذا لتخفيف الأكسجين حتى لا نحتـرق بأنفـاسنا ، وبقي بخـار الماء ، وهـذا لترطيب الهواء ، وبقيت طائفة من غازات مختلفة توجد فيه بمقادير قليلة هي في غير تـرتيب : الأرجون والهليـوم والنيـون ، وغيـرهـا ، ثم الايـدروجين وهـذه تخلفت على الأكثر في الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى . ونحن في هذه الأعمـار سعداء من بين هـذه العناصـر ، ذلك ضغط هـذا الهواء في هـذه الأعمـار إنه يضغط على كـل شيء ، وعلى أجسـامنـا بثقـل منـه نحـو من كيلو غرام على السنتمر المربع الواحد من جلودنا وظاهـر أغشيتنا ، وهـذا الضغط يخفض علينا دماءنا وماءنا وعلى سائر الحيوان .

وإن تعجب فعجب أنه لولا هذا الهواء الذي يلف الأرض لرأينا نجوم السماء نهاراً جهاراً ، نقاط من ضياء في صحيفة من السماء سوداء ، ورأينا الشمس على هذه الصحيفة السوداء قرصاً أبيض لا أقل ولا أكثر .

إن الهواء هو الذي يبعثر ضوء الشمس نهاراً فيحجب عنّا أضواءً تأتي من نجوم السماء وهو يرينا السماء بيضاء ، وما هي ببيضاء ، إن الذي إبيض إنما هو هذه الطبقة من الهواء .

وإذا نحن علونا في الهواء حتىٰ تركناه وراءنا نهاراً إذاً لوجدنا أنفسنا في ظلام واستحال النهار بدون هواء إلى ليل . وتراءت النجوم في السماء كما تترائىٰ في سماء ليل ، والشمس نفسها تترائىٰ كنجم في قرص كبير ، ومن حولها سواد إنه سواء الليل ، إنه سواد بنهـار . أرأيت أعجب من هذا نهار في ليلٍ وليلٍ في نهارٍ .

وإذا كان الوضع الطبيعي لهذا الكون يجمع كثيراً من الأشياء المتقابلة ويؤلف بين الأشياء المتنافرة فلا غرابة إذاً من الأدباء العرب عندما إنسجموا

في هذا الوضع فقال في ذلك شاعر الدعدية :

فـالـوجـهُ مثـل الصبـح منبلجٌ والـشعـرُ مثـل الليـل مسـوّدٌ
ضـدان لمـا إستجمعـا حسنـاً والضـدّ يـظهـر حسنـه الضـدّ

ويقول الآخر :

قـامـت تـظللني عـن الشمـس نفس أعـز علي مـن نفسـي
قـامـت تـظللني ومـن عجـب شمس تـظللني عـن الشمـس

أرأيت الأديب كيف يكون عالماً فيلسوفاً وإلى الفيلسوف كيف يكون أديباً ، إنها الطبيعة البشرية المنسجمة مع طبيعة هذا الكون .

ثم أرأيت كيف يأتينا الحسين ـ عليه السلام ـ وسائر الأئمة بكل جديد من العلوم التي تسابق الزمن ولكنها لا تزال تلهث وراء كلامهم عاجزة . ونتحدث أيضاً عن طبقة هذا الهواء ، ونتحدث عن صعودنا فيها حتىٰ نفوتها ، فكم نصعد حتىٰ نفوتها ؟

إن الهواء يخف كلما صعدنا ؛ لأن جاذبية الأرض له تقل كلما بعد عنها ، والضغط يقل ، ولو أن ضغط الهواء كان واحداً إذاً لكان سمك الهواء نحواً من خمسة أميال . ولكن تخففه هذا المتدرج يصل به إلى نحو من ٥٠٠ ميل . ولكنه قبل ذلك يتخفف تخففاً كبيراً وهو من بعد ذلك يقل قلة تقرب من العدم .

إن قطر الأرض عند خط إستوائها يبلغ نحو ٨٠٠٠ ميل . فقطرها مع غلافها الهوائي يبلغ إذاً نحو ٩٠٠٠ ميل .

وبناءً على ما تقدم نستطيع أن نقرر وجهين لا ثالث لهما :

الوجه الأول : أن سدّ الهواء بالسماء يعني أنّ السماء تكون حاجزاً

بين الهواء وبين أن يتسرب إلى متاهات الكون اللا نهـائي ، وبذلـك تفقد الأرض ومن عليها من حيوان ونبات كل مقومات الحياة ؛ وذلك لأن الهواء بجميع عناصره كما تقدم مفصلاً من أكثر الضرورات مساساً بحياة من يعيش على وجه الأرض ، فإذا ما فقد هذا المقوم الضروري فإن الحيـاة ستنتهي حتماً .

الوجه الثاني : هو أن السماء إذا أخذناها ببساطة معناها وهي كل ما يعلو الإنسان ، فإن السماء ستكون حاجزاً بين الأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات ؛ لتمنع ما كان مضراً من عناصر الهـواء الذي ينقـل الأشعة الشمسية إلىٰ الأرض ، فيسمح ما بما كان ضرورياً منها للحياة ، ويمنع ما كان مضراً بها كالأشعة فوق النفسجيـة التي تمنع بـواسطة (غـاز الأزون) الذي يطفو فوق الغلاف الجوي ليكون حاجزاً لهذه الأشعة ، وهو أول طبقة من الغلاف الجوي ممّا يلي الكون اللاّ نهائي ، فيكون هذا النوع من الغاز بمنزلة المصفاة التي تغربل الأشعة فتحجز منها ما كان مضراً وتسمح بما كان ضـرورياً . وبـذلك يـظهر معنى قـولـه ـ عليـه السـلام ـ : (وسـدّ الهـواء بالسماء) .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من له أكرم الأسمـاء) فالكـريم معناه العزيز ، ويقال : فلان أكرم عليّ من فلان ، أي أعز منه . ومنه قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**إنه لقرآن كريم**﴾[١٥] وكذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾[١٦] ومعنى آخر أنه الجواد المفضل ، ويقال : رجل كريم أي جواد .

---

(١٥) سورة الواقعة ، آية : ٧٧ .

(١٦) سورة الدخان ، آية : ٤٩ .

وقد توسل ـ عليه السلام ـ بأكرم أسماء الله ، وكل أسمائه كريمة تستحق أن يتخذها الإنسان وسيلة بين يدي حاجاته .

ومما يظهر من هذه العبارة أن هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه وهي التي تحمل معاني الصفات كالكريم والرحيم والعزيز . وهناك أسماء أخرىٰ خاصة يسمىٰ بها ـ سبحانه ـ دون غيره من سائر خلقه مثل : الرحمٰن والديّان والقدوس والمتكبر والخالق والباريء فإنها أسماء لا يسمىٰ بها غيره وهذا ما يؤيده ما جاء في العبارة من الضمير المجرور باللّام (له) فإنها تدّل على الملكية ، وذلك يعني أن هناك أسماء أكرم على الله من غيرها ؛ لأن (أكرم) تدل على التفاوت والتفضيل .

ومما ورد في هذا المعنىٰ عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ما روي في مرفوعة أبي هاشم الجعفري قال : كنت عند أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ فسأله رجل فقال : أخبرني عن الرب ـ تبارك وتعالى ـ له أسماء وصفات وفي كتابه وصفاته هي هو ؟ فقال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ إن لهذا الكلام وجهين إن كنت تقول هي هو إنه ذو عدد وكثرة فتعالى الله عن ذلك وإن كنت تقول هذه الأسماء لم تزل فإن لم تزل محتمل معنيين فإن قلت لم تزل عنده في علمه وهو مستحقها فنعم ، وإن قلت لم يزل تصويرها وهجائها وتقطيع حروفها ، فمعاذ الله أن يكون معه شيء بل كان الله ولا خلق ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه يتضرعون بها إليه ويعبدونه وهي ذكره ، وكان الله ولا ذكر ، والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل والأسماء والصفات مخلوقات والمعاني والمعنىٰ بها هو الله والذي لا يليق به الإختلاف ولا الإئتلاف وإنما يختلف ويأتلف المتجزىء فلا يقال الله مختلف ولا مؤتلف ولا الله كثير وقليل ، ولكنه القديم في ذاته لأن ما سوىٰ الواحد متجز والله واحد لا متجز وكل متجز أو متوهم بالقلة والكثرة فهو

مخلوق دال على خالق له فقولك إن الله قدير أخبرت أنه لا يعجزه شيء فنفيت بالكلمة العجز وجعلت العجز سواه وكذلك قولك عالم إنما نفيت بالكلمة الجهل وجعلت الجهل سواه ، فإذا أفنىٰ الله الأشياء أفنىٰ الصورة والهجاء والتقطيع ولا يزال من لم يزل عالماً فقال الرجل : كيف سميناه ربّنا سميعاً ؟ فقال : لأنه لا تخفىٰ عليه خافية لأنه لا يخفىٰ عليه ما يدرك بالأسماع ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس ، وكذلك سميناه بصيراً لأنه لا يخفىٰ عليه ما يدرك بالأبصار من لون أو شخص ولم نصفه ببصر لحظة العين وكذلك سميناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأخفىٰ من ذلك وموضوع النشو منها والعقل الشهوة للسفاد والحدب على نسلها وأقام بعضها على بعض ونقلها الطعام إلى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفاز فعلماً أن خالقها لطيفٌ بلا كيف وإن الكيفية للمخلوق المكيف ، وكذلك سميناه ربّنا قوياً لا بقوة البطش المعروفة من المخلوق ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه ولا احتمل الزيادة ، ومتىٰ احتمل النقصان وما كان ناقصاً امتنع قدمه وما كان قديم كان عاجزاً ، فربّنا تعالى لا شبه له ولا ضد ولا ند ولا كيف ، ولا نهاية ، ولا تصاريف محرم على القلوب أن تمثله ، وعلى الأوهام أن تحده ، وعلى الضمائر أن تكونه جلّ وعزّ عن أداة خلقه وسمات بريته وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وضمن هذا الإطار ورد قوله تعالى : **﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾**[١٧] ذكر المفسرون معنىٰ الأسماء الحسنىٰ هي الأسماء التي تليق به ، وهي الأسماء الراجعة إلى ذاته أو فعله نحو العالم العادل والسميع البصير المحسن المجمل ، وكل اسم لله فهو صفة مفيدة ؛ لأن اللقب لا يجوز عليه . وأمر

(١٧) سورة الأعراف ، آية : ١٨٠ .

تعالى أن يدعوه خلقه بها وأن يتركوا أسماء الجاهلية وتسميتها أصنامهم آلهة ولاتاً وغير ذلك . قال ابن جريج : إشتقوا العزىٰ من العزيز ، واللات من الله ، وكان ذلك إلحاداً . ذكر ذلك الشيخ في التبيان .

وقال السيد الطباطبائي في الميزان في تفسير هذه الآية إن كون إسم ما من أسمائه ـ تعالى ـ أحسن الأسماء أن يدل على معنىً كمالي غير مخالط لنقص أو عدم ، مخالطة لا يمكن معها تحرير المعنىٰ من ذلك النقص والعدم وتصفيته ، وذلك في كل ما يستلزم حاجةً أو عدماً وفقداً كالأجسام والجسمانيات والأفعال المستقبحة أو المستشنعة ، والمعاني العدمية . فالإسم بحسب اللغة ما يدل به على الشيء سواءً أفاد مع ذلك معنىً وصفياً كاللفظ الذي يشار به إلى الشيء لدلالته على معنىً موجود فيه ، أو لم يفد إلاّ الإشارة إلى الذات كزيد وعمرو ، وخاصة المرتجل من الأعلام ، وتوصيف الأسماء الحسنى ـ وهي مؤنث أحسن ـ يدل على أن المراد بها الأسماء التي فيها معنىٰ وصفي دون ما لا دلالة لها إلاّ على الذات المتعالية فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك ؛ ولا كل معنى وصفي ، بل المعني الوصفي الذي فيه شيء من الحسن ، ولا كل معني وصفي حسن بل ما كان أحسن بالنسبة إلى غيره إذا اعتبرا مع الذات المتعالية : فالشجاع والعفيف من الأسماء الحسنة لكنهما لا يليقان بساحة قدسه لأنبائهما عن خصوصية جسمانية لا يمكن سلبهما عنهما ، ولو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقها عليه كالجواد والعدل والرحيم .

وبعد هذا نقول ينبغي أن لا يغيب عن ذهن القارىء ما أشرنا إليه في صدر البحث عن هذه الأسماء الحسنىٰ والكريمة التي أشارت إليها العبارة والذي قلنا فيه بأن من الأسماء ما يكون مشتركاً بين الخالق والمخلوق ، ومنها ما يكون خاصاً به ـ تعالى ـ .

قال عليه السلام :

[يٰا ذَا الْمَعْرُوفُ الَّذي لاٰ يَنْقَطِعُ أَبَداً ، يٰا مُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيُوسُفَ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ ، وَمُخْرِجَـهُ مِنَ الْجُبِّ ، وَجٰاعِلَهُ بَعْـدَ الْعُبُودِيَّـةِ مَلِكاً ، يٰـا رٰادَّ يُوسُفَ عَلىٰ يَعْقُوبَ بَعْدَ أَنْ ابْيَضَّتْ عَيْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظيمٌ ، يٰا كٰاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلاٰءِ عَنْ أَيُّوبَ ، يٰا مُمْسِكَ يَد إِبْراهيمَ عَنْ ذَبْحِ إِبْنِهِ بَعْدَ أَنْ كَبُرَ سِنُّهُ ، وَفَنِيَ عُمْرُهُ ، يٰا مَنِ اسْتَجٰابَ لِزَكَرِيّا فَوَهَبَ لَـهُ يَحْيىٰ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ فَرْداً وَحيداً ، يٰا مَن أَخْرَجَ يُونُسَ مِنْ بَطْنِ الْحوُتِ ، يٰا مَنْ فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَني إِسْرائيلَ فَأَنْجٰاهُمْ ، وَجَعَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْمُغْرَقينَ].

اللُّغَةُ

أبداً : ظرف زمان منصوب ، وهي تدل على الزمان الغير محدود .

مقيض : قيض الله فلاناً لفلان جاء به وأتاح له وقيض له قريناً هيئه وسببه من حيث لا يحتسبه وفي التنزيل العزيز قوله ـ تعالى ـ : ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيض له شيطاناً﴾[1] قال الزجاج : أي نسبب له شيطاناً

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٣٦ .

يجعل الله ذلك جزاءه . وقال بعضهم : لا يكون (قيض) إلّا في الشر ، واحتج بالآية . قال ابن بري : ليس ذلك بصحيح ، فإنه قد نسب إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلّا قيض الله له من يكرمه عند سنه) . وكلامه ـ عليه السلام ـ في فقرة الدعاء شاهد بذلك .

الركب : قال تعالى : ﴿**والركب أسفل منكم**﴾[2] لجواز أن يكونوا ركب خيل ، وأن يكونوا ركب إبل ، وهو إسم للجمع وليس بتكرير راكب وقال الأخفش هو جمع وهم العشرة فما فوقهم ويقال أن الركب قد يكون للخيل والإبل معاً قال السليك بن السلكة :

ما يدريك ما فقري إليه　　إذا ما الركب في نهب أغاروا

القفر : والقفرة الخلاء من الأرض وجمعه قفار ويقال أرض قفر وقيل : القفر لا مفارة ولا نبات بها ولا ماء وأقفر الرجل صار إلى القفر وأقفر ذهب طعامه وجاع ويقال أقفر فلان من أهله إذا إنفرد عنهم وبقي وحده قال عبيد :

أقفر من أهله عبيد　　فاليوم لا يبدي ولا يعيد

الجب : البئر مذكر قيل هي الجيدة الموضع من الكلأ وقيل هي البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر وقيل لا تكون جباً حتى تكون مما وجد لا مما حفره الناس وبئر مجيبه الجوف إذا كان وسطها أوسع منها . وقالت الكلابية : الجب القليل الواسعة .

كظيم : كظم الرجل غيظه اجترعه وفي التنزيل العزيز قال تعالى :

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٤٢ .

﴿والكاظمين الغيظ﴾[٣] قال ثعلب : يعني الحابسين الغيظ لا يجازون عليه وكظم البعير إذا أمسك عن السجرة فهو كاظم قال الراعي :

فأفضن بعد كظومهن السجرة   من ذيْ الأبارق إذ رعين حقيلا

وابل كظيم لا تجتر والكظم مخرج النفس ويقال كظمني فلان ، وأخذ بكظمه أي بحلقه وأخذ الأمر يكظمه إذا غمه قال أبو غراش :

وكل إمرىءٍ يوماً إلى الله صائر   قضاء إذا ما كان يؤخذ بالكظم

وفي التنزيل قال تعالى : ﴿ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾[٤] والكظوم السكوت وكظم على غيظه سكت .

البيان

بدأ في هذه الفقرة بسؤال ربّه ومناجاته ببعض أسمائه وصفاته التي تفرد بها ، وهذا الكلام مرتبط كل الإرتباط بالفقرة السابقة .

فعندما يذكر المعروف يتبادر الذهن إلى فعل الخير غير مشوب بالشر . أما قوله ـ عليه السلام ـ : (يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً) فالمعروف إسم جنس تحته أنواع مختلفة وجهات متعددة ، خصوصاً إذا كان هذا المعروف من الله للعبد ، فمعروفه سبحانه لا ينحصر في جهة دون أخرىٰ ، ولا ينحصر في نوع دون آخر وهذا ما أشار إليه في هذا الكلام ؛ وذلك لأنه قد يتوقف من جهة ولكنه لا يزال متوفراً من جهات أُخرىٰ .

ويضيق الإنسان ذرعاً إذا قتّر عليه رزقه من جهة ، ويصاب بخيبة

---

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٣٤ .

(٤) سورة النحل ـ وسورة الزخرف ، الآية : ٥٨ ، ١٧ .

أمل ، ويصر المرة بعد الأخرىٰ على حصول رزقه من تلك الجهة ، في حين أن الله قد أراد له رزقه من جهة أخرىٰ ولا يريد للإنسان إلّا الخير ، ولكن الإنسان لا يتكلف عناء البحث عن ذلك . ومبعث ذلك كله هو الرأفة والرحمة بالعباد لأن سبحانه خلق الخلق وجعلهم كحلقات إتصال مع بعضهم البعض يحتاج كل منهم إلى الآخر ، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير والعالم والجاهل والملك والسوقة ، هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ فقد قررنا فيما سبق من مباحث الكتاب أنه سبحانه لم يكل الإنسان إلى نفسه لئلّا يهلك ، فمعروفه بادٍ للعيان على الإنسان كل الإنسان ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والحر والعبد ، والكبير والصغير ، والذكر والأنثىٰ والأبيض والأسود . وفي كل حالٍ في القيام والقعود ، والحركة والسكون ، واليقظة والنوم .

أما معروف الإنسان فإنه ينقطع على كل حال وقابل للإنقطاع في أي حال . علىٰ أن هذا المعروف الإنساني لا شك في كونه محدوداً من حيث الزمان والمكان .

أما من حيث الزمان فإنه لو سلمنا أن ذا المعروف من بني الإنسان وإن توفرت له أسباب الغنىٰ لكي ينفق ، وأسباب الرأفة والرحمة لكي يحنو على الضعفاء ، فإن ذلك كله مرهون بقاؤه ببقاء ذي المعروف ، فإذا مات فقد انقطع ، وهذا في أقصىٰ حسن الظن بأهل الخير .

فالمعروف جنس ـ كما قلنا ـ يأخذ أطرافاً متشعبة فمنه معروف الدنيا ومنه معروف الآخرة ، ومنه المعروف المادي ، ومنه المعروف المعنوي ، وكل ما يمكن أن يستفيد منه الإنسان من طرف آخر فهو معروف .

ولقد تعرض بعد ذلك إلى سلسلة من الأحداث التي تتعلق بالأنبياء

خاصة ؛ لأنهم النموذج الحي ، لعرض سيرة الإنسان المثالي الذي يصلح أن يكون قدوة للناس جميعاً .

فهو يسأل ربّه أن ينجيه من أهوال الدنيا وكرباتها كما أنجىٰ هؤلاء الأنبياء الذين استعرض ما جرت عليهم من محن بلمح خاطف في أسلوب ساحر فاستمع لما يقول : (يا مقيض الركب ليوسف في البلد القفر ، ومخرجه من الجب ، وجاعله بعد العبودية ملكاً ، يا راد يوسف على يعقوب ، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) .

يوسف الصديق بين الحرج والفرج

وبداية هذه المحنة أن يوسف ـ عليه السلام ـ عندما أجمع إخوته على أن يلقوه في غيابة الجب ، هذه الأزمة بدأت بـذلك التصـرف الذي أضـر بيوسف بدافع من الغيرة والحسد بسبب حب أبيه له مع أخيـه . وذهبوا بـه وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وكان عمقه سبعين ذراعاً ، وشفيـره ضيقـاً وأسفله واسعاً . وكـان فيه قليـل من المـاء ، فجعلوا يجـردونـه من قميصه ، وهو يتوسل بهم أن يتركوه عليه ، ليتوارىٰ بـه ، وهم في جوابهم يقولون مستهزئين به . ادع الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر يواروك ويؤنسـونك يـا صاحب الـرؤيا الكـاذبة ، أين الكـواكب الذين رأيتهم لـك ساجدين حتىٰ يخلصوك من أيدينا ؟ إلى أن جردوه من قميصه ودلّوه في البئر عارياً ، ولما بلغ نصف البئر قطعوا الحبل وأسقطوه إلى قعره رجاء أن يموت بسقوطه ، فأوىٰ يوسف ـ عليه السلام ـ بصخرة كانت بقعـره ، وقام عليهـا ونادىٰ إخوتـه وقال لهم : (إن لكـل ميت وصية ووصيتي إليكم إذا رجعتم إذكـروا وحـدتي ، وإذا أمنتم فـاذكـروا وحشتي ، وإذا طعمتم فـاذكـروا جوعي ، وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا رأيتم شاباً فاذكـروا شبابي يـا إخوتي) إلى آخر ما يناديهم بـه من أمثال ذلـك وهو يختنق بعبـرته إلى أن

قال : (إقرأوا يعقوب عني السلام) .

وأقام يوسف ليلته في البئر يبكي ويناجي ربّه بقوله : (يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، إرحم ضعفي وقلة حيلتي ، وصغري ، ولم يزل كذلك حتى مكث في الجب ثلاثة أيام ، يؤنسه جبرائيل ـ عليه السلام ـ ويطعمه من ثمار الجنة . ولما كان اليوم الرابع مرت بقرب الجب قافلة كان أصحابها قد خرجوا من قبل مدين يريدون مصراً ، فأخطؤا الطريق ، وانطلقوا يهيمون حتى نزلوا بقرب البئر ، وكانت البئر بعيدة عن العمران عميقة القعر ـ ثم بعث القوم رجلاً إسمه مالك إلى الجب فأدلىٰ دلوه فيه ليستسقي الماء ، فتشبث يوسف ـ عليه السلام ـ بالدلو ، ولما سحب مالك وأصحابه الدلو وأخرجوه إذا بغلام من أحسن الناس خلقة وأصبحهم وجهاً كأنه البدر ليلة تمامه وكماله ؛ وأعجب مالك وأصحابه بحسن يوسف ـ عليه السلام ـ وصباحة منظره ، وأحبه حباً شديداً ، ونادىٰ في أصحابه بالبشارة كما قال تعالى : ﴿**وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرىٰ هذا غلام**﴾(٥) وعزم مالك ورفاقه على إخفائه عن زملائهم من التجار الذين بعثوا بهم إلى الماء ﴿**وأسروه بضاعة**﴾ لهم حذراً من شراكة سائر التجار لهم فيه (والله عليم بما يعملون) .

---

(٥) سورة يوسف ، آية : ١٩ .

العبودية ظاهرة إجتماعية طبيعية

قبل الخوض في هذا الموضوع هناك أسئلة تلح بتواردها على ذاكرة الإنسان ، نطرح بعضاً منها لكي يتم بها إستشراق المعنىٰ وتشخيصه بصورة أفضل .

ما هي العبودية ؟

كيف ظهرت في المجتمع الإنساني ؟

هل هي ظاهرة خلقت مع الإنسان ، أم هي طارئة حلت بالمجتمعات الإنسانية خلقتها ظروف معينة ؟

ما هي أشكال العبودية ؟

ما هي النظرة العامة لظاهرة العبودية ؟

وأخيراً ما هي النظرة الإسلامية لظاهرة العبودية ، وكيف حاول الإسلام أن يقلص من هذه الظاهرة ؟

ثم ما هو موقف المجتمعات المعاصرة من هذه الظاهرة ؟

العبودية بمعناها الأولي هي تسخير إنسان لآخر بدون عوض والعبد

هو ذلك الإنسان الذي سخر لخدمة غيره ، وإطاعة أوامره ونواهيه بصورة مطلقة بحيث لا يستطيع إبداء أي رفض أو معارضة . كذلك .

وهناك أنواع من العبودية متعددة ، منها ما يكون بفعل الظروف الإجتماعية ، ومنها ما يكون بفعل الطبيعة ، ومنها ما يكون بمحض الفطرة .

عندما خلق الله الإنسان ليسلمه الأمانة والمسؤولية في الأرض أكرمه ونعمه ولم يخلقه عبداً بل حراً ذا إرادة تتجسد فيها طبيعة الخير . ولكن عندما تمرد هذا الإنسان علىٰ طبيعته الخيرة ومسؤوليته كسيدٍ كريم في هذا الكون أصبح عبداً لعناصر شتىٰ وانعطفت الإنسانية عبر تاريخها الطويل منذ أن ظهرت العبودية لغير الله وتنكرت البشرية لنعمه الظاهرة والباطنة .

ويمكننا بعد هذا القول ـ بالنظر إلى الغرائز الإنسانية من ميول ونوازع ـ تصنيف كثير من الأقسام في أرقام متعددة .

١ ـ العبودية لله ـ سبحانه وتعالى ـ وهي العبودية الحقيقية ، ولكنها هي أصل الحرية الواسعة التي لا تعترف إلّا بعبودية لجهة واحدة ، وهي أيضاً تتمشىٰ مع الفطرة التي أرادها الله للناس .

٢ ـ وعبودية الشهوات والغرائز المشوشة بما في ذلك من نزوات ورغبات ، وأمام هذه الغرائز يظهر ضعف الإنسان أو قدرته على كبح جماح عبادة الشهوة ، وربما أطلق عليها أيضاً عبودية شهوانية أو عبودية الشهوة وبها يتحول الإنسان إلى مخلوق مشوش ويكون أسوء حال من الحيوان لأنه غلّب شهوته على عقله وإرادته .

٣ ـ عبودية الإنسان للإنسان وذلك بحسب ظروف معينة وهذه الحالة تأتي نتيجة للتخلف العقلي والطمع الدنيوي ـ كما حصل في عهد فرعون ـ

إذ جعل نفسه إلٰهاً واتبعه كثيرون وعبدوه ، وهذا الشكل من العبودية لا عذر للإنسان فيها وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة بالخصوص من ظواهر العبودية في قوله ـ تعالى ـ : **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾**[٦] .

٤ ـ عبودية الإنسان لأفكاره بحسب ما يمليه مزاجه وهنا تظهر النظريات الكثيرة المخالفة للفكر الإنساني العام وفطرته ، وللسنن الكونية ، فتراه يعبدها ولا يحيد عنها ويحولها إلى عقيدة لا تقبل الجدل والتغيير بعد أن كانت محض عقدة كما هو حاصل بالفعل في النظريات العلمية والتاريخية والفلسفية ؛ فلقد تأثرت بها كثير من المجتمعات واحتضنتها وعبدتها ، كالدارونية والماركسية والوجودية والبراغماتية (المذهب العملي) . . . وكثير غيرها من الأفكار التي صيغت في شكل نظريات خالفت الفطرة الإنسانية وهذا ما اصطلحوا عليه بالعبودية الفكرية ، أو عبودية الفكر السلبي .

وهناك أنواع شتى من العبودية واكبت الإنسان منذ نشأته على وجه الأرض ، وقد انتشرت هذه الظاهرة بشكل مروع في العهد اليوناني والبيزنطي والإمبراطورية الفارسية والرومانية ، خصوصاً إستعباد المرأة التي اعتبرها الفكر الغربي حشرة ضارة ينبغي التخلص منها . ولما قال الإسلام قولته فيها وأنزلها في المكان السامي من المجتمع الإسلامي أخذوا ينعقون ناسين أو متناسين ما حلّ بالمرأة ، فينادون بأن الإسلام قد هضمها حقها . ونرجيء الحديث عن هذا الموضوع إلى مكانه المناسب .

---

(٦) سورة النساء ، آية : ٩٧ .

وكم رفعت من الشعارات والنظريات الإلحادية الوضعية لازمة العبودية المنتشرة في المجتمعات، فالماركسية اعتبرت العبودية وطبقة العبيد ظاهرة ضرورية لإستكمال مفردات الصراع الإجتماعي وآلياته، فظهور العبيد كطبقة صاحبت الطبقة الإقطاعية وطبقة الإقطاع وملّاك الأراضي وتسخير العبيد الأقنان في زراعتها والعمل بها شيء ضروري لإستمرار حياة الإنسان .

فالطبقة الإقطاعية عند الماركسية ضرورية في تطور التاريخ ، وحتمية الصراع الإجتماعي الذي يدور في فلك النشاطات الإقتصادية وجعل الإقتصاد والعامل الإقتصادي سبباً وحيداً في تطور الصراع وحتمية إنتهائه بانتصار الشيوعية كطبقة نهائية تلغي جميع الطبقات الأخرىٰ .

أما الإسلام فقد حاول تصفية هذه الظاهرة بأسلوب مهذب مع مراعاة الشعور الإنساني ، والنزعات الإنسانية المتمثلة في حب السيطرة على الغير .

ولقد رغب الإسلام في عتق الرقاب واعتبره عبادة من العبادات التي تنضم إلى مصاف العبادات الأخرىٰ ، فقد فتح له أبواباً وسبب له أسباباً لكي يقلل من عدد العبيد والإماء ، حفظاً لكرامة الإنسان التي اعتبرها الإسلام من أهم أهدافه النبيلة .

وهناك الكفارات المتعددة إضافة إلى هذا الترغيب فرضها الشارع المقدس بصورة إلزامية مثل كفارة الظهار ، وكفارة من أفطر يوماً من شهر رمضان ، ومن أفطر يوماً في قضائه وغير ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى عتق الرقاب .

ثم طرح الإسلام أيضاً موضوع المكاتبة المشروطة والمطلقة والتدبير الذي ينعتق به العبد بعد وفاة مولاه .

يوسف في خضم الأزمات

ويتابع القرآن عرض تلك العقبات والأزمات التي أصابت يوسف من بيعه وشرائه والذهاب به إلى مصر ، وبيعه من عزيز مصر ودخوله إلى بيته ، حيث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل هذه القصة التي جمعت كثيراً من المواعظ ، وأصبحت مضرباً للأمثال في النزاهة والعفة إذ وقعت إمرأة العزيز في حب يوسف وأخذت تراوده عن نفسه فاستعصم وأبىٰ وجرىٰ الأخذ والرد إلى أن أدّىٰ ذلك إلى زجّه في السجن .

وهنا تختم القصة المأساة بعد العرض المطول للأحداث المتابعة فتنتقل إلى إيداعه السجن ، ثم خروجه منه بعد أن سأل الله وتوسل إليه ؛ وذلك لما رأىٰ الملك الرؤيا فأولها إليه يوسف فأعجبه كلامه فمكنه من أمور الدولة وخصوصاً خزينتها لما عرف عنه من أمانته وحسن تدبيره .

وبعد مضي سنة على إقامة يوسف ـ عليه السلام ـ دعاه الملك وتوجه بتاج بديع ، وختمه بخاتمه ، وردّاه بسيفه ، وأمر بوضع سرير له من ذهب مرصع بالدر والياقوت ، وعليه كلة من استبرق ، فقال له يوسف ـ عليه السلام ـ أما السرير فأشد به ملكك ، وأما الخاتم فأدرأ به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولباس آبائي . قال الملك : فقد وضعته إجلالاً لك وإقراراً

بفضلك ، ثم أمره أن يخرج على الناس متوجاً فيجلس على سرير الملك ويحكم البلاد كيف ما شاء ، ودان له الحكام ، وأخذ يحكم بالعدل بين الرعايا ، ويسير بينهم بأحسن سيرة ، حتىٰ أحبوه كلهم ، رجالهم ونساؤهم كما قال تعالى : ﴿**وكذلك مكنا ليوسف في الأرض**﴾[٧] أي يتصرف فيها ﴿**حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين**﴾[٨] الطيعين الصابرين كيوسف الصديق ـ عليه السلام ـ ﴿**ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[٩] ويجتنبون السيئات والقبائح فينعم عليهم بكلا الأجرين .

وبعد أن انتشل يوسف أهل مصر من الهلاك المحقق وهي السنين العجاف بحكمته أقبل على الملك وقال له : ما ترىٰ فيما خولني ربّي من ملك مصر وأهلها ؟ أشر علينا برأيك ، فإني لم أصلحهم لأفسدهم ، ولم أنجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم ، ولكن الله تعالى أنجاهم على يدي ؛ قال له الملك : الرأي رأيك ؛ قال يوسف : إني أشهد الله وأشهدك أيها الملك إني قد أعتقت أهل مصر كلهم ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم ورددت عليك أيها الملك خاتمك وسريرك وتاجك على ألّا تسير إلّا بسيرتي ، ولا تحكم إلّا بحكمي ؛ قال الملك : إن ذلك لزيني وفخري ألّا أسير إلّا بسيرتك ولا أحكم إلّا بحكمك ؛ ولولاك ما قويت عليه ولا أهتديت له ولقد جعلت لي سلطاناً عزيزاً لا يرام ، وأنا أشهد ألّا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنك رسوله ، فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين .

ثم إنه لما اشتد الجدب في بلاد مصر كان القحط والغلاء قد سريا

---

(٧) سورة يوسف ، آية : ٥٦ .

(٨) سورة يوسف ، آية : ٥٦ .

(٩) سورة يوسف ، آية : ٥٧ .

إلى الشامات وفيها ديار كنعان مسكن يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده ، وبينهم وبين مصر مسافة إثني عشر يوماً أو ثمانية عشر يوماً ، فضاق المعاش على الشامات وبلاد فلسطين ونواحيها ، فصار الناس يقصدون مصراً يمتارون بها الطعام ويشترون من خزائن يوسف ـ عليه السلام ـ ، وهو بنفسه يتولى البيع . وكان يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده نزولاً ببادية يكثر فيها المقل ، ولما ضاقت بهم الأمور كسائر الناس ؛ جمع يعقوب ـ عليه السلام ـ بأولاده وأمرهم بالذهاب إلى مصر كغيرهم ليشتروا طعاماً من العزيز ، على أن يحملوا ثمنه من المقل والنعال والإدم ، فقالوا : يا نبي الله كيف يطيب قلبك أن ترسلنا إلى الفراعنة وأنت تعلم عداوتهم لنا ولا نأمن أن ينالهم مناشر ؟ قال ـ عليه السلام ـ : بلغني أن ولي أهل مصر ملك عادل ، فاذهبوا عليه واقرئوه عني السلام ، فإنه يقضي حاجتكم ؛ ثم جهزهم للسفر ، وترك عنده بنيامين أخا يوسف ـ عليه السلام ـ من أبيه وأمه ليتسلىٰ به ويقوم الولد بحوائج أبيه .

وبعد الإختصار الشديد لكثير من العناصر في هذه القصة التي أسهب فيها القرآن ، من مجيء إخوة يوسف ، ودخولهم عليه ، ومعرفته لهم ، وأمر يوسف بالتكريم لهم بزيادة عطائهم ، ثم رجوعهم إلى أبيهم ودخولهم عليه ، ورؤية البضاعة التي ردت إليهم ، ومعاملته مع أخيه بنيامين ، ثم تعريف إخوته بنفسه وإذنه لهم بالإنصراف مرة ثانية إلى كنعان عندما أرسل معهم القميص حيث قال لهم : **﴿آذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾**[١٠] .

وأتىٰ يهودا بالقميص ليسبق إخوته في الوصول إلى أبيه وقال : أنا

---

(١٠) سورة يوسف ، آية : ٩٣ .

الذي أحزنت أبي بحمل القميص الملطخ بالدم إليه وأفرحه كما أحزنته . ولما دخل على يعقوب أخرج القميص فألقاه على رأسه فارتد في الحال بصيراً ، ولما أقبل إخوته معتذرين من سوء صنيعهم بيوسف تائبين مستغفرين عن ذنوبهم التي ارتكبوها فيه قالوا : ﴿**يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين**﴾[11] واستغفر لهم يعقوب كما هي أخلاق الأنبياء وأمر يعقوب أولاده بالحال للتجهز في يومهم للخروج من فلسطين والتوجه إلى مصر بكل سرعة فبلغ الخبر يوسف فتجهز بجنده وعساكره للقاء أبيه ولما أن تقابلت القافلتان وتراءىٰ كل منهما للآخر دهش يعقوب عجباً وحيرةً بكثرتهم وحسن زينتهم وكان معهم جبرائيل فسأله عن يوسف هل هو فيهم ؟ فقال جبرائيل ـ عليه السلام ـ هو ذلك الذي فوق رأسه الظلة ، فلما نظر إليه من بعيد لم يملك نفسه عن النزول من بعيره على الأرض ، وجعل رغم شيخوخته وضعفه يهرول ويمشي مسرعاً على قدميه ، متوكئاً على يهوذا وبلغ خبر نزوله يوسف فنزل هو أيضاً من فرسه على قدميه ، وجعل كل منهما يعدو راكضاً نحو الآخر إلى أن إلتقيا وتعانقا وارتفعت الزفرات وأصوات الشهيق والبكاء ، وابتدأ يعقوب ـ عليه السلام ـ بالسلام على إبنه يوسف وقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان فردّ يوسف سلامه وهو يزفر ويبكي مثله شوقاً وسروراً .

ثم إن ملك مصر توفي بعد مدة ، وذلت زليخا وهانت وكان مما قالته في حالتها تلك : (سبحان من جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً) وبلغ قولها هذا أسماع يوسف فرق لها ، وألقىٰ الله في قلبه عطفاً عليها فتزوجها وانقلب عطفه مع الأيام حباً لها ، حتى افتتن بها أكثر

---

(١١) سورة يوسف ، آية : ٩٧ .

مما افتتنت به ، وصار يحبها حباً شديداً حتىٰ أصبح لا يقر لـه بدونها قرار ، وأمـا زليخا فقـد جمعت بعد الـزواج إلى حب يوسف حب الله سبحـانه ، فعمق إيمانها وقويت رغبتها في إرضاء ربّها فجعلت أيامها أيام صلاة وعبادة وصارت تختلي بنفسها لتتعبد إلى الله سبحانه وتناجيه .

الحزن وابيضاض العين

وقبل أن نختم سيرة هذا النبي الكريم نريد أن نستجلي كيف أثر الحزن على يعقوب حتىٰ ابيضت عيناه . وما آثار الحزن والبكاء وابيضاض العين على الرؤية ؟ ولقد ذكر هذه الظاهرة التي ألمت بيعقوب الكتاب العزيز في قوله تعالى : **﴿وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾**[١٢] .

قال الزمخشري في تفسيره : الأسف هو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه . وقال : إنه قد ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قوله : (لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلاّ أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ ألا ترىٰ يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال : **﴿يا أسفي﴾** أما قوله تعالى : **﴿وابيضت عيناه﴾** إذا كثر الإستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر . قيل قد عمي بصره ، وقيل قد كان يدرك إدراكاً ضعيفاً والحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض ، فكأنه حدث من الحزن . قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى

---

(١٢) سورة يوسف ، آية : ٨٤ .

حسن لقائه ثمانين عاماً ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب .
وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : (أنه سأل جبرائيل ـ عليه السلام ـ ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ قال : وجد سبعين ثكلىٰ قال : فما كان له من الأجر قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله قط) .

وقال الراغب في المفردات : الأسف الحزن والغضب معاً ، وقد يقال لكل واحدٍ منهما على الإنفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الإنتقام ، فمتىٰ كان ذلك على من دونه إنتشر فصار غضباً ، ومتىٰ كان على من فوقه إنقبض فصار حزناً ، أما ابيضاض العين فهو سوادها ، أي ابيضاض السواد وهو العمىٰ وبطلان الإبصار .

والبياض يأتي بفعل البكاء من الحزن وليس البكاء من الفرح ؛ لأن البكاء من الفرح لا يجامع العمىٰ ، بل ربما صار على العكس من ذلك ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿**اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بي يأتي بصيراً . . .**﴾ الآية[13] ؛ لأن عنصر المفاجأة في الفرح أمر مهم فلا يبعد أن هذه الدموع الباردة المعبر عنها (بالقر) لها أثر في حل كثير من العقد النفسية والفسيولوجية .

إن غدة الدمع تفرز باستمرار فتطهر العين ، وترطبها تغطيها بريقها الخاص ولكن أين المصرف ؟ إن هناك طريقاً خاصاً يصرف مفرز الدمع إلى الأنف ، فإذا زادت الكمية طفحت إلى الخارج كما يحدث في البكاء قال تعالى : ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾[14] .

---

(١٣) سورة يوسف ، آية : ٩٣ .

(١٤) سورة المائدة ، آية : ٨٣ .

ونتساءل هنا ما علاقة التأثر والخشوع بالبكاء وإفراز هذه الغدة الدمعية ؟

إن النفس تحتاج إلى غسل وإلى تطهير كأي عضو ، وما هذه الحالة إلّا تطهيراً من الذنوب كما يطهر الدمع كرة العين ، إن حالة الخشوع والتأثر هي حالة وجدانية إنفعالية نتيجة معرفة روعة التصميم ودقة البناء ، وعظمة القدرة ، حيث تخطط يد الإرادة الحكيمة وتحور وتنسق على كيفية مذهلة وينتقل هذا التأثر عبر أعصاب معينة فتدعو هذه الغدة إلى الإفراز فتفرز الدمع الهتون ، حيث تصل النفس إلى مرحلة تعجز عن التعبير فيعبر البكاء . وهذه الحالة النفسية الوجدانية هي حال العارفين الصالحين العلماء العاملين ﴿**ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾[١٥] إن المنظر الجميل يهيج الرؤية والصوت الجميل يهيج السمع ، والرائحة الجميلة تهيج الشم والطعم اللذيذ يهيج غدد اللعاب ، وكذلك المعنىٰ الجميل فإنه يثير الخواطر ويفرز الدمع[١٦] .

وبحسب ما تقدم ندرك أن البكاء وجريان الدمع له فوائد عديدة إلّا إن الإفراط فيه يعود بأثر عكسي فإن البكاء الذي إستمر فيه يعقوب ثمانين عاماً على ما يروىٰ لا شك أنه يحدث أثراً كبيراً في عينه خاصة وفي جسمه عامة فالعين لها البياض بدل السواد والجسم له الضعف والإنهيار وهذا من الحقائق الظاهرة التي لا جدل فيها ولا مراء .

وعندما يستعرض الحسين ـ عليه السلام ـ في دعائه هذه السيرة في عبارات أشبه بالإشارات فإنه يريد أن يعرفنا على الأمثلة الرائعة التي ضربها

(١٥) سورة الإسراء ، آية : ١٠٩.

(١٦) الطب محراب للإيمان : ص٢٠٨ .

يوسف للناس جميعاً من خلال حياته في أيام المحنة والتي من أهمها :

أولاً : الصبر على البلاء وتفويض الأمور في ذلك إلى الله والثقة بـه ثقة تامة .

ثانياً : العفو عند المقدرة ، وتظهر هذه المسألة فيما كان بين يوسف وإخوته .

ثالثاً : عفة الفرج وصلابة الإيمان وذلك عنـدما أتيحت ليـوسف كل الأسباب لممارسة جريمـة الزنـا ، ولكنه أعـرض عن ذلك ونـزّه نفسه عن ارتكاب هذه الجريمة .

وهناك كثير من العبر للمعتبر تنطوي في هذه السورة أشار إليها تعالى في قوله : **﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾**[١٧] .

ومن الغريب بعد ذلك أن تظهر فئة تنتحـل الإسلام وهي تنكـر هذه السورة بأنها ليست من القرآن مدعية ان هذه تمثل قصة غراميـة وقعت بين شخصين ، ونحن ننزّه عنها كلام الخالق بناءً على ما فسّروا به قوله تعالى : **﴿ولقد همّت به وهم بها﴾**[١٨] بأن يوسف قد كاد أن يمارس الجريمة ووقع بين شقي المرأة إستهانة بكرامة نبي الله ـ عليه السلام ـ . وقد ذكر الرازي في تفسيره الكبير وجوهاً لطيفة في الرد على مثل هذه الأقوال وتبرئة يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ طويناها خوف الإطالة ، ليرجع إليها من أحب .

---

(١٧) سورة يوسف ، آية : ٧ .

(١٨) سورة يوسف، آية: ٢٤ .

أيُّوبُ أيام المحنةِ

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا كاشف الضر والبلاء عن أيوب) وكان هذا النبي مضرب المثل في جميل الصبر على المصائب وعظيم الإحتمال للرزايا ، والرضىٰ بقضاء الله ـ سبحانه ـ دون أن يهن إيمانه أو يضعف بالله أمله ، فكانت سيرته عبرة لمن يعتبر ، وعظة لكل متأفف ضعيف . وقد بسط الله له من أرضه الواسعة فكانت له أرض الشام سهلها وجبلها ، بما فيها ، وكان له من أصناف الدواب كلها من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون أفضل منه في العدة والكثرة ، ومن العبيد ما لا يكاد يحصىٰ ، وزاده الله على ذلك كله بأن اصطفاه وجعله نبياً .

وكان لأيوب ـ عليه السلام ـ عشرة أولاد ، سبع بنات وثلاثة بنين ، وكان باراً تقياً رحيماً بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ، ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل ، وكان كثير الشكر لنعم الله مؤيداً لحقه ـ تعالى ـ قدر استطاعته ، ولم يتمكن اللعين إبليس من أن يصيب منه ما يصيب من الأغنياء من التكبر والعزة والغفلة ، والتشاغل بالدنيا ، وكان قد آمن بنبوته ثلاثة أفراد ، أحدهم من أهل اليمن واسمه (يفن) ، واثنان من أهل بلاده اسمهما (بلدد) ، و (صافن) ، وكانوا كهولاً .

وبلغ الأمر بأيوب ـ عليه السلام ـ في العبادة والطاعة لربّه والشكر له ـ تعالىٰ ـ حداً استوجب به الصلوات عليه من الله ـ تعالىٰ ـ ، وملائكة السماوات ، ولما شاعت الصلوات منهم على هذا العبد الصالح سمع اللعين إبليس ذلك فأدركه البغي والحسد ، وصعد إلى السماء ، وجعل يقول : إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثم لم تجربه بشدةٍ وبلاءٍ ، وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاءٍ ليكفرن بك ولينسينك . ثم سأل اللعين ربّه أن يسلطه على أموال أيوب ـ عليه السلام ـ امتحاناً له ، فأجابه الله ـ تعالىٰ ـ إلى ذلك .

وباختصار هبط إبليس ـ لعنه الله ـ وأمر جنوده أن تعيث فساداً في متعلقات أيوب ونشبه من أولاد وأموال وزروع وماشية ، فكان أيوب نعم العبد الصابر المحتسب الشاكر كما وصفه الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه المجيد في قوله : **﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾**(١٩) .

واختلف العلماء في وقت ندائه ومدة بلائه ، والسبب الذي قال من أجله : **﴿اني مسني الضر﴾** .

فعن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن أيوب نبي الله لبث به بلائه ثمانية عشر سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه . وكان يخرج لحاجته فإذا قضىٰ حاجته أمسك إمرأته بيده حتىٰ بلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحىٰ إلى أيوب في مكانه (أركض برجلك) .

وقال الحسن ـ عليه السلام ـ مكث أيوب ـ عليه السلام ـ مطروحاً على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهر تختلف فيه الدواب

---

(١٩) سورة ص ، آية : ٤٤ .

ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير رحمة وهي زوجته صبرت معه وأيوب لا يفتر من ذكر الله والثناء عليه ثم أبتلي في جسده وصار قرحة واحدة وكانت زوجته تعلله بما تأتيه من طعام قبال خدمتها في بيوت بني إسرائيل وقد نقلوا أن أيوب ـ عليه السلام ـ خرّ لله ساجداً يبكي ويقول : ﴿ربِّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾[20] عندما لقي إبليس زوجته رحمة وطلب منها أن تسجد له مقابل شفاء أيوب وعندما أخبرته بكىٰ وسأل الله العافية فأجابه الله تعالى ونودي إرفع رأسك فقد أستجيب لك ، ولما رفع رأسه للسجود نودي (أركض برجلك) فضرب برجله الأرض فنبعت بقدرة الله تعالى عين باردة صافية وأمره الله تعالى بالإغتسال فيها والشرب منها ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾[21] فلما إغتسل فيها وشرب منها أذهب عنه كل ألم وسقم وداء في جسده وجوفه ، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن وأفضل مما كان عليه ، ونزلت عليه حلة من السماء فلبسها ، وجعل يمشي في كل صحة وأحسن عافية ، حتى جلس علىٰ ربوة مشرفة على الطريق .
وأقبلت زوجته رحمة نحو الكناسة فلم تره فيها ، فاستوحشت وتغير حالها ، وجعلت تبكي وتطوف يميناً وشمالاً تطلب زوجها ، إلى أن رآها أيوب ـ عليه السلام ـ وناداها وطلبها إليه ، ولما أقبلت نحوه قال لها : ما تريدين يا أمة الله ؟ فازدادت بكاءً وقالت : أريد ذلك المبتلىٰ الذي كان منبوذاً على الكناسة ، وما أدري ما الذي جرىٰ عليه قال : ما كان منك ؟ فقالت بعلي ، فهل رأيته ؟ قال : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت : وهل يخفىٰ على أحد ربّه ؟ ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه وقالت : أما أنه كان أشبه خلق الله بك حين كان صحيحاً ؛ قال : فإني أنا أيوب الذي أمرتيني أن أذبح لأبليس ،

---

(٢٠) سورة الأنبياء ، آية : ٨٣ .

(٢١) سورة (ص) ، آية : ٤٢ .

وإني أطعت الله تعالى وعصيت الشيطان ، ودعوت الله فردّ علي ما ترين ، ففرحت المرأة وشكرت ربّها ، وشكرها الله تعالى على حسن تبعلها ووفائها لزوجها وصبرها على ما أصابها ، وأرجع عليها وعلى زوجها كل ما تلف منهما من المزارع والمواشي والأملاك ، وأحيا لهما أولادهما وضاعف لهما مثل ذلك في الدنيا ، عدا أجرهما في الآخرة ، كما قال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿**فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرىٰ للعابدين**﴾[٢٢] وقال تعالى في سورة (ص) : ﴿**ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرىٰ لأولي الألباب**﴾[٢٣] .

ومن سيرة هذا النبي ندرك معنىٰ الإعتماد على الله ـ سبحانه ـ في كل الأمور ، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ كما ورد في المأثور هو عند ظن عبده لا يخيب من دعاه ، ولا يقطع رجاء من رجاه . وقد ورد على الخاطر في الحال هذه الأبيات :

هو عند ظن العبد والظن غاية	فظن به خيراً تلاقى به خيراً
ألم تر أيوب النبي وخطبه	عظيم ولكن ظل يستصحب الصبرا
ففرج عنه الكرب وانكشف البلا	وأصبح ما بين الملا قد علا ذكرا

واللجوء إلى الله في ساعة العسرة هو شيء فطري تفرضه حساسية الظرف إلّا أن الأنبياء يزيدون عن غيرهم من الناس بما هيأ الله لهم من معرفة سابقة للذات القدسية .

على أن هناك عباداً مكرمين عرفوا الله بآياته وآثاره فزادهم هدىً ، وقد مرت الإشارة إلى شيء من هذا فيما سبق من هذا الجزء في موضوع

---

(٢٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨٤ .

(٢٣) سورة (ص) ، آية : ٤٣ .

أهل الكهف .

والله ـ تعالى ـ حين كشف الضر والبلاء عن عبده أيوب وأنزل عليه تلك الشآبيب من الرحمة فإنه أهلٌ لذلك بعد أن قاسىٰ تلك المحنة ، وكل ما استمرت به زاد لله شكراً ، بل وحباً .

وكان الحسين ـ عليه السلام ـ يخاطبه بكاشف الضر والبلاء ؛ لأنه يرغب في أن يصنع به ربّه كما صنع بأيوب ، وقد قال هذا في ذلك الموقف وهو على ثقة تامة من استجابة دعائه .

من هو الذبيح ؟

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا ممسك يد إبراهيم عن ذبح إبنه بعد أن كبر سنه وفني عمره) .

ولقد اختلفت آراء المفسرين لآية الذبح من هو الذبيح الذي فداه الله بالذبح العظيم في قوله تعالى : **﴿فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني : إني أرىٰ في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترىٰ ؟ قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . .﴾** إلى آخر الآيات الكريمة[٢٤] .

ففي عيون أخبار الرضا بإسناده إلى الرضا ـ عليه السلام ـ قد سأل عن معنىٰ قول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (أنا ابن الذبيحين) ـ قال : يعني إسماعيل بن إبراهيم ، وعبدالله بن عبد المطلب . أما إسماعيل فهو الغلام الذي قال الله فيه : **﴿إني أرىٰ في المنام أني أذبحك﴾** ، فلما عزم على

---

(٢٤) سورة الصافات ، الآيات : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ .

ذبحه فداه الله بكبش أملح ، يـأكل في سـواد وينظر في سـواد ، ويبعر في سواد ، وكان يرتع قبل ذلك في رياض الجنة أربعين عاماً ، ومـا خرج من أنثىٰ . فكل ما يذبح بمنىٰ فهو فدية لإسماعيل إلى يوم القيـامة . ثم ذكـر قصة عبدالله . ثم قال الصدوق ـ رحمه الله ـ : وقد اختلفت الـروايات في الذبيح .

فمنها ما ورد بأنه إسماعيل . ومنها ما ورد بـأنه إسحـاق . ولا سبيل إلى رد الأخبار متىٰ صح طرقها وكان إسماعيل . لكن إسحاق لما ولد بعد ذلك تمنى أنه هو الذي أمر أبوه بـذبحه ، فكـان يصبر لأمـر الله ويسلم له كصبر أخيه وتسليمه فينال بذلك درجته في الثواب ، فعلم الله عزّ وجلّ من قلبه فسمّاه بين ملائكته ذبيحاً لتمنيه ذلك .

وروي في ذلك عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : قول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أنا ابن الذبيحين ؛ لأن العم قد سماه الله أبّاً في قوله تعالى : **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق﴾**[٢٥] . وكان إسماعيل عم يعقوب أباً .

أما الذبح العظيم فقد ورد وجه آخر ـ كما ذكره ابن عبدوس ـ عن ابن قتيبة عن المفضل قال : سمعت الرضا ـ عليه السلام ـ يقول : (لما أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يذبح مكان إبنه إسماعيـل الكبش الذي أنزلـه عليه ، تمنىٰ إبـراهيم ـ عليه السـلام ـ أن يكون قـد ذبح إبنـه إسماعيل وانه لم يؤمر بذبح ذلك الكبش مكانه ، ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الـولد الـذي يذبـح أعز ولـده بيده عليـه ، فيستحق بذلـك أرفع

---

(٢٥) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .

درجات أهل الثواب على المصائب ، فأوحىٰ الله عزّ وجلّ إليه : يا إبراهيم من أحب خلقي إليك ؟ قال : يا ربّ ما خلقت خلقاً أحب إلي من حبيبك محمّد ـ صلى الله عليه وآله ـ فأوحىٰ الله إليه : فهو أحب إليك أم نفسك ؟ قال : بل هو أحب إليّ من نفسي . فولده أحب إليك أم ولدك ؟ قال : بل ولده ، قال : فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أم ذبح ولدك بيدك في طاعتي ؟ قال : يا ربّ بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي ؟ قال : يا إبراهيم فإن طائفة تزعم أنها من شيعة محمد ، ستقتل الحسين من بعده ظلماً وعدواناً ، كما يذبح الكبش ، ويستوجبون بذلك سخطي ، فجزع إبراهيم ـ عليه السلام ـ لذلك وتوجع قلبه وأقبل يبكي ، فأوحىٰ الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد فديت جزعك على إبنك إسماعيل لو ذبحته بيدك ، بجزعك على الحسين وقتله ، أوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب ، وذلك قوله إليه عزّ وجلّ : ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ .

وفي تفسير علي بن إبراهيم في حديث طويل عن الصادق (ع) إنه لما أسلم إسماعيل أمره إلى الله في حكاية الذبح وأراد إبراهيم ذبحه أقبل شيخ وقال : يا إبراهيم ما تريد من الغلام ؟ قال : أريد أن أذبحه فقال : سبحان الله تذبح غلاماً لم يعص الله طرفة عين ؟ فقال إبراهيم : إن الله أمرني بذلك . فقال ربّك ينهاك عن ذلك ، وإنما أمرك الشيطان ، فقال له إبراهيم : ويلك إن الذي بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به . ثم قال : يا إبراهيم إنك إمام يقتدىٰ بك وإنك إن ذبحته ذبح الناس أولادهم . فلم يكلمه . وأقبل على الغلام فاستشاره في الذبح فلما أسلما جميعاً لأمر الله . قال الغلام : يا أبتاه خمّر وجهي وشد وثاقي فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ : يا بني الوثاق مع الذبح ، لا والله لا أجمعها عليك ولما همّ بذبحه قلب

جبرائيل المدية على قفاها واجتر الكبش ، وأثار الغلام من تحته ووضع الكبش مكان الغلام . ونودي من ميسرة مسجد الخيف : **﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾** .

ولقد روي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أقام مع زوجته سارة في أرض فلسطين دهراً طويلاً لم يولد لهما خلاله ولد، حتى بلغ من العمر على بعض الروايات مائة وعشرين سنة ، وبلغت سارة تسعين سنة ، فقال لسارة : لو شئت بعتني هاجر لعل الله يرزقنا منها ولداً يكون لنا خلفاً ، فأجابته سارة إلى ذلك وباعته هاجر ، ووقع إبراهيم عليها فحملت بإسماعيل ولما ولدته اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً ، وغلب عليها ما يأخذ النساء من الغيرة ، حتى جعلت تؤذي زوجها إبراهيم ، وتغمه في هاجر . وشكا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذلك إلى ربّه ـ تعالى ـ فأوحى الله إليه إنما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء ، إن تركتها استمتعت بها ، وإن قومتها كسرتها .

ثم أمره الله ـ تعالى ـ بإطاعة سارة لكونها من بنات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولما لها على إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الإحسان ، وخاصة تمليكها إياه الأموال .

هذا بعض ما اقتطفناه من سيرة هذا الرسول الكريم ، وفيه من العظات والإرشادات ما لا مزيد عليه ، سواء من جهة الوالد . أو الولد ، فكلاهما قد سلم أمره إلى الله ، وأطاع أمره طاعة ليس فيها شيء من التردد والشك ، فإبراهيم قد تغلب على عاطفة البنوة التي يفرغها الآباء على الأولاد وجعل طاعة المولى فوق كل الإعتبارات .

وأما الولد فهو كذلك ؛ لأنه شجع أباه على فعل ما يؤمر به .

وهناك مزايا أخرى لا تخفى على الإنسان اللبيب الحاذق الذي يتأمل هذه السيرة العطرة في مجريات أحداثها .

زكريا بعد المشيب

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من استجاب لزكريا فوهب له يحيىٰ ، ولم يدعه فرداً وحيداً) قال في تواريخ الأنبياء : كان زكريا متولياً أمر البتول مريم وقائماً بخدمتها ؛ لأنه كان زوج خالتها وكانت مريم قد ولدتها أمها بعد وفاة أبيها ، فأقامها زكريا في محراب محافظة عليها فكان **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾** يتفقد أحوالها وينظر في حاجاتها **﴿وجد عندها رزقاً﴾** جاهزاً لا يدري من أين يصل إليها ، فتساءل **﴿قال : يا مريم أنىٰ لك هذا﴾** ومن يأتيك به ؟ **﴿قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**[26]) فأملته هذه الكرامة لمريم ـ عليها السلام ـ وتحقق هذه المعجزة في ان يرزقه الله ولداً من زوجته الهرمة العقيمة البالغة من السن الثامنة والتسعين ، بينما كان هو في العشرين بعد المائة من عمره . **﴿هنالك﴾** وعندما عاين هذه المعجزة الضخمة (دعا زكريا ربه) فقال : **﴿ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾**[27]) صالحة مباركة تقية **﴿إنك سميع الدعاء﴾** ، وكريم ،

---

(٢٦) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

(٢٧) سورة آل عمران ، آية : ٣٨ .

واستجاب الله تعالى دعائه ، **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيىٰ﴾** ولدك الذي يكون **﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾** والكلمة هو المسيح إبن خالته الذي ولد بعده بستة أشهر **﴿وسيداً﴾** مطاعاً في المؤمنين **﴿وحصوراً﴾** لا يأتي النساء ، بل يحصر نفسه من الشهوات ،ويمنعها من الأباطيل **﴿ونبياً من الصالحين﴾**[28] المكرمين فتعجب زكريا كثيراً وتسائل في دهشةٍ و **﴿قال : ربِّ أنىٰ يكون غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقراً ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء﴾** وأن سيرزقك ولداً من العجوز دون أن يصرفها إلى حال الشباب ، وذلك عليه هين . **﴿قال : ربِّ اجعل لي آية﴾** وعلامة تدل على وقت الحمل ، **﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً﴾** بالإشارة فتصبح كأنك أخرس ولا تستطيع الكلام إذا حاولت ، إلاّ إذا كان الكلام لذكر الله تعالى فعندئذٍ تستطيع ، وهذا بدوره معجزة بينة ولذا قال الوحي بعدئذٍ : **﴿واذكر ربّك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾**[29] .

وقد تحققت هذه المعجزة بعد أن بلغ زكريا من الكبر عتياً واشتعل رأسه شيباً ، وامرأته عاقر بلغت عمراً مديداً حيث تخطت الثمانين .

وإذا أمعنت النظر في كيفية هذه المعاملة الإلهية مع الأنبياء وجدتها مليئة بالمعجزات . فالحمل بيحيىٰ منذ البشارة به إلى ولادته بعد ستة أشهر كرامات لم تحقق لأحدٍ من البشر قبله . ثم نرىٰ بعض الأنبياء يختصون بمعجزات من ألوان شتىٰ تختلف باختلاف الظروف والبيئات .

---

(٢٨) سورة الصافات ، آية : ١١٢ .

(٢٩) سورة آل عمران ، آية : ٤١ .

يونس في الظلمات

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من أخرج يونس من بطن الحوت) ويونس بن متىٰ قد بعثه الله سبحانه نبياً بعد بلوغه الأربعين من عمره ، وكانت رسالته خاصة بطائفة من بني إسرائيل يبلغ تعدادهم أكثر من مائة ألف نسمة وهو الذي قال فيه تعالىٰ : ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾(٣٠) .

وروىٰ العياشي عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ في حديث قال فيه : إن العذاب نزل على قوم يونس حتىٰ نالوه برماحهم ، فلبسوا المسوح والصوف ووضعوا الحبال في أعناقهم ، والرماد على رؤوسهم وضجوا ضجة واحدة إلى ربّهم وقالوا : آمنا بإله يونس ، فصرف الله عنهم العذاب إلى جبال آمل .

وأصبح يونس وهو يظن أنهم هلكوا ، فوجدهم في عافية فغضب وخرج ، حتىٰ ركب سفينة فيها رجلان ، فاضطربت السفينة فقال الملاح : يا قوم في سفينتي مطلوب ، فقال يونس ـ عليه السلام ـ : أنا هو وقام ليلقي

---

(٣٠) سورة الصافات ، آية : ١٤٧ .

نفسه ، فأبصر السمكة وقد فتحت فاهاً ، فهابها وتعلق به الرجلان وقالا له : أنت واحد ونحن رجلان ، فساهمهم فوقعت السهام عليه .

وقال الشيخ في التبيان في تفسير قوله تعالى : **﴿وذا النون إذ مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادىٰ في الظلمات أن لا إلٰه أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**[٣١] قال : والنون الحوت ، وصاحبها يونس بن متّىٰ غضب على قومه فذهب مغاضباً لهم ، فظن أن الله لم يضيق عليه ، لأنه كان ندبه على الصبر عليهم والمقام فيهم ، وهو من قوله تعالى : **﴿ومن قدر عليه رزقه﴾**[٣٢] وهو قول أكثر المفسرين . وقال الزجاج والفرّاء : معناه ما قدرناه وقال الجبّائي : ضيق الله عليه الطريق حتى ألجأه إلى ركوب البحر حتى قذف وابتلعته السمكة .

ومن قال ان يونس ظن أن الله لا يقدر عليه من القدرة فقد كفر .

وقيل : إنما عوتب على ذلك لأنه خرج مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له ، فقال قوم كانت خطيئةً من جهة تأويله أنه يجوز له ذلك ، وقد قلنا إنه كان إلى المقام فلم يكن ذلك محضوراً ، وإنما كان ترك الأولى .

أما الظلمات التي أشارت إليها الآية فإنها ظلمة الليل وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، قال ابن عباس .

وقيل حوت في بطن حوت . قاله سالم بن أبي حفصة .

أما الظلم في قوله تعالى : **﴿إني كنت من الظالمين﴾** فإنه منسوب

---

(٣١) سورة الأنبياء ، آية : ٨٧ ، ٨٨ .

(٣٢) سورة الطلاق ، آية : ٧ .

إلى نفس يونس لو أقام على ذلك .

وقال السيد المرتضىٰ ـ رحمه الله ـ هو على سبيل الإنقطاع إلى الله تعالى والخشوع له والخضوع بين يديه ، لأنه لمّا دعاه لكشف ما أمتحنه به ، وسأله أن ينجيه من الظلمات التي هي ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، فعل ما يفعله الخاضع الخاشع من الإنقطاع والإعتراف بالتقصير ، وليس لأحدٍ أن يقول : كيف يعترف بأنه كان من الظالمين ولم يقع منه ظلم ، وهل هذا إلّا الكذب بعينه ؟ وليس يجوز أن يكذب النبي في حال خضوع وغيره ؛ وذلك أنه يمكن أن يريد بقوله : ﴿**إني كنت من الظالمين**﴾ أي من الجنس الذي يقع منهم الظلم ، فيكون صدقاً وإن ورد على سبيل الخضوع والخشوع ؛ لأن جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم ، وقد أطال السيد ـ رحمه الله ـ في دفع الإشكالات الواردة في هذا الموضوع طويناها خوف الإطالة[٣٣] .

وعند أهل الكتاب خلاف ظاهر بينما عندهم وبين القرآن . فقد ذكروا أن يونس ـ عليه السلام ـ لما خرج من بطن الحوت مقابل المدينة صنع له هناك مظلة وجلس تحتها حتى يرىٰ ما يكون في المدينة ، فأمر الله يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كربه ، ففرح باليقطين فرحاً عظيماً ، وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ، ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس ، فعظم الأمر عليه فاستطاب الموت .

فقال الرب : يا يونس أحزنت جداً على اليقطين ؟ فقال : نعم يا ربّ حزنت جداً ، فقال تعالى : حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوىٰ المدينة العظيمة التي فيها

---

(٣٣) تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى : ص١٤٢ .

أكثر من اثنا عشر ربوة من الناس ، قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائم كثيرة .

ومما تقدم ندرك معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من أخرج يونس من بطن الحوت) ذلك أن المقصود ليس إخراجه فقط من بطن الحوت وإنما المقصود ما جرىٰ له في بطنها ، فقد عاش في ظلمات ثلاثٍ ـ كما مر ـ وإنه لمن البعيد والغريب جداً أن يبتلع حوت إنساناً ثم يقذفه بعد هذه المدة ، وإن كانت وجيزة في عمر الإنسان ، لكنها طويلة في عمر المشاكل التي لقيها يونس منذ أن ابتلعه الحوت (ان صح التعبير) .

فالنجاة من هذا الوضع المأساوي ليونس مستحيلة ولا شك في ذلك ، ولكن الله تعالىٰ أراده أن يكون عبرة لمن اعتبر ، ويدلل على أن أمره وإرادته فوق كل شيء هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرىٰ إن الله يريد للإنسان قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً بأن لا يتعدىٰ طوره فينسىٰ ذكر الله ، فينساه الله . كما هو صريح الآيات مثل قوله تعالى : **﴿نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾**[٣٤] وقوله تعالى : **﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾**[٣٥] وقوله تعالى : **﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾**[٣٦] .

وقد ضرب يونس في هذا المجال المثل الأروع في التسبيح والتقديس كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : **﴿فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾**[٣٧] .

---

(٣٤) سورة التوبة ، آية : ٦٧ .

(٣٥) سورة الأعراف ، آية : ٥١ .

(٣٦) سورة السجدة ، آية : ٥١ .

(٣٧) سورة الصافات ، آية : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

نجاة بني إسرائيل بمعجزة موسى (ع)

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من فلق البحر لبني إسرائيل ، فأنجاهم وجعل فرعون وجنوده من المغرقين) ، وذلك أنه لما استفحل أمر فرعون في جوره ، وازداد في طغيانه عمهاً وتمادياً ألح المؤمنون على موسى بالدعاء إلى الله ـ سبحانه ـ أن يهلك فرعون ويجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، وأن يثأر للمؤمنين والمظلومين الذين قتلهم ، فشكى موسى إلى الباري ـ سبحانه ـ وطلب منهم أن يفقد فرعون وجماعته أموالهم ، وأن يحرمهم نعمة الإيمان وينزل بهم عذاباً جسيماً أليماً ، ليكون ذلك عبرة وثاراً للذين أهدر فرعون دماءهم **﴿وقال موسى ربّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربّنا ليضلوا عن سبيلك ، ربّنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم﴾**(٣٨) وشاركه أخوه هارون النبي في الدعاء فأوحىٰ الله تعالى إليهما يعدهما بالطمس على أموال القوم الكافرين وإنزال العذاب بهم . ويدعوهما إلى الصبر والتمسك بحبل الله **﴿قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا**

---

(٣٨) سورة يونس ، آية : ٨٨ .

يعلمون﴾(٣٩) .

ثم إن فرعون لما رأى أن قتل الكثيرين من المؤمنين بموسىٰ ـ عليه السلام ـ لم يجد في ردع البقية منهم ، وإن حيلة الصرح لم تؤد ـ هي أو سواها ـ إلى نتيجة في صرف الناس عن موسى ـ عليه السلام ـ وأخيه عزم على إبادتهم جميعاً فأوحىٰ الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ بذلك وأمره أن يخرج بقومه شرقاً نحو البحر ، فجمعهم كلهم وهم يومئذٍ ستمائة ألف وعشرون ألفاً ، عدا العجز والأطفال ، فخرج بهم يتقدمهم هو وأخوه هارون ـ عليهما السلام ـ مخلفين دورهم ، ومهاجرين تخلصاً من جور فرعون وملأه ؛ وبلغ الخبر فرعون وأنهم هربوا من مصر قبل أن يتمكن منهم ، فغاظه ذلك ، وتخوف سقوط هيبته عند أتباعه ، فأرسل مناديه ورسله في المدن ، يقللون من شأن المؤمنين المهاجرين مع موسىٰ ، ويؤكدون للناس أن فرعون هو الذي طردهم من أرض مصر لأنهم أغاظوه ، وفي ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء : **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون ، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ،إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾**(٤٠) .

وأنزل الله آية الطمس على أموال فرعون فأبيدت فجن جنونه ، وأمر قومه وجنوده بركوب الخيل واللحوق بموسى ورهطه الذي خرج ببني إسرائيل ليلاً فركب هو وهامان في ستمائة ألف راكب .

وبلغ موسى قومه أمر الله ـ سبحانه ـ وبشرهم بأنه وعدهم بالنجاة

---

(٣٩) سورة يونس ، آية : ٨٩ .

(٤٠) سورة الشعراء، آية : ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨.

ولكن قومه شكوا في أن ينقلب الماء إلى يابسة ، وبالغوا في الإنكار واستنكر موسىٰ بشكهم بوعد الله وجادلهم ملياً ونصحهم وحاول إقناعهم ، فلم يقتنعوا ولم يلينوا مصرين على أنهم لا يجتازون إلاّ على اليابسة سوىٰ مؤمنين هما يوشع وكالب بن يوحنا فقال موسى ـ عليه السلام ـ : أللهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ! فأوحىٰ الله تعالى إليه عندئذٍ ﴿**أن اضرب بعصاك البحر**﴾[٤١] فينفلق شقين ، وتظهر لكم الأرض في قاعة طريق يابسة فتجتازها بهم إلى الطرف الآخر .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق أمام أعينهم وأمر أصحابه بالسير في ذلك الطريق ولكنه فوجىء بهم يترددون مرة أخرى وقالوا : إن الطريق وحلة سبخة يا موسى ، فنخاف أن نرسب فيها فأمر الله ريح الصبا فجففت الطريق فتمنعوا عن سلوكه وقالوا يا نبيّ الله نحن إثنا عشرة قبيلة ، وكل فريق منّا يروم التقدم على غيره ، وإنّا لا نأمن وقوع الشر بيننا بسبب ذلك ، فلو دعوت الله سبحانه ليجعل لكل فريق منّا طريقاً خاصة لكان أفضل ولسيرنا أسرع ولأمنّا خطر التنافس والخلاف .

فأمر الله موسى أن يضرب البحر إحدىٰ عشرة مرة في مواضع أخرىٰ ففعل ما أمره به ربّه ، وتمت لبني إسرائيل إثنتا عشرة طريقاً على عدد أسباطهم كلها جافة صلده، وظن موسى أنه لم تعد لقومه حجة تمنعم من طاعة أمر الله فأمرهم بلوج سككهم والتقدم شرقاً نحو الشاطىء الآخر ، ولكنه فوجىء بهم يقولون له : إذا دخلت كل قبيلة منّا سكة من هذه السكك فإنها لا تدري ما يجري على سواها ، ولا يمكنها أن

---

(٤١) سورة الشعراء ، آية : ٦٣ .

تعرف من يتقدم منها أو يتراجع عن السير فجأر موسىٰ إلى الله بالشكوىٰ والإسترحام فأوحىٰ الله إليه أن اضرب تلك الجدران المرتفعة بين السكك بعصاك ، فضربها موسىٰ فإذا الجدران تنقلب شفافة يكشف كل منها للعين ما على جانبيه .

وفي هذه الأثناء كان فرعون وجنده الذين تخوفهم بنو إسرائيل منذ بان سوادهم في الأفق قد قربوا وظهروا بصورة واضحة مخيفة ، فبادر بنو إسرائيل يقتحمون سبلهم التي فتحها الله لهم ، وساروا والماء عن جانبيهم كالجبال ، وهم ينظر بعضهم إلى بعض ويسمع بعضهم بعضاً من خلاله خرجوا من البحر ، وأوحىٰ الله إلى موسى أن غادر البحر ليدخله قوم فرعون كي يطبق البحر عليهم .

ولما انتهى فرعون بقومه إلى البحر وشاهدوا إنفلاقه وقيام المياه جدران مايعة دون ساندٍ والأرض جافة يابسة طرقاً عدة ، وهي آية موسىٰ التاسعة إلى فرعون وملأه ، ، قال لمن حوله : أنظروا إلى البحر قد انفلق لهيبتي حتى أدرك أعدائي وعبيدي ، ألا ترون أني ربّكم الأعلى قد فرج إلى البحر ؟ ثم أمرهم بالنزول في السكك وملاحقة بني إسرائيل ، فلم يجسر أحد منهم على ذلك ، وامتعنت الخيل عن التقدم لهول الماء فتقدم فرعون بنفسه نحو الماء ليشجع أصحابه ويحثهم ، ولما هم بدخول الطريق المفتوحة نهاه هامان وقال له إني قد أتيت هذا الموضع مراراً يا فرعون ، وما لي بهذه الطرق عهد من قبل ، وإني لا آمن أن يكون هذا سخرا من موسىٰ ومكراً يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا ، فتظاهر فرعون باللا مبالاة وعدم الإهتمام .

وكان يمتطي حصاناً قوياً أدهم ، فلما بلغ الماء ولامس أرض البحر الجافة توقف الحصان مستوحشاً ، وصهل خائفاً ثم انفتل عائداً كمن أصابه

مس من الجنون ، ومال فرعون بلجامه محولاً إتجاهه نحو البحـر ، وهمزه في خاصرتيه وأكثر من حثه وضربه ولكنه امتنع فأنزل الله جبرئيل على صورة بشر على فرس هيفاء رشيقة وسار بها نحو الطريق البحرية المهولة فسارت طيعة وادعة ، ولمح حصان فرعون الـذكر الفـرس الأنثىٰ فطلبهـا وتبعها ، وتقدمت أكثر فاقتحم الحصان الطريق إثرها بحماس ، وتقدم جاداً سـريعاً ولما رأى أتباع فرعون تقدمه سالماً تشجعوا وتبعوه بـأجمعهم ، ولما صـار القوم كلهم في البحر وأمامهم جبرئيل يغريهم بالتقدم وورائهم ميكائيل على حصان يحثهم ويمنع المتأخرين منهم من الهرب والرجـوع مالت جـدران الماء فجأة نحـو بعضها ، وانتبـه فرعـون حالاً ، وأدرك أنهـا معجزة إلٰهيـة ضخمة ، وتيقن أنه الموت لا محالة فحاول أن يتدارك ماضيه وينقذ نفسـه بأن يعلن توبته وإيمانه بإلٰه موسىٰ ـ عليه السلام ـ فإنه ﴿**لمـا أدركه الغـرق قــال : آمنت أنـه لا إلٰــه إلاّ الـذي آمنت بــه بنـو إسـرائيـل وأنـا من المسلمين**﴾[٤٢] إلاّ أن جبرئيل أخذ كفاً من حمأة البحر وضرب به على فمه وقال : ﴿**الآن وقد عصيت من قبلُ وكنت من المفسدين**﴾[٤٣] .

وأطبق البحر في لمح خـاطف على الطغـاة وأتباعهم ، ومـا هي إلاّ لحظات حتى همد في ذلك العباب الجبار كل شيء وغرق الكفرة ، ودوّىٰ على الساحل من ارتطام الجدران الموجية صوت أشد من الرعود القـاصفة فدهش بنو إسرائيل وسألوا موسى عن ذلك ، فأخبرهم بهلاك فرعـون ومن معـه ، فما صـدقوه بـل قالـوا : إن فرعـون لا يمـوت ، لأنـه ليس كبـاقي الخـلائق ، فأمـر الله تعالى حيتـان البحر ألاّ تقـربه وأمـر الأمواج أن تلقى بجسده إلى الشاطىء ليكون عبرة لبني إسـرائيل وغيـرهم ، فألقتـه الأمواج

(٤٢) سورة يونس ، آية : ٩٠ .

(٤٣) سورة يونس ، آية : ٩١ .

على نجوة من الأرض ، وعليه درعه وثيابه التي كان ينفرد بها ، فنظر إليه بنو إسرائيل فعرفوه وأيقنوا بموته وفي ذلك قوله تعالى : **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**[٤٤] .

من هذا البيان المفصل ندرك ما قصده الحسين ـ عليه السلام ـ في مناجاته لربّه وهو أن الإستجابة لموسىٰ في سؤاله أن ينجي بني إسرائيل ، فإن نجاتهم ليست بمعجزة واحدة ومعنىٰ ذلك أن الرحمة قد أنزلها الله على بني إسرائيل بدون حساب حتى أنجاهم من كيد فرعون الذي استذلهم مدة طويلة . فكان ـ عليه السلام ـ يطلب الرحمة لغيره من أهل ذلك الموقف كما طلبها موسىٰ لنجاة بني إسرائيل متناسياً نفسه الزكية التي تفتدىٰ بنفوس العالمين ، وقد أشرنا في بحث مفصل من الجزء الأول إلى هذا المعنىٰ .

---

(٤٤) سورة يونس ، آية : ٩٢ .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ أَرْسَلَ الرِّيٰاحَ مُبَشِّـرٰاتٍ بَيْنَ يَدَيّ رَحْمَتِـهِ ، يٰا مَنْ لا يَعْجَـلْ عَلىٰ مَنْ عَصٰاهُ مِنْ خَلقِهِ ، يٰا مَنِ اسْتَنْقَذَ السَّحَرَةَ مِنْ بَعْدِ طُولِ الْجُحوُدِ ، وَقَدْ غَدَوْا في نِعْمَتِهِ ، يَأْكُلوُنَ رِزْقَهُ ، وَيَعْبُدوُنَ غَيْرَهُ ، وَقَدْ حٰادّوهُ وَنٰادّوهُ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ] .

اللُّغَة

الرياح : الريح نسيم الهواء ، وكذلـك نسيم كل شيء ، والـريحة طائفة من الريح ، ويدل الواحد على ما يدل عليه الجمع ، وجمعها رياح وأرواح .

قال الجوهـري : الريـح واحدة الـرياح وجـاءت باليـاء لإنكسار مـا قبلها . ويقال الريح لآل فلان أي النصر والدولة ، وفي الحديث كان يقول إذا هـاجت الريـح : أللهم إجعلها ريـاحـاً ولا تجعلهـا ريحـاً . وفي معنىً آخـر في الحديث أيضاً الريح من روح الله أي من رحمته بعباده ، وراح الشجر وجد الريح وأحسها .

مبشرات : البشر لكسر الباء الطلاقة ، واستبشر وتبشر فرح ، وفي التنزيل : ﴿**فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به**﴾[1] قال ساعدة بن جؤبة :

فبينا تنوح استبشروها بحبها   على حين أن كل المرام تروم

والبشارة المطلقة لا تكون إلّا بالخير ، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى : ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾[2] . والإسم البشرىٰ قال تعالى : ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾[3] . قال عظية بن زيد الباهلي :

وإذا رأيت الباهشين إلى العلى   غبراً أكفهم بقاع ممحل

فاعنهم وابشر بما بشروا به   وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

عصاه : العصيان خلاف الطاعة . عصى العبد ربّه إذا خالف أمره فهو عاص ويقال للجماعة إذا خرجت عن طاعة السلطان : قد استعصت عليه . واستعصىٰ عليه الشيء اشتد . كأنه من العصيان ، وأنشد ابن الإعرابي :

علق الفؤاد بريّق الجهل   فأبر واستعصىٰ على الأهل

والعاصي الفصيل إذا لم يتبع أمه لأنه كان يعصيها ، والعاصي العرق الذي لا ينقطع دمه .

استنقذ : قال الجوهري : أنقذه من فلان ، واستنقذه منه أي نجاه وخلصه . قال ابن الإعرابي :

وزفت بقوم آخرين كأنها   نقيذ حواها الرمح من تحت مقصد

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٢١ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٦٤ .

وقـال المفضل : النقيـذة الدرع لأن صـاحبها إذا لبسهـا أنقذتـه من السيوف .

السحرة : السحر عمل يتقرب فيه إلى الشيطان ، بمعونه منه كل ذلك الأمر كينونة للسحر . ومن السحـر الأخذة التي تـأخذ العين حتىٰ يـظن أن الأمر كما يرىٰ ، وليس الأصل على ما يرىٰ . وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر ، ومنه قوله تعالى : **﴿قال : القوا ، فلما ألقوا سحروا أعين النـاس واسترهبوهم وجـاءوا بسحر عـظيم﴾**[٤] وجاء في المـأثور (إن من البيـان لسحراً) .

قال الأزهري : وأصـل السحر صـرف الشيء عن حقيقته إلى غيـره فكأن الساحر لمّا رأى البـاطل في صـورة الحق ، وخيل الشيء على غيـر حقيقية قد سحر الشيء عن وجهه ، أي صرفه . قال الكميت :

وقـال إليهـا الحب فـانقـاد صعبـه　　　بحب من السحـر الحلال التحبب

يريد : أن غلبة حبها كالسحر وليس به ؛ لأنه حب حلال ، والحلال لا يكون سحراً ؛ لأن السحر كالخداع وهو حرام .

الجحود : الجحود والجحـد نقيض الإقرار ، كـالإنكار والمعـرفة ، وقال الجوهري : الجحود الإنكار مع العلم ، والجحد بفتح الجيم وضمها وسكون الحاء الضيق في المعيشة ، وأنشد بعض الأعراب في الجحد :

لئن بعثت أم الحميـدين مـائــراً　　　لقد غنيت في غير بؤس ولا جحـد

والجحد سورة في القرآن ، وتسمى (سورة الكافرون) وهي ما بين الكوثر والنصر .

---

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .

حادّوه : المحادة المخالفة ومنع ما يجب عليك . والمحادة : المعاداة والمخالفة والمنازعة ، وهو مفاعلة من الحد ، كأن كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر . وحدود الله ـ تعالى ـ الأشياء التي بين تحريمها وتحليلها ، وأمر ألا يتعدى شيء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنها ومنع من مخالفتها قال تعالى : ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾[٥] . وأحدها حد ، ومنها حد القاذف والزاني ، وشارب الخمر وغير ذلك .

نادوه : الند جمعها الأنداد ، وهي بالكسر مثل الشيء الذي يضاده في أموره ، ويناده أي يخالفه . والأصنام هي الأنداد والمقصود بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله ، وهو بزعمهم ند لله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وفي التنزيل العزيز قال تعالى : ﴿**واتخذوا من دون الله أنداداً**﴾[٦] .

قال الأخفش : الند الضد والشبه ، وقال أبو الهيثم : يقال للرجل إذا خالفك فأردت وجهاً تذهب به ونازعك في ضده : فلان ندي ونديدي للذي تريد خلاف الوجه الذي تريد ، قال حسان :

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

والند بفتح النون ضرب من الطيب يدخن به ، وربما يقال للعنبر الند ، والند التل المرتفع في السماء ، وهي لغة يمانية .

---

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٢٩ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٢ .

في هذه الفقرة لا زال يـواصل تضـرعه ومنـاجاتـه لربّـه ، والتعرض لرحمته ـ تبارك وتعالى ـ بواسطة صفاته التي تمتاز بالـرحمة والشفقـة على عباده . فقال ـ عليـه السلام ـ : (يـا من أرسل الـرياح مبشـرات بين يدي رحمته . .) في هذا المعنىٰ جاء قولـه ـ تعالى ـ : **﴿ومن آيـاته أن يـرسل الرياح مبشـرات وليذيقكم من رحمتـه ولتجري الفلك بـأمره ولتبتغـوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**[7] وقوله تعالى : **﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتىٰ إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتىٰ لعلكم تذكرون﴾**[8] وقوله تعالى : **﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾**[9] قال المفسرون : البشر بضمتين ـ وهو الأصل ـ جمع بشير كالنذر جمع نذير ، والمراد بالرحمة المطر أي قدّام المطر ، وفيـه إستعارة تخييلية بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذي ينتظره أهله ، فيقدم وبين يديـه بشير يبشر بقدومه . قال تعالى : **﴿فلمـا أن جاء البشيـر ألقاه على وجهـه فارتد بصيراً﴾**[10] .

والمراد بكونه الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله . قاله السيد الطباطبائي في الميزان .

أما الرحمة التي تبشر بهـا الريـاح فهي ناتجـة عن أسباب متعـاقبة ،

(٧) سورة الروم ، آية : ٤٦ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ٥٧ .

(٩) سورة الفرقان ، آية : ٤٨ .

(١٠) سورة يوسف ، آية : ٩٦ .

فـالريـاح تقل السحـاب ، والسحاب يقـل المطر الـذي ينزل على الأرض فيسقيها ، ويختزن جزء منه في بـاطنها لحـاجة الإنسـان في شرابـه وسائـر حاجاته ، ومنه ما يسقي الزروع فتهتز الأرض به ، وتكتسي بلون أخضر بعد أن كانت جرداء يـأكل منـه الإنسان والحيـوان ، ثم الريـاح ـ أيضاً ـ تـدفع العفونات وتصفي الأجواء وتلقح الأشجار بعضها من بعض ، وذلك ما أشار إليـه قولـه ـ تعالى ـ : ﴿**وأرسلنـا الريـاح لواقـح فأنـزلنـا من السمـاء مـاءً فأسقيناكموه**﴾[11] . وكذلك جريان الفلك بواسطة الرياح وهبوبها وغير ذلك مما يشمله إطلاق اللفظ . وقد عدّها العادّون إلى مـا يقارب من العشـرين نوعاً من الرياح ، وليس بنا حاجة إلى عدّ كل منها والحديث عنها .

وهي ضرورة ملحة لحياة الإنسان واستمرار وجوده ، وإذ تطرقنا إلى هذه العنصر الحيوي في حياة الإنسان ينبغي أن نبحث عن أسباب حـركته والمؤثرات في اتجاهاتها .

---

(١١) سورة الحجر ، آية : ٢٢ .

حركةُ الرياحِ وأسبابُها

الرياح تبدأ حركتها بفعل الشمس الإستوائية ، تنطلق عابرة المحيطات ، وتحمل معها جانباً من مياهها بمرورها فوق سطحها . ثم تهب على القارات وتفرغ جزءاً من مياهها على هيئة أمطار أو ثلج .

ويقول (ج . ن اليونارد) في كتابه جولة عبر العلوم ص٤٩ : وتعتبر الحركة الدائرية للجو التي تبدأ عند المناطق المدارية هي السبب الأساسي في هطول الأمطار فوق الأرض .

وقد ثبت حديثاً أنه لا يمكن أن تتوالد السحب بدون نوى التكاتف وهذه النوى عبارة عن جسيمات ملح الطعام الذي يذروه البحر بفعل الرياح على شكل رذاذ ، أو الغبار الكوني الدقيق ، أو جسيمات الدخان المتصاعدة ، أو من نتاج احتراق البراكين أو ما ينتج من مركبات الأزوت في أعقاب البرق . إذاً فذر والرياح لجزئيات ملح الطعام لم يكن عبثاً ، وإنما هو من أجل تلقيح السحب كما تقدم .

لذا لم يقع هذا الأمر بالمصادفة العمياء ، وإنما هو أثر من آثار القدرة الإلّهية المهيمنة على هذا الوجود .

إن العواصف الهوائية التي تمزق السحاب صعوداً وهبوطاً بسرعة فائقة قد تراها أحياناً بأم عينيك . فلماذا تقوم بهذه الأعمال الغريبة ؟ أنها تفعل ذلك من أجل أن تفرغ منها الشحنات الكهربائية لتصبح جميعها ذات شحنات موجبة . ثم تركمها بعضها على بعض وأنت ترىٰ هذا بأم عينيك في غالب أيام الشتاء حتى منتصف الربيع . تركم السحب السوداء على البيضاء والبيضاء على السوداء ثم تقوم تلك الرياح بعصر ما في تلك السحب من مياه وهذه كلها حقائق أثبتها العلم الحديث وهي نوع من الأعمال الإلٰهية في تصريف الرياح والسحاب . وفيها يقول تعالى : **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترىٰ الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾**[12] وقال تعالى : **﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**[13] . وقال تعالى : **﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾**[14] .

وبأسلوب آخر نقول إن الرياح توجه بواسطة دوران الأرض حول نفسها ، وإن شئت قلت : إنها من النتائج لدوران الكرة الأرضية . إن سرعة دوران المدن وما بها من منازل ورجال ليست سرعة واحدة . فالمدينة التي على خط الإستواء تقطع محيط الأرض هناك في أربع وعشرين ساعة ، وبالتحديد نقول : إنها تقطع في الساعة الواحدة ميل تزيد قليلاً . ولكن مدينة مثل مدريد عاصمة أسبانيا وهي على خط عرض أربعين لا تقطع في الأربع والعشرين ساعة محيط الأرض كله ، ولكن تقطع دائرة أصغر هي

(١٢) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .

(١٣) سورة الروم ، آية : ٤٨ .

(١٤) سورة النبأ ، آية : ١٤ .

الدائرة التي تمثل خط عرضها على الكرة ، فسرعة دورانها هي لذلك نحواً من ثمانمائة ميل في الساعة ولو ذهبنا أبعد في الشمال إلى الأسكا بأقصىٰ أمريكا الشمالية لوجدنا الأرض تدور هناك بسرعة نحو خمسمائة ميل في الساعة . وعند القطب تماماً تبلغ هذه السرعة صفراً لانعدام الدوران عنده . وهذه السرعات كلها من غرب إلى شرق لأن الأرض كلها تدور .

واختلاف هذه السرعات في بقاع الأرض يؤثر في اتجاه الرياح . وخلاصة هذا التأثير أن ريحاً في النصف الشمالي من الكرة تهب من خط الإستواء شمالاً تميل إلى يمين إتجاهها دائماً ، فتصيب الناس في ذلك الإتجاه ، فيصفه الناس بقولهم إن الريح تهب إلى شمال شرق ، أو هي تأتي من جنوب بغرب . وإن ريحاً في النصف الشمالي من الكرة أيضاً تهب من القطب الشمالي جنوباً ، تميل إلى يمين إتجاهها أيضاً دائماً ، فتصيب الناس في نفس ذلك المكان ، في إتجاهٍ يصفه الناس بقولهم إن الريح تهب إلى جنوب بغرب أو هي تأتي بشمال بشرق .

أما في نصف الكرة الجنوبي فريح تهب من جنوب إلى شمال ، أو من شمال إلى جنوب ، تميل دائماً إلى يسار إتجاهها .

وسبب هذا في كل الحالات أن الريح تذهب إلى شمال أو إلى جنوب بسرعة هبوبها . ولكن الهواء حيث ما كان مع الأرض ، وبالسرعة التي تدور بها الأرض حيث هو. وهذه السرعة دائماً من غرب إلى شرق. فالريح التي تهب إلى شمال أو إلى جنوب لها إلى جانب سرعتها شمالاً أو جنوباً ، سرعة من غرب إلى شرق . وهي سرعة تختلف حسب الموضع من الأرض الذي تبدأ منه الريح هبوبها . فهي فوق الألف ميل عند خط الإستواء ، وهي ثمانمئة ميل عند الأسكا .

والريح بانتقالها في نصف الكرة الشمالي ، إلى شمال تلقىٰ أرضاً لها من سرعة إلى الشرق دون سرعتها . من أجل هذا هي تصيب الناس هناك ، وهي أكثر ميلاً إلى الشرق . . . فيقولون ريحاً جنوبية غربية أي هي تأتي من جنوب بغرب .

والريح بانتقالها في نصف الكرة الشمالي إلى جنوب تلقىٰ أرضاً لها من سرعة إلى الشرق فوق سرعتها فهي تتخلف عن مسايرتها شرقاً وهي تصيب الناس هناك وهي أكثر ميلاً إلى الغرب فيقول الناس ريحاً شمالية شرقية أي هي تأتي من شمال بشرق . . .

وفي كلتا الحالتين تميل الريح إلى يمين إتجاهها شمالاً أو جنوباً .

وبمثل هذا يستدل على أن الريح بالنصف الجنوبي من الأرض تميل إلى يسار إتجاهها .

وكما في الريح يكون الحال في الرياح العاصفة الدوارة ، أي الأعاصير تلك التي تعصف وهي تدور حول مركز لها منخفض ضغط هوائه . وحركة الأرض إذ تدور على محورها تحدد لهذه الأعاصير الإتجاه الذي عليه تدور . وهي في النصف الشمالي من الكرة تدور في إتجاه هو عكس إتجاه تدور عليه عقارب الساعات وهي في النصف الجنوبي من الكرة تدور في إتجاه هو إتجاه عقارب الساعات في دورانها ، والذي يقال في تيارات الهواء من حيث إتجاهها يقال في تيارات الماء في البحار والمحيطات . والذي يقال في أعاصير الهواء يقال في دوامات البحار . وكلها يختلف ما يقع منها في نصف الكرة الشمالي عن نصفها الجنوبي وهذه الأشياء التي تساق على أنها نتائج لدوران الأرض قد تساق على أنها براهين على هذا الدوران .

الحلمُ علىٰ العاصي

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعجل على من عصاه من خلقه) والتعجيل بالعقوبة على الجرم سواءً كان صغيراً أو كبيراً يعني فناء الجنس البشري الذي خلقه الله ـ تبارك وتعالى ـ لعبادته : لأنه لا يمكن بأي حال تصور إنفكاك الإنسان عن الخطأ .

والإنسان خلقه الله ـ سبحانه ـ وأودع فيه الغرائز المختلفة . ولقد اختلف علماء الإجتماع في حقيقة أن الإنسان خلقه الله خيراً بالطبع ، أم شريراً ؟ ولكنهم اتفقوا في النهاية على أن الغرائز الإنسانية يمكن أن توجه إلى أي جهة يريدها الإنسان خيراً أو شراً .

إذاً فالإنسان محاط بأخطار الدنيا من الداخل والخارج أما من الداخل فهي الغرائز التي تنازع الإنسان لترديه في المهالك إذا لم ينضبط بالتشريع الإلٰهي . وأما من الخارج فهذه المغريات من بهارج الدنيا وزينتها وفي هذا المعنىٰ قال الشاعر :

إبليس والدنيا ونفسي والهوىٰ كيف الخلاص وكلهم أعدائي

والإنسان قد هيّأ الله له لمقارعة هذه الأخطار التي تحدق به وتراوده

على فعل الشر عاملين هامين :

١ ـ **العقل** : وبه يميز الإنسان بين الخير والشر وهو قوة هائلة في ردّ هذه القوى المعادية وكل ما يسوّل للإنسان لذبح الفضيلة أو الإستهانة بها . وهو أول ما خلق الله ، فلما خلقه قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر . قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلى منك ، ولأجعلنك في خاصة أوليائي . ولذا ورد في المأثور (العقل ما عبد به الرحمٰن) . والكلام طويل حول هذا الموضوع وقد مرّ بعض منه في ما تقدم من أبحاث الكتاب .

٢ ـ **النبوة** : وهي من الألطاف الإلٰهية وعليها بنيت الشرائع ، وأقيمت الحدود ، وبها عرف الطائع والعاصي ، والنبي هو الحامل لها ، والمبعوث بها . وقد عرّفوه بأنه : الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة من البشر .

فالنبوة هي العامل الآخر لتكوين شخصية الإنسان المسلم المتكاملة ، والذي أراده الله واختاره خليفة في الأرض ليعمرها ويملأها بخصال الخير .

ولقد خلق الله الإنسان عندما خلقه ناقصاً في جسمه ، ناقصاً في عقله ، وأراد الله ألّا يحرم الإنسان من نعمة الكمال الإنساني ، وليس الكمال المطلق ، فأكمل الإنسان من الخارج بعامل النبوة ؛ لكي يستقيم في حياته ودنياه بعقله الذي أكمل بها ، ولكي يستقيم في أمور آخرته بالنبوة التي تعتمد في طرح مفاهيمها على العقل في جميع مراحل حياة الإنسان ، في جميع درجات التفكير العقلي .

وبعد التأمل من خلال ما نستطيع أن نراه في أفق العبارة السابقة وهي قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من لا يعجل . .) نجزم بانطباقها في معناها

على قوله تعالى : **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمىً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**(١٥) فقد ورد في معناها ـ كما ذكره الشيخ في التبيان ـ أن الله أخبر أنه لو كان ممن يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم ، ويعاجلهم بعقوباتهم ، واستحقاق جناياتهم وظلمهم لما ترك على وجه الأرض أحداً ممن يستحق ذلك من الظالمين ، وإنما يؤخرهم تفضلاً منه ليراجعوا التوبة ، أو لما في ذلك من المصلحة لباقي المكلفين والإعتبار بهم .

وقال السيد الطباطبائي في الميزان : إن الله لو يؤاخذ الناس بظلمهم مستمراً على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدب ويتحرك . أما جلُّ الناس فإنهم يهلكون بظلمهم وأما الأشذ الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وأمهاتهم من قبل .

وهناك وجوه كثيرة تحوم حول الآية لا نريد التعرض إليها إختصاراً وإن كانت هي فيما نحن فيه .

وحصيلة ما ذكرنا أن الله ـ سبحانه ـ حليم على من عصاه لا يؤاخذه بمعصيته ، ولا يعاجله بالعقوبة ؛ لأن التعجيل شأن من يخاف فوات الفرصة والإفلات من قبضته . وهذا غير وارد نسبته إلى الله .

هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ أن رحمته سبحانه قد سبقت غضبه ، فهو يريد أن يتفضل على عباده بالرحمة ؛ لأنه لا حاجة له في تعذيبهم ، وهناك كلام كثير حول هذا الموضوع نرجؤه للمكان المناسب .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من استنقذ السحرة من بعد طول

---

(١٥) سورة النحل ، آية : ٦١ .

الجحود ، وقد غدوا في نعمته يأكلون رزقه ويعبدون غيره ، وقد حادّوه ونادّوه وكذبوا رسله) . هذه العبارة على اختصارها جمعت كثيراً من العبر في حوادث تاريخية مهمة وقعت في زمان مليء بالكفر والتحدي للمؤمنين بالله ، وقد عرض القرآن المجيد شيئاً كثيراً من هذه الحوادث وبين النتيجة التي آل إليها الكفرة العصاة لأوامر المولى ـ سبحانه ـ وكيف حزّوا إلى الأذقان بعد الموقف المتصلب الذي عاناه منهم موسى ـ عليه السلام ـ ومن ملكهم الطاغية فرعون فقال ـ تعالى ـ في وصف ذلك المشهد : **﴿فألقى السحرة ساجدين﴾**[16] ، وقال تعالى : **﴿فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾**[17] فقد ذكر المفسرون أن السحرة هم الذين ألقوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ؛ وذلك للإشارة إلى كمال تأثير آية موسى فيهم وإدهاشها إياهم ، فلم يشعروا بأنفسهم حينما شاهدوا عظمة الآية ، وظهورها عليهم إلاّ وهم ملقون ساجدين فلم يدروا من الذي أوقع بهم ذلك .

فاضطرتهم الآية إلى الخرور على الأرض ساجدين ، والإيمان بربّ العالمين الذي اتخذه موسى وهارون . وفي ذكر موسى وهارون دلالة على الإيمان بهما مع الإيمان برب العالمين .

وربما قيل : إن بيانهم ربّ العالمين بربّ موسى وهارون بدفع توهم أن يكون إيمانهم بفرعون ، فإنه كان يدعى أنه ربّ العالمين ، فلما بينوه بقولهم : **﴿ربّ موسىٰ وهارون﴾** ولم يأخذوا فرعون ربّاً إندفع ذلك التوهم .

---

(١٦) سورة الأعراف ، آية : ٢٠ .

(١٧) سورة طه ، آية : ٧٠ .

والذي ادعاه فرعون لنفسه على ما حكاه الله من قوله : ﴿أنا ربّكم الأعلىٰ﴾[18] . إنما هو العلو من جهة القيام بحاجة الناس وهم أهل مصر خاصة عن قرب واتصال ، لا من جهة القيام بربوبية جميع العالمين ، ومع ذلك كله فقد أحاطت الخرافات على الوثنية بحيث لا يستبعد أن يتفوهوا بكون فرعون ربّ العالمين ، وإن خالف أصول مذاهبهم طبعاً . قاله الطباطبائي في الميزان :

وفي الآية الثانية قال أيضاً : أن كلمة ﴿ألقي السحرة﴾ إشارة إلى إذلال القدرة الإلٰهية لهم ، وغشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بداً دون أن يخروا على الأرض سجداً ، كأنهم لا إرادة لهم في ذلك ، وإنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو ، وأخذ فرعون يتهددهم عندما فعلوا ذلك ولكنهم ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضيْ هذه الحياة الدنيا﴾[19] . وهو كلام بليغ في منطوقه بالغ في مفهومه ، بعيد في معناه ، رفيع في منزلته يغلي ويفور علماً وحكمة . فهؤلاء قوم قبل ساعة وقد ملأت هيبة فرعون وأبّهته قلوبهم ، وأذلت زينات الدنيا وزخارفها التي عنده ـ وليست إلّا أكاذيب خيال وأباطيل ، وهُمُ ـ نفوسهم ـ يسمّونه ربّاً أعلىٰ ، ويقولون حينما ألقوا حبالهم وعصيهم : ﴿بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبون﴾[20] فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آيات الحق فبهرت أبصارهم ، فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عزة وسلطان ، ولما عنده من زينة الدنيا وزخرفها من قدر ومنزلة ، وغشيت قلوبهم فأزالت منها رذيلة الجبن والملق واتباع الهوىٰ ،

---

(١٨) سورة النازعات ، آية : ٢٤ .

(١٩) سورة طه ، آية : ٧٢ .

(٢٠) سورة الشعراء ، آية : ٤٤ .

والتولّه إلى سراب زينة الحياة الدنيا ، ومكنت فيها التعلق بالحق والدخول تحت ولاية الله والإعتزاز بعزته ، فلا يرون إلّا ما أراده الله ، ولا يرجون إلّا الله ، ولا يخافون إلّا الله عزّ إسمه . فهؤلاء المؤمنون وقد أدركهم الحق ، وغشيهم فأصفاهم وأخلصهم لنفسه . فهم يرون ما يعدّه فرعون حقيقة من أمتعة الحياة الدنيا من مالها ومنزلتها سراباً خيالياً وزينة غارة باطلة ، وأنهم إذ خيروا بينه وبين ما آمنوا به ، فقد خيروا بين الحق والباطل والحقيقة والسراب ، وحاشىٰ أهل اليقين أن يشكوا في يقينهم ، أو يقدموا الباطل على الحق ، والسراب على الحقيقة ، وهم يشهدون ذلك شهادة عيان ، وذلك قولهم **﴿لن نؤثرك . . .﴾** الآية أي لن نختارك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . فليس مرادهم به إيثار شخص بما هو جسد إنساني ذو روح ، بل ما معه مما كان يدعيه أنه يملكه من الدنيا العريضة بما لها ومنالها .

وما كان يهددهم به فرعون من القتل الفجيع والعذاب الشديد وقطع دابر الحياة الدنيا وهو ما يرىٰ أن ليس للإنسان إلّا الحياة التي فيها وفيها سعادته وشفاؤه فإنهم يرون الأمر بالعكس من ذلك وأن للإنسان حياة خالدة أبدية لا قدر عندها لهذه الحياة المعجلة الفانية إن سعد فيها فلا عليه أن يشقىٰ في حياته الدنيا وإن شقي فيها فلا ينفعه شيء .

وعلى ذلك فلا يهابون أن يخسروا في حياتهم الدنيا الداثرة إذا ربحوا في الحياة الأخرىٰ الخالدة وذلك قولهم لفرعون ـ وهو جواب تهديده إياهم بالقتل ـ **﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . . .﴾** الآية ثم الآيات التالية الحاكية لتتمة كلامهم مع فرعون تعليل وتوضيح لقولهم : **﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾** . وبعد هذا الإستعراض لسيرة هؤلاء المؤمنين يتجلىٰ لنا معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ :

(يا من استنقذ السحرة بعد طول الجحود . . .) النص يعني أنه أنقذهم من براثن فرعون وأباطيله وأضاليله ومما كانوا يعملونـه هم أنفسهم من الإغراء والإغواء ، فأخرجهم بعد هـذا الجحود من الـظلمات إلى النـور ، بعد أن كانوا في نعمته يرتعون ويأكلون من الرزق الذي أباحه لخلقه مع جحودهم لـه وعبادتهم لفـرعـون . وقـد (حـادّوه) يعني تعـدوا حـدوده واستبـاحـوا المحرمات ، وهو العمل بالسحر الذي منعه الإسلام وحرمه . وقد (نادّوه) يعني أنهم جعلوا لله أنداداً وشركاء يعبدونهم من دون الله ـ كما أشرنا لهذا المعنىٰ في فصل اللغة ـ وذلك بأنهم جعلوا فرعون إلٰهاً يعبدونه وأيدوه فيما ادّعىٰ ، ونـاصروه على البـاطل بعـد أن جاءتهم الـرسل كمـوسىٰ وهارون وغيرهم من المرشدين والمصلحين .

كل هذا قد حصل منهم وجرىٰ لهـم في أيام استعباد فرعون لهم ، ولكنهم عـادوا إلى رشـدهم ، واستيقـظوا من غفلتهم وحكمـوا عقـولهم فأوصلتهم تلك إلى شاطىء الأمان بعد أن هزتهم المعجزات هزاً .

وقد قيل بأنهم كانـوا سبعين من شيوخ الكهنـة والعلماء والسحـرة ، ختموا أعمالهم بخاتمة الخير ، فآمنوا بربّهم وتابوا إليه فقبل الله تـوبتهم ، ونوّه بذكرهم في القرآن الكريم فكانوا بذلك أسوة حسنة للتائبين النـادمين المنقطعين إلى الله المخلصين له في التوبة .

بين السحر والعلم

تقدم في فصل اللغة المعنىٰ اللفظي لكلمة السحر أما ها هنا فسنتناول هذه الكلمة بأن نأخذ معناها من حيث علاقته بأمر آخر وهو العلم ، وذلك للمسانخة الموجودة بينهما وصور الإلتقاء في بعض الجوانب والإفتراق في جوانب أخرىٰ . وسنحاول في هذا البحث التفريق بينهما لنستجلي المعنىٰ لكل من كلمة السحر وكلمة العلم وذلك لمعرفة الآثار التي تنشأ عنهما والتي تؤثر تأثيراً مباشراً على المجتمعات البشرية سلباً وإيجاباً فنقول :

إن العلوم الباحثة من غرائب التأثير كثيرة والقول الكلّي في تقسيمها وضبطها عسيرة جداً ، وأعرف ما هو متداول بين أهلها ما نذكره منها :

السيمياء : وهو العلم الباحث عن تمزيج القوىٰ الإرادية مع القوىٰ الخاصة الماديّة للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية ، ومنه التصرف في الخيال المسمىٰ بسحر العيون وهذا الفن من أصدق مصاديق السحر .

الليمياء : وهو العلم الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح القوية العالية كالأرواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغير ذلك

بتسخيرها أو باتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم وهو من التسخيرات .

الهيمياء : وهو العلم الباحث عن تركيب قوىٰ العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير وهو الطلسمات ، فإن للكواكب العلوية والأوضاع السماوية إرتباطات مع الحوادث المادية كما أن العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك ، فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان وحياة فلان ، وبقاء فلان مثلاً مع الصورة المادية المناسبة انتج ذلك الحصول على المراد وهذا معنىٰ الطلسم .

ومنها **الريمياء** : وهو العلم الباحث عن استخدام القوىٰ المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الإنحاء وهو الشعبذة ، وهذه الفنون الأربعة مع خامس يتلوها وهو :

الكيمياء : وهو الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض كانت تسمىٰ عندهم بالعلوم الخمسة الخفية ، قال شيخنا البهائي : أحسن الكتب المصنفة التي في هذه الفنون . كتاب رأيته في بلدة هرات إسمه (كله سر) وقد ركب إسمه من أوائل أسماء هذه العلوم ، الكيمياء والليمياء والهيمياء والسيمياء ، والريمياء ، ومن الكتب المعتبرة فيها خلاصة كتب بنيناس ورسائل الخسر وشاسي والذخيرة الإسكندرية والسر المكتوم للرازي والتسخيرات للسكّاكي وأعمال الكواكب السبعة للحكيم طمطم الهندي ، ومن العلوم الملحقة بما مر علم الأعداد والأوفاق وهو الباحث عن ارتباطات الأعداد والحروف للمطالب ووضع العدد أو الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة أو مربعة أو غير ذلك على ترتيب مخصوص ومنها : الخافية وهو تكسير حروف المطلوب أو ما يناسب المطلوب من

الأسماء واستخراج أسماء الملائكة أو الشياطين الموكلة بالمطلوب والدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب ومن الكتب المعتبرة فيها عندهم كتب الشيخ أبي العباس البوني والسيد حسين الإخلاطي وغيرهما .

ومن الفنون الملحقة بها الدائرة اليوم التنويم المغناطيسي وإحضار الأرواح وهما كما مر من تأثير الإرادة والتصرف في الخيال وقد ألف فيها كتب ورسائل كثيرة . واشتهار أمرها يغني عن الإشارة إليها ها هنا ، والغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر أو الكهانة .

ويمكن بعدما تقدم من بيان أن نفرق بين السحر والعلم في كثير من الأمور مع عدم المنافاة في كون السحر علماً مستقلاً ، ولكنه مبني على ما تقدم من التأثيرات الغير طبيعية منها :

أولاً : أن السحر لا يستطيع إلّا الهدم ، بينما العلم يستطيع الهدم ويستطيع البناء . وبعبارة أخرىٰ أن السحر ليس فيه سوىٰ الضرر ، أما العلم فإن فيه الضرر وفيه المنفعة وهو للمنفعة أقرب .

ثانياً : أن السحر ليس له حقيقة واقعة ـ كما تقدم من الكلام ـ وإنما يأتي تأثيره بطرق مختلفة من التأثيرات . أما العلم فإنه حقيقة واقعة يستجليها الإنسان ويراها ويعتقدها .

ثالثاً : أن السحر يزول أثره بزوال المؤثّر . أما العلم فإن أثره باق ولو زال مؤثره .

وعلى ما تقدم يمكن القول بأن المشركين عندما طرحوا فرية (ساحر كذاب) ونسبوا ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ يبدوا أنهم قد خططوا للتشبيه على عقول الناس لوجود جوانب من المشابهة بين السحر الذي لا

حقيقة له ، وبين العلم الذي هو الحقيقة بعينها ، والذي قد اعتمده الأنبياء في كثير من احتجاجاتهم ومعجزاتهم وقد خاطبوا المجتمع البشري بمنطقه الواضح الصريح . على أن المشركين قد خاطبوا المجتمع الفطري بما ينطلي عليه وينخدع به ، فصدقوا ما قال هؤلاء المشركون من نسبة السحر إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وقد ظهرت هذه المقولة في كثير من الحوادث التي جرت وقد أخذتها واستمزجتها آراء الناس ، وصدقتها عقولهم بدون أدنىٰ تأمل ، إما لعدم القدرة على التفكير ، وإما بدافع من الأنانية والحسد ، وإما بدافع جبري ، وأما لعوامل أخرىٰ .

الأعرابي صاحب الإبل وأبو جهل

ذكروا بأن إعرابياً أجيراً جاء يبيع إبلاً في مكة ، فاشتراها منه أبو جهل بن هشام ، فماطله بالثمن ، فشكى ذلك إلى النبي (ص) فذهب إلى منزل أبي جهل مع الأعرابي ولفيف من الناس للمطالبة بثمن الإبل ، فخرج أبو جهل في حالة غضب وانفعال يريد أن يفتك بالنبي عندما رآه واقفاً على باب داره يطالبه بثمن الإبل ، وردم الباب في وجهه لما عرف أن الغرض هو المطالبة بدين ، واعتبر ذلك إهانةً كبيرةً ، ودخل إلى المنزل ومكث مدةً طويلةً والناس يترقبون خروجه في حيرة وحذر . وفجأة خرج أبو جهل يحمل صرة فيها ثمن الإبل كاملاً ، فوضعها بين يدي الأعرابي ، وقال للأعرابي : عدها فعدها فوجدها كاملة . فقال النبي للأعرابي : خذ ثمن إبلك واذهب إلى أهلك . واستغرب الناس من موقف أبي جهل هذا ، فسألوه عن ذلك . فقال : إني دخلت إلى المنزل لآخذ السيف وأقتل محمداً فصار السيف أفعىٰ . وأردت أن آخذ حديدة . فصارت الحديدة عقرباً . . وهكذا كلما أخذت شيئاً تحول إلى شيء آخر يهاجمني ، وأخيراً وجدت نفسي محاصراً في منزل قد امتلأ بالحيات والعقارب فإما أن أخرج الدنانير لصاحبها ، أو أهجر منزلي (فقد سحرني محمد في منزلي) هكذا

كانوا يشبهون على الناس لئلّا يميلوا مع محمد ويؤمنوا به وذلك بدافع من الغرور والأنانية ، ولم يقل أبو جهل هذه معجزات من محمد ظاهرة باهرة ، والله المستعان على ما يصفون .

حكم السحر في الشريعة

إتفق علماؤنا رضوان الله عليهم على حرمة تعلمه وتعليمه إلّا لغرض الحل وهو المقابلة والمعارضة ، وكف أذاه عن الناس مستندين إلى كثير من الأدلة تنص صراحة على حرمته منها ما ورد في تفسير العسكري عن آبائه عليهم السلام ، في حديث قال : في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾[٢١] قال : كان بعد نوح ـ عليه السلام ـ قد كثرت السحرة المموّهون ، فبعث الله عزّ وجلّ ملكين إلى نبيّ ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة ، وذكر ما يبطل به سحرهم ، ويرد به كيدهم ، فتلقاه النبي عن الملكين ، وأداه إلى عباد الله بأمر الله عزّ وجلّ ، وأمرهم أن يقفوا به على السحر وأن يبطلوه ، ونهاهم أن يسحروا به الناس . وهذا كما يدل على السحر ما هو، وما يدفع به غائلة السحر، إلى أن قال : وما يعلمان من أحد ذلك السحر وابطاله حتى يقولا للمتعلم : انما نحن فتنة ، وامتحان للعباد ليطيعوا الله في ما يتعلمون ، من هذا ويبطلوا به كيد السحرة ولا يسحروهم ، فلا تكفر باستعمال هذا السحر ، وطلب

(٢١) سورة البقرة ، آية : ١٠٢ .

الأضرار به ودعاء الناس إلى أن يعتقدوا أنك به تحيي وتميت ، وتفعل ما لا يقدر عليه إلّا الله عزّ وجلّ ، فإن ذلك كفر إلى أن قال ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، لأنهم إذا تعلموا ذلك السحر ليسحروا به ويضروا به فقد تعلموا ما يضرهم في دينهم ، ولا ينفعهم . الحديث .

ومنها ما جاء في نهج البلاغة (المنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار) .

ومنها ما جاء في البحار (من تعلم شيئاً من السحر ، قليلاً أو كثيراً فقد كفر ، وكان آخر عهده بربّه ، وحدّه أن يقتل إلّا أن يتوب .

وهناك كثير من الآيات والروايات التي تدل بصراحة على حرمة السحر ليس هذا موضع ذكرها .

قال عليه السلام :

[يٰا الله ، يٰا بَديءُ لا بَدْءَ لَكَ ، يٰا دٰائماً لاٰ نَفٰادَ لَكَ ، يٰا حَيُّ يٰا قَيُّومُ ، يٰا مُحْيِـيَ الْمَوْتىٰ ، يٰا مَنْ هُوَ قائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ ، يٰا مَنْ قَلَّ لَهُ شُكْــري فَلَمْ يُحْـرِمْني ، وَعَــظُمَتْ خَـطيئَتي فَلَمْ يَفْضَحْني ، وَرَآني عَلىٰ الْمَعٰاصي فَلَمْ يَخْذُلْني] .

اللُّغة

بدىء : بدىء ذي بدء أي أول أول ، وقوله تعالى : ﴿**وما يبدىء الباطل وما يعيد**﴾[1] قال فيه الزجّاج : (ما) في موضع نصب ، أيْ: أيُّ شيء يبدىء الباطل ؟ وأيّ شيء يعيد ؟

وبديء من بدأت ، والبدء العجب ، وجاء بأمر بـدىء أي عجيب . والبـدء السيد الأول في السيـادة . والبدء والبـديء البئـر التي حفـرت في الإسلام حديثة ، والبدىء المخلوق .

نفاد : نفد الشيء نفداً ونفاداً فني وذهب . وفي التنزيل العزيز : ﴿**ما**

---

(١) سورة سبأ ، آية : ٤٩ .

نفدت كلمات الله﴾[٢] قال الزجاج : معناه ما انقطعت ولا فنيت . يروىٰ أن المشركين قالوا في القرآن هذا الكلام سينفد وينقطع فأعلم الله تعالى أن كلامه وحكمته لا تنفد . وأنفد القوم إذا نفد زادهم ، أو نفدت أموالهم .

قال ابن هرمة :

أغر كمثل البدر يستمطر الندىٰ ويهتز مرتاحا إذا هو أنفدا

ونافدت الخصم منافدة إذا حاججته حتى تقطع حجته .

قيوم : القيوم والقيّام والمدبر واحد . قال الزجاج القيّوم والقيّام في صفة الله ـ تعالى ـ وأسمائه الحسنىٰ القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم .

وقال قتادة : القيّوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم .

وقال مجاهد : القيّوم القائم على شيء .

وقال الكلبي : القيّوم الذي لا بدء له ، والقيّوم من أسماء الله المعدودة ، وهو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به موجود حتىٰ لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلّا به .

يخذلني : الخاذل ضد الناصر ، والتخذيل حمل الرجل على خذلان صاحبه ، وخذلان العبد أن لا يعصمه من الشبه فيقع فيها نعوذ بالله من ذلك ، وخذّل عنه أصحابه تخذيلاً أي حملهم على خذلانه ، وتخاذل القوم أي خذّل بعضهم بعضاً ، وفي الحديث : المؤمن أخو المؤمن لا يخذله .

ورجل خذول الرِّجل تخذله رجله من ضعف أو عاهة . قال الأعشىٰ :

فترىٰ القوم نشاوى كلّهم مثلما مدت نصاحات الربح

---

(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٧ .

كـــل وضـــاح كـــريـــم جـــده   وخـذول الـرجـل من غيـر كســح

البيان

لا زال في هذه الفقرة يسأل الله في مثل ذلك الموقف ، ويتوسل إليه بأعز أسمائه لديه . وعندما يذكر صفاته وأسماءه بالثناء والحمد ويناديه نداء المستجير المنقطع إليه يلتمس من وراء ذلك الإجابة المحققة التي لا يراوده فيها أدنى شك .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (يا الله يا بديء لا بدء لك ، يا دائماً لا نفاد لك) هو قد وصفه فيه بصفتين لم يشاركـه فيهما أحـد من الموجـودات . فالبداية بلا بدء ، والدوام بلا نفاد هما صفتان خاصتان به ـ سبحانه ـ .

أما الأولى فإن بـداية الخلق من أول يـوم خلق الله الخلق فيه مهمـا توغلنا في عمق الزمن ، ومهما رجعنا بالتاريخ الكوني إلى الخلف ، ومهما كـانت الأعـداد المـذهلة من السنين الكـوني إلى الخلف ، ومهمـا كـانت الأعداد المذهلة من السنين بملايينها وآلاف ملايينها فإنها لا بدّ في النهاية أن تقف عند نهاية ، سواءً علمها العقل أم لا ، وسواءً تعقلها أم لا ، وسواءً تصورها أم لا .

فتغيـر العالم دليـل على حدوثـه ، فكل متغيـر حـادث . والحـركـة والسكون في هذا الكون تدلان على أن كل شيء فيه متغير ، وهذا كلام لا كلام فيه .

أما بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ فإن بدايته بلا بـداية كمـا هو في النص الماثل أمامنا (يا بديء لا بدء لك) ؛ وذلك لعدم إنفكاك الموجودات عن موجدها ، والمخلوقات عن خالقها ، والمعلول عن العلة .

وأما بالنسبة إلىٰ الصفة الثانية وهي قوله ـ عليه السلام ـ : (يا دائماً لا نفاد لك) فإنه قد مرّ علينا في فصل اللغة أن النفاد بمعنىٰ الذهاب والفناء . وهذه من الصفات الثابتة له ـ تعالى ـ بالضرورة ، وكما توضحه الصفات المتلاحقة في النص الماثل بين يدي البحث .

وقد ورد الكثير في هذا المعنىٰ في الكتاب العزيز ، كما ورد تفسير ذلك أيضاً عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ فمن ذلك ما جاء في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ـ رحمه الله ـ قال :

حدثنا محمد بن موسىٰ بن المتوكل ـ رحمه الله ـ ، قال : حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير ، عن ابن أذينه ، عن محمد بن حكيم ، عن الميمون البان قال : سمعت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ وقد سئل عن قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**هو الأول والآخر**﴾ ، فقال ـ عليه السلام ـ : الأول لا عن أول كان قبله ولا عن بديء سبقه ، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، ولكن قديم أول ، آخر لم يزل ، ولا يزال بلا بدء ولا نهاية ، لا يقع عليه الحدوث ، ولا يحول من حال إلى حال ، خالق كل شيء[٣] .

وفيه أيضاً قال : حدثنا الحسين بن أحمد بن إدريس ـ رحمه الله ـ ، عن أبيه ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن صفوان بن يحيىٰ ، عن فضيل بن عثمان ، عن ابن أبي يعفور ، قال : سألت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**هو الأول والآخر**﴾ ، وقلت : أما الأول فقد عرفناه ، وأما الآخر فبين لنا تفسيره ، فقال : إنه ليس شيء إلّا يبيد أو يتغير أو يدخله الغير والزوال أو ينتقل من لون إلى لون ، ومن هيئة

---

(٣) كتاب التوحيد للصدوق : ص٣١٣ .

إلى هيئة ، ومن صفة إلى صفة ، ومن زيادة إلى نقصان ، ومن نقصان إلى زيادة إلاّ ربّ العالمين ، فإنه لم يزل ولا يزال واحداً هو الأوّل قبل كل شيء ، وهو الآخر على ما لم يزل . لا تختلف عليه الصفات والأسماء ما لم يختلف علىٰ غيره مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرة ، ومرة لحماً ، ومرة دماً ، ومرة رفاتاً ورميماً ، وكالتمر الذي يكون مرة بلحاً ، ومرة بسراً ، ومرة رطباً ، ومرة تمراً ، فيتبدل عليه الأسماء والصفات ، والله ـ عزّ وجلّ ـ بخلاف ذلك(٤) .

ومما جاء في دعاء يوم الجمعة عن الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ قوله : (الحمد لله الأول قبل الإنشاء والإحياء ، والآخر بعد فناء الأشياء . . .) الدعاء . وفي نهج البلاغة قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : (. . . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله ، والآخر لا غاية له ، لا تقع الأوهام له على صفة ، ولا تعقد القلوب منه على كيفية ، ولا تناله التجزئة والتبعيض ، ولا تحيط به الأبصار والقلوب) .

(٤) كتاب التوحيد للصدوق : ص٣١٣ .

الحَيُّ القَيُّوم

ثم قال ـ عليه السلام ـ متابعاً لذكر هذه الصفات : (يا حيّ يا قيوم) وكلمة (حي) من الألفاظ المشككة وهي التي يسبق معناها إلى بعض مصاديقها قبل البعض الآخر .

وإذا تأملنا هذه الصفة والصفة التي بعدها (قيوم) ندرك شدة التلازم بينهما في كثير من لغة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ سواءً في الأدعية أو في الأخبار الواردة عنهم ، والذي من أجله أتبع الإمام ـ عليه السلام ـ في هذه العبارة الصفة الأولى بالثانية .

وفي الكتاب العزيز ورد ذلك أيضاً في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . .**﴾ الآية[5] وندرك ذلك التلازم بين الكلمتين أيضاً مما ورد في فصل اللغة ومما قاله المفسرون في هاتين الكلمتين ضمن تفسير الآية السابقة .

فقد قال الزمخشري في الكشاف : (الحي) الباقي الذي لا سبيل عليه بالفناء ، وهو على إصطلاح المتلكمين الذي يصح أن يعلم ويقدر .

---

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

و (القيوم) الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه .

وقال الطباطبائي في الميزان : وأما إسم الحي فمعناه ذو الحياة الثابتة على وزان سائر الصفات المشبهة في دلالتها على الدوام والثبات .

ثم يقول : ومن هنا يظهر أن الحياة الحقيقية يجب أن تكون بحيث يستحيل طرو الموت عليها لذاتها ، ولا يتصور ذلك إلّا بكون الحياة عين ذات الحي غير عارضة لها ، ولا طارئة عليها بتمليك الغير وإفاضته . قال تعالى : **﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾**[٦] . وعلى هذا فالحياة الحقيقية هي الحياة الواجبة ، وهي كون وجوده بحيث يعلم ويقدر بالذات .

ومن هنا يعلم أن القصر في قوله تعالى : **﴿هو الحي لا إله إلّا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾**[٧] قصر حقيقي غير إضافي ، وأن حقيقة الحياة التي لا يشوبها موت ، ولا يعتريها فناء وزوال هي حياته ـ تعالى ـ . فالأوفق أن يكون لفظ (الحي القيوم) خبراً بعد خبر فيفيد الحصر ؛ لأن التقدير : الله الحي . فالآية تفيد أن الحياة لله محضاً إلّا ما أفاضه لغيره .

ومثل الآية ما جاء في عبارة الدعاء وإن كانت بأسلوب آخر لكنها مع الآية في معنىً واحد ، خصوصاً بعد معرفة الحياة الحقيقية الدائمة التي تنسب إليه ـ سبحانه ـ والحياة الفانية التي أفاضها على مخلوقاته .

وأما (القيوم) فهو بحسب ما ورد في معاجم اللغة أن القيام هو حفظ الشيء وتدبيره وتربيته والمراقبة عليه والقدرة عليه . كل ذلك مأخوذ من

---

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٥٨ .

(٧) سورة غافر ، آية : ٦٥ .

(القيام) بمعنىٰ الإنتصاب للملازمة العادية بين الإنتصاب وبين كل منها .

وقد أثبت الله ـ تعالىٰ ـ أصل القيام بأمور خلقه بنفسه في كلامه حيث قال تعالى : **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[8] ، وقال تعالى : **﴿شهد الله أنه لا إلٰه إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾**[9] ، فأفاد أنه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطي ولا يمنع شيئاً في الوجود ، وليس الوجود إلاّ الإعطاء والمنع بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه . ثم بين أن هذا القيام بالعدل مقتضىٰ إسميه الكريمين (العزيز الحكيم) فبعزته يقوم على كل شيء ، وبحكمته يعدل فيه .

وقد ظهر من هذا البيان أن إسم (القيوم) من الأسماء الثابتة له ـ تعالى ـ ، وهي الأسماء التي تدل على معان خارجه عن الذات بوجه ، كالخالق والرازق والمبدأ والمعيد والمحيي والميت .

ثم أكدّ ـ عليه السلام ـ ما تقدم من صفة القيوم بقوله : (يا من هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقد ورد هذا النص في الكتاب العزيز في الآية الكريمة التي ذكرناها تواً : **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[10] وكما تقدم أن هذا القيام معناه التدبير لسائر الموجودات بالعدل والحكمة ، قال المفسرون القائم بشيء من الأمر هو الذي يدبره نوعاً من التدبير ، والله ـ سبحانه ـ هو القائم على كل نفس بما كسبت .

أما قيامه عليها فلأنه محيط بذاتها ، قاهر عليها ، شاهد لها .

وأما قيامه بما كسبت فلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبة الحركة

---

(٨) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

(٩) سورة آل عمران ، آية : ١٨ .

(١٠) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

والسكوت إلى أعمال محفوظة عليها في صحائف الأعمال ، ثم يحولها إلى المثوبات والعقوبات في الدنيا والآخرة من قرب وبعد ، وهدىً وضلال ، ونعمة ونقمة ، وجنة ونار . فهو يهدي من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب ، ويضل من يشاء فيجازيه بأشدّ العقاب ، وله الأمر جميعاً ، فهو قائم على كل نفس بما كسبت .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ كيف يتواضع بإخلاص في لهجة المنكسر الذي يستعطف مولاه وكله أمل ، ويطلب منه حاجته وكله رجاء ، فيقول : (يا من قلّ له شكري فلم يحرمني) وشكر النعم من العبد مهما بلغ بذلك إلى أعلى المراتب فإنه لا يبلغ حد شكر النعمة ، وبمعنىً آخر أنه لا يستطيع أن يؤدي حقها وقد ذكر ذلك القرآن المجيد في قوله تعالى : **﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾**[11] ؛ لأنه لا يمكن أن يشكر الإنسان نعماً لا يستطيع أن يحصيها ، لأنه لو أحصاها لقام بشكرها ، ولكن من العسير عليه أن يعدّ هذه النعم بل بعضها ، كيف وهي تتجدد في كل لحظة من لحظات حياة الإنسان . وقد ورد كلام في ما سبق من أبحاث الكتاب في الجزء الأول حول هذا الموضوع وحول هذه الآية بالذات عندما تعرض لها في نص الدعاء .

ونضيف هنا شيئاً آخر وهو أن النعم المتوافرة تنصب على الإنسان وتغمره منذ اللحظات الأولىٰ التي تلج فيها الروح في الجسد ـ مع تسامح في هذا الكلام ـ ثم تمتد هذه النعم مواكبة لحياة الإنسان في حركاته وسكونه ، وفي نومه ويقظته ، وفي سفره وحضره ، بل وحتىٰ في صحته ومرضه .

والآية فيها إشارة إلى كثرة هذه النعم الإلهية كثرة خارجة عن

---

(١١) سورة النحل، آية: ١٨.

الإحصاء . وبالحقيقة ما من شيء إلاّ وهو نعمة إذا قيس إلى النظام الكلي .

وبعد هذا البيان يظهر لك المعنى المراد في العبارة السابقة ، فان هذا التصاغر منه ـ عليه السلام ـ مع إخلاصه في العبادة وكثرتها ، إلاّ أنه في النهاية يعترف بعدم القدرة على إحصاء هذه النعم ، ثم أداء شكرها وهذا في الحقيقة هو الحقيقة .

ثم يمعن ـ عليه السلام ـ في هذا التذلل والخضوع فيقول : (وعظمت خطيئتي فلم يفضحني ، ورآني على المعاصي فلم يخذلني) وهذه العبارة تنبؤك عن طبيعة الإنسان عندما يرتطم بالمعاصي إلاّ من عصمه الله . فكأنه ـ عليه السلام ـ يتكلم نيابة عن الناس ويستغفر للعاصين منهم ، ويطلب من الله المغفرة والرحمة لهٰؤلاء العصاة ، وهذا أقصىٰ ما توجه إليه العبارة ؛ لأنها لو أخذناها على ظاهرها لا تنسجم ومكانته من العصمة والإمامة .

وإذا تأملنا عظم الخطيئة فإن الفضيحة تكاد أن تكون ملازمة لها ، إلاّ أن الله بستره الضافي ورحمته الواسعة ، وإتاحة الفرصة للإنسان لا يعجل عليه بالفضيحة . كما أن المعاصي إذا أدمن عليها الإنسان ومارسها في غدوه ورواحه فإنه يخرج عن قالب الإعتدال ، ويخذله الصديق والقريب ، ولكن الله لا يخذله حتىٰ في مثل هذه الحال ، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين ، ولم يقتر عليه رزقه ؛ وذلك لأنه رؤوف رحيم ، غفور ودود . وقد جاء في دعاء حملة العرش (يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ، يا من لم يهتك الستر والسريرة . .) الدعاء .

فكلامه ـ عليه السلام ـ كما قلنا يشير إلى الطبيعة الإنسانية حيث الوقوع في الخطأ . وأما صفة العصمة فإنها صفة زائدة على طبيعة الإنسان وتركيبه الفيسيولوجي ، وسائر المكونات البشرية .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ حَفِظَني في صِغَري ، يٰا مَنْ رَزَقَني في كِبَري ، يٰا مَنْ أيٰاديهِ عِنْـدي لاٰ تُحْصىٰ ، يٰـا مَنْ نِعَمُـهُ لاَ تُجـازىٰ ، يٰـا مَنْ عـارَضَني بِـالْخَيْـرِ وَالإِحْسٰانِ ، وَعٰارَضْتُهُ بِالإِسٰائَةِ وَالْعِصْيٰانِ ، يٰا مَنْ هَدٰاني لِلإِيمٰـانِ قَبْلِ اَنْ اَعْرِفَ شُكْرَ الإِمْتِنٰانِ] .

اللُّغَة

تحصىٰ : الإحصاء العد والحفظ ، وأحصىٰ الشيء أحاط به ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وأحصىٰ كل شيء عدداً﴾[1] أي أحاط علمه ـ سبحانه ـ لاستيفاء عدد كل شيء . وأحصيت الشيء عددته ، قال ساعدة بن جؤية :

فـورّك ليثـاً أخلص القـين إثـره وحاشكة يحصي الشمـال نذيـرها

وفي أسمـاء الله ـ تعالى ـ المحصى ، وهـو الذي أحصى كـل شيء بعلمه فلا يفوته دقيق منها وجليل .

وفي الحديث : (لا أحصى ثناء عليك) أي لا أحصى نعمك والثناء

(١) سورة الجن ، آية : ٢٨ .

بها عليك ، ولا أبلغ الواجب منه .

عارضني : عارضه بما صنع كافأه ، وعارضه في السيرسار حياله وحاذاه . وفي حديث ابن عباس : (ما أحب بمعاريض الكلام حمر النعم) . والتعريض في خطبة المرأة في عدتها أن يتكلم بكلام يشبه خطبتها ، ولا يصرح به . قال الشماخ :

كما خط عبرانية بيمينه   بتيماء حبر ثمْ عرّض أسطرا

وعرض لك الخير يعرض عروضاً وتعرض معروفه ، وله ، طلبه . والإعراض عن الشيء الصد عنه .

الإمتنان : المنان معناه المعطي إبتداءً ، ولله المنة على عباده ، ولا منة لأحدٍ منهم عليه .

وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطي من المن في كلامه بمعنىٰ الإحسان . والمنان من أبنية المبالغة كالوهاب والرزاق . ويقال المنة تهدم الصنيعة . قال تعالى : **﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾**[٢] .

البيان

في هذه الفقرة جانب من جوانب العناية الإلٰهية بالإنسان هذا الإنسان الذي كان غالباً ما ينكر النعمة ويجحدها ويكفر بربّه وينآىٰ بجانبه . ولقد ذكر ـ عليه السلام ـ ضمن هذا الإطار مرحلتين هما من أهم مراحل حياة الإنسان الفيسيولوجية .

المرحلة الأولى : في قوله : (يا من حفظني في صغري) والحفظ

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .

في الصغر يكون الإنسان الطفل حاجة إليه أكثر من بقية مراحل الحياة ؛ ذلك لأنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً ، ولا يجلب لها خيراً ؛ لأنه ضعيف في كل شيء ، ضعيف في جسمه ، ضعيف في عقله ، ضعيف في تفكيره ، ضعيف في نشاطه ، وفي حركاته وسكناته . وبكلمة عامة عدم إستقلاليته ذاتياً في أموره كلها .

ولقد سخر الله للإنسان في هذه المرحلة قلب الأم الحنون التي تفرغ عليه من العطف والشفقة ما أوجب على الإنسان التقدير والإحترام لها والبر بها ، وقلب المربية التي تغذيه وتراعي حاجاته كلها ، وإن شئت قل : قلوب الناس جميعاً . فإن الكل من الناس بدافع الفطرة يرحم الصغير من الإنسان أو الحيوان ، إلّا من خرج عن طبيعته البشرية وشذ في سلوكه وقدّ قلبه من زبر الحديد . وقد ذكر ـ سبحانه ـ ذلك مرة في مقام الإمتنان على الإنسان ؛ لأن ذلك من جملة النعم . ومرة في مقام الإرشاد والنصيحة وتعريف الإنسان بمقام الأبوين اللذين يكابدان الأتعاب المضنية من أجل سعادة ولدهما ، فكانا يؤثرانه على نفسيهما في جميع حالات تعايشهما . فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وقضىٰ ربّك ألا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً**﴾[٣] .

قال المفسرون : أي اذكر تربيتهما لك صغيراً فادعو الله سبحانه أن يرحمهما كما رحماك وربياك صغيراً .

وقال في الجمع : وفي هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت

---

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

مسموع وإلاّ لم يكن بالأمر به معنى . والذي يدل على كون هذا الدعاء في مظنة الإجابة هو أدب ديني ينتفع به الولد ، وإن فرض عدم انتفاع والديه به . على أن وجه تخصيص إستجابة الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر .

ومما تقدم نستطيع أن نقول : بأن حفظ الإنسان في صغره هو نعمة من النعم الكبيرة التي ترد في مقام الإمتنان ؛ لأن الإنسان إذا كان صغيراً فهو بعيد عمّا يدور حوله من مؤثرات خارجية قد يكون لها مساس به مباشرة ، لا لأنه ليس له طاقة على التفكير والحركة والتعامل مع هذه المؤثرات فقط ، ولكنه في حدود براءته ونزاهته من الغلّ والحقد بحكم الفطرة التي فطر عليها ، بحكم ذلك كله أنه يكون بعيداً كل العبد عمّا يحتمله الإنسان العاقل المجرب من تعامل مع الأحداث والمؤثرات سلباً وإيجاباً ، وما يحمله من هموم لهذه الحياة الجافية التي يحياها الإنسان وهو في خضم من المشاكل .

وبحكم ذلك كله فإن الله قد عوّض الإنسان عن هذه البراءة بحفظه صغيراً ، فعطف عليه قلوب الحواضن ، وكفله الأمهات الرحائم ـ كما تقدم ذلك في الجزء الأول من الكتاب ـ .

المرحلة الثانية : في قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من رزقني في كبري) وإذا تأملنا بنظرة بلاغية في ما جاء من الطباق بين هذه العبارة وبين سابقتها (الصغر والكبر) وجدنا التناسق بينهما واضحاً . وهذه العبارة تشير إلى أن الرزق في الكبر أهم منه في الصغر ؛ وذلك لأن الطفل الصغير يكتفي بنوع واحد من الرزق وهو لبن الأم المغذي ، أو ما يعوض عنه من الغذاء إن صح التعبير ـ . أما في الكبر فإن الإنسان يحتاج إلى كثير من أنواع الغذاء كاللحوم بأنواعها والخضروات والفواكه بأنواعها ؛ لأن كثرة النشاط والطاقات التي يبذلها الإنسان الكبير في كثير من الأوقات تفقد

الجسم كثيراً من المحروقات فهو يحتاج إلى تعويض بتناول مواد مختلفة من الغذاء ، وهذه تحتاج إلى عنايةٍ وزراعة وتعاهد حتىٰ تكون جاهزة للغذاء ، فهي تمر بمراحل مختلفة من العمل المنسق .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرىٰ : يعني إتاحة الفرصة للإنسان لكي يرد على هذه النعمة بالشكر الذي لا يتأتىٰ إلّا من الكبير المكلف ؛ لأن الصغير لا يمكن أن يقوم بشكر هذه النعمة في غياب التكليف الشرعي ، ثم التصرف في هذه النعمة وهذا الرزق للصورة المعقولة التي رسمها منطق الإيمان بلا إسراف ولا تبذير . قال تعالىٰ : **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾**[٤] . وكثير من النواحي غير هذه التي تظهر في سيرة الإنسان في حالة الكبر .

ومرة أخرىٰ من الملاحظ أنه ـ عليه السلام ـ عندما قسم حياة الإنسان هذه بهذا الإعتبار وجعل الكبر مقابلاً للصغر فإن كلمة الكبر بهذه المقابلة تشمل بقية المراحل من حياة الإنسان كمرحلة الشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ؛ لأن الرزق لحسب الملاحظات التي مرت ينبسط على جميع هذه المراحل ، إذا ما فصلنا حياة الصغر التي لا تشمل إلّا زماناً قصيراً من عمر الإنسان ، ولا تحتاج إلّا للبسيط من الرزق .

ومن الأمور الوجدانية أن الأزمنة الفيسيولوجية من عمر الإنسان عدا الطفولة تتطلب المزيد من الحاجات الإنسانية ؛ لأن الإنسان في هذه الأزمنة بسبب إختلاطه مع أبناء جنسه يفتح عينيه على كثير من مظاهر الحياة ومتطلباتها . فيرجو لنفسه ما يستطيع الحصول عليه ، ويسعىٰ لتحقيقه ، ويتمنىٰ تحقيق المستحيل من هذه المظاهر حتىٰ يتهالك عليها ، ويلقي

---

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٢٩ .

بنفسه في المخاطر والمهالك من أجلها بمختلف من الدوافع الإجتماعية والأنانية . وقد يختار لنفسه أوعر الطرق مسلكاً ، وأبعدها شوطاً ، إما بدافع إستعراض العضلات وإما لتوهم حصول الرزق من هذا الطريق الوعر ، أو ما يمليه عليه الخمول أو النشاط . وربما يختار لنفسه في سبيل تحقيق مآربه رغبة في اختصار الزمان والمكان ما كان حراماً من جهة ومخظوراً من جهة أخرىٰ ، كالمقامرة والسرقة وغيرهما من الطرق الشاذة . على أن الله قد عوّض الإنسان عن ذلك بالرزق الحلال ، فكلما أغلق باباً من أبواب الحرام عن الإنسان فتح له باباً آخر من الرزق الحلال . قال تعالى : ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[٥] . فقد أضاف في هذه الآية الرزق إلى نفسه وهذا يدل على إباحته للرزق الحلال ، لأنه قد أمر به وحرّم الحرام ونهىٰ عنه . وفي الآية مزيد من التفصيل لا نطيل الكلام بالتعرض إليه فمن أراد ذلك فليقرأه في مضانه من كتب التفسير .

وفي هذا المقام نراه كثيراً ما يعدد النعم ويحمد الله ويثني عليه ، وبنظرة تأمل نجد أن العلاقة بين الخالق والمخلوق هو الرزق وإفاضة النعم ؛ لأنه عام شامل لجميع أجناس المخلوقات من إنسان وحيوان .

أما مسألة الإيمان والكفر فإنها لا علاقة لها بموضوع الرزق فإنه يرزق الكافر كما يرزق المؤمن ، ويرزق الحيوان كما يرزق الإنسان .

على أن الإنسان ، ليس كل الإنسان ، في كثير من أحاينه ظلوم كفار ، جهول بمقام النعمة ، منكر لها .

فهذا الرباط الوثيق الذي يربط المخلوق بالخالق ، وذلك بحكم

---

(٥) سورة الملك ، آية : ١٥ .

الحاجة إليه ـ سبحانه ـ تجعل الإنسان المؤمن المطمئن كثيراً ما يلهج بهذه النعم ، وعندما يذكرها في مقام الشكر والإعتراف بها فهو في عبادة محضة لا يخالطه شيء من الرياء .

وقوله ـ عليه السلام ـ : (يا من أياديه عندي لا تحصىٰ ، يا من نعمه عندي لا تجازىٰ) ليس بكلام شاعر ، وليس بكلام كاهن ، وليس بكلام منجم ، وإنما هو كلام نابع من مفاهيم خاصة بعصمة الأئمة ، ومن منطق الوحي ، أي أنه جاء من عند الله وإليه يعود (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[٦] .

(فالأيادي) ـ كما مرّ في فصل سابق ـ جمع يد وهي النعم ، إلاّ أنها تكون أعم مطلقاً منها ؛ لأنها تطلق على كل إحسان . أما النعم التي ذكرها في الجملة الثانية فهي خاصة بأسباب الرزق ، ـ كما يلوح في أفق العبارة ـ فهي من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهو من نوع الإطناب كقوله ـ تعالى ـ : ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ**﴾[٧] .

على أنه قد ورد في بعض مضامين الأخبار والأدعية المأثورة عن أهل البيت الطاهر ما يدل على عموم كلمة النعم في كثير من الحالات عموم كلمة النعم ، واستعمالها كالأيادي ومعنىٰ ذلك قد ترد مساوية إحداهما للأخرىٰ .

وبنظرة تأمل أخرىٰ نجد الإعتراف ظاهراً في هاتين العبارتين بالعجز عن احصاء هذه (الأيادي) عدم القدرة على مجازاة هذه النعم ، أو بمعنىٰ آخر عدم الإستطاعة لأداء شكرها والقيام بحقها .

---

(٦) سورة يٓس، آية : ٨٣ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٣٨ .

هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من عارضني بالخير والإحسان ، وعارضته بالإساءة والعصيان) ورد في فصل اللغة أن المعارضة بمعنىٰ الطلب ، ومعنىٰ ذلك أن الله قد ابتدر الإنسان بمعروض الخير ، وأعطاه قبل أن يسأله . وجاء في المأثور عنهم ـ عليهم السلام ـ « يا من يعطي من سأله ، يا من يعطي من لم يسأله ولم يعرفه تحنناً منه ورحمة . . . » الدعاء ، وبذلك تتجلىٰ للإنسان رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أروع صورها فالمعارضة بالخير والإحسان يعني العطاء لا بجزاء ، فإن كلمة (الإحسان) ـ تفيد معنىٰ العطاء إبتداءً بدون مقابل ، وهذا أيضاً من جملة النعم التي تضاف إلى ما تقدم ، فإن العطاء بدون المسألة نعمة أخرىٰ غير العطاء بالمسألة التي حث عليها ـ سبحانه ـ عباده لكي يرتبطوا به في كل حالاتهم عندما يأكلون من رزقه .

أما المعارضة بالإساءة والعصيان فهذا من شأن العبد الذي لا ينفك عن الذنوب ، مع صرف النظر عن أفراد لا ينتابهم ما ينتاب غيرهم ، ولا يصدر منهم ما يصدر من غيرهم ، وهم الأنبياء والأئمة المعصومون ـ عليهم السلام ـ .

وعندما تسن القوانين وتوضع الأسس الدستورية لأي نظام فلا بدّ وأن يؤخذ في الإعتبار السواد الأعظم من المجتمع البشري الذي يشمله ذلك النظام ، وأما بقية أفراد من الناس سواءً كانوا في الأعلىٰ أو الأسفل ، فإن هؤلاء خارجون عن القواعد الأساسية لأي نظام إجتماعي بسبب صفات زائدة فيهم .

فالإساءة والعصيان عندما تردان على لسان الحسين ـ عليه السلام ـ في ذلك الموقف فإنهما لا يتعديان المبالغة في التضرع والخشوع ، وكأنه يشير بذلك إلى كونه إنساناً قبل كل شيء ، بغض النظر عن الصفة الزائدة وهي (العصمة) .

ثم إن هذه الصفة أيضاً لا تمنع الإنسان من أن يبالغ في العبادة ، ويزيد في الطاعة فإن مثل هذه المناجاة هي عبادة وأي عبادة ، وهي خشوع وأي خشوع . هذا إذا لم نقل العكس ، وهو أن العصمة تعطي الإنسان دفعاً جديداً ، وأسلوباً متطوراً ، وقلباً خالصاً لممارسة العبادة بإخلاص . وأي إخلاص أعظم من ذلك ؟

واحتمال آخر وهو أن الإساءة والعصيان تأتي بمعنىٰ التقصير في العبادة وتأدية حق النعمة ، وهذا الإعتراف لا ضير فيه سواءً كان من المعصوم ، أو من غيره ، فإن الإنسان مهما بالغ في الطاعة فلا يزال مقصراً في عبادته ، لا يستطيع أن يؤدي شكر نعمة واحدة من نعم الله التي لا تحصىٰ ، وهذا في حدّ ذاته إساءة وعصيان بالمعنىٰ الأعم وهذا من الإستعمالات التي يحتمل فيها المجاز ، وهو غير مؤاخذ عليه الإنسان وليس داخلاً في حساب الذنوب .

ونظير هذا ما ذكره السيد المرتضىٰ علم الهدىٰ ـ رحمه الله ـ في

الحديث عن معصية آدم ـ عليه السلام ـ قال : وصف تارك الندب بأنه عاصي توسع وتجوز ، والمجاز لا يقاس عليه ، ولا يعدىٰ به عن موضعه . ولو قيل إنه حقيقة في فاعل القبيح ، وتارك الأولىٰ والأفضل ، ولم يجز إطلاقه أيضاً في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلاّ مع التقييد ؛ لأن استعماله قد كثر في القبائح ، فإطلاقه بغير تقييد موهم ، لكنّا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنهم فعلوا القبائح فلا يجوز ذلك ، وإن أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه إستحقوا الثواب وكان أولى فهم كذلك . وهناك نواحي أخرىٰ قد ترد في مثل هذا المقام تركناها خوف الإطالة .

إذاً فالإشارة بالإساءة والعصيان من النص الماثل أمامنا إلى طبيعة الإنسان من حيث أن له نفساً أمارة بالسوء يحدوها الشيطان الغوي وتشجعها زخارف الدنيا وبهارجها وغير ذلك من المؤثرات التي تسبب للإنسان الإرتباك في التصرف المعقول والإبتعاد أكثر فأكثر عن الواقعية الحرة ، ولكن هذا في عامة الناس ـ كما مرت الإشارة إليه ـ . وأما المعصوم فإن له نفساً قد روّضها وملك زمامها ، فلا تميل إلى هواها ، أو لا يميل هو بميلها ، وقد جاء في كلام للإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قوله : (هيهات أن يغلبني هواي ، أو تقودني نفسي بأزمة الأطعمة) . وهناك وجوه أخرىٰ ندركها عند التأمل نستطيع أن نبتعد بها عن مراودة الذنوب وإيحاءات النفس .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (يا من هداني للإيمان قبل أن أعرف شكر الإمتنان) الهداية هي الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق ، وهي نحو إيصال إلى المطلوب . وإنما تكون من الله ـ سبحانه ـ وسننه سنة الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب ، ويتحقق به وصول العبد إلى غايته في سيره ، وقد بينه الله ـ سبحانه ـ بقوله : **﴿من يرد الله أن يهديه يشرح صدره**

للإسلام﴾[8] . وكما أن سُبُلَه ـ تعالى ـ مختلفة ، فكذلك الهداية تختلف باختلاف السبل التي تضاف إليها فلكل سبيل هداية قبله تختص به .

إذاً فالهداية للإيمان هي منة أخرىٰ ونعمة كبرىٰ ، وقد ذكر ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه المجيد في مقام الإمتنان فقال : **﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾**[9] .

قال الشيخ في التبيان في تفسيرها : المن القطع بإيصال النفع الموجب للحق . ومنه قولهم المنة تكدر الصنيعة . وقيل : إذا كفرت النعمة حسنت المنة .

وأكثر المفسرين على أن الآية نزلت في المنافقين وقال الحسن : نزلت في قومٍ من المسلمين قالوا : أسلمنا يا رسول الله قبل أن يسلم بنو فلان ، وقاتلنا معك بني فلان . وقال الفرّاء : نزلت في أعراب بني أسد ، قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بعيالاتهم طمعاً في الصدقة ، فكانوا يقولون : اعطنا فإنّا أتيناك بالعيال والأثقال . وجاءتك العرب على ظهور رواحلها ، فأنزل الله فيهم الآية . ثم قال : **﴿بل الله يمن عليكم﴾** بأنواع نعمه و **﴿بأن هداكم للإيمان﴾** وأرشدكم إليه بما نصب لكم من الأدلة عليه . ورغبكم فيه **﴿إن كنتم صادقين﴾** في إيمانكم الذي تدّعونه . ومتى كنتم صادقين يجب أن تعلموا أن المنة لله عليكم في إيمانكم لا لكم على الله ورسوله .

ومما تقدم بيانه نستخلص أن الهداية للإيمان سابقة على الشكر لأنها

---

(٨) سورة الانعام ، آية : ١٢٥ .

(٩) سورة الحجرات ، آية : ١٧ .

نعمة ، ولأن الله ينعم على الإنسان إبتداءً ولأن الشكر على النعم التي إمتن الله بها على خلقه لا يمكن أن يتحقق بدون هداية ومعرفة لله ، خصوصاً إذا قلنا أن الشكر على النعمة هو من أقـرب القربـات إلى الله ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلّا بعد المعرفة والإيمان ، وهذا لا ليس فيه ولا جدال .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ دَعَوْتُهُ مَرِيضاً فَشَفٰانِي ، وَعُرْيٰاناً فَكَسٰانِي ، وَجٰائِعاً فَأَطْعَمَنِي ، وَعُطْشٰاناً فَأَرْوٰانِي ، وَذَلِيلاً فَأَعَزَّنِي ، وَجٰاهِلاً فَعَرَّفَنِي ، وَوَحِيداً فَكَثَّرَنِي ، وَغٰائِباً فَرَدَّنِي ، وَمُقِلاًّ فَأَغْنٰانِي ، وَمُنْتَصِراً فَنَصَرَنِي ، وَغَنِيّاً فَلَمْ يَسْلُبْنِي ، وَأَمْسَكْتُ عَنْ جَمِيعِ ذٰلِكَ فَابْتَدَأَتَنِي].

اللُّغَة

مقلاً : القلة خلاف الكثرة ، والقل خلاف الكثير ، وأقل أتىٰ بقليل ، وقلله في عينه أراه قليلاً ، والمقل المقصر وهذا اللفظ يستعمل في نفي بعض الشيء كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾[1] وقال لبيد :

كل بني حرة مصيرهم قلّ وإن كثرت من العدد

يسلبني : سلبه الشيء يسلبه واستلبه إياه . والإستلاب الإختلاس وواحد الأسلاب سلب . وفي الحديث من قتل قتيلاً فله سلبه ، وربما قالوا

(١) سورة البقرة آية : ٨٨.

إمرأة سلب . قال الراجز :

ما بال أصحابك ينذرونكا ؟ أأن رأوك سلباً يرمونكا ؟

البيان

الدعاء في جميع حالاته عبادة ، وإنما يتفاوت الإنسان فيه باعتبار إخلاصه ، فهو من المعاني المشككة . على أن هناك ظروفاً تفرض على الإنسان أن يدعو الله مخلصاً ، وذلك فيما إذا أصيب بنازلة أعيته أن يكشفها كالمرض الذي لا يمكن أن ينكشف إلّا بإذنه ـ سبحانه ـ وفي هذا النص الماثل أمامنا إشارة إلى هذا الإنقطاع : (يا من دعوته مريضاً فشفاني) . فالدعاء في مثل هذا الظرف أقرب للإجابة ؛ لأن الإنسان في ساعة العسرة يخلص إلى الله في دعائه مرغماً ، بخلاف ساعات السعة . فإذا دعا الإنسان مسترحماً لاجئاً إلى الله يجد الله عند ظنه إن ظن به خيراً . وإن الله برحمته التي لا تنقطع وبعطفه الذي لا يتصور يجيب دعوة الداعي إذا دعاه مخلصاً ـ كما أشار إلى ذلك في الكتاب العزيز ـ وقد مرّ كثير من الأبحاث التي تعرضنا فيها لموضوع الدعاء في ما تقدم .

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على ما تعاقب من العبارات في هذا النص (وعرياناً فكساني) . والعراء ربما يكون المقصود منه في هذا المقام عدم الساتر عامة ، وربما يقصد الستر على الأفعال القبيحة التي تصدر من الإنسان كإنسان ؛ لأنه قد سبق أن قلنا في البحث السابق أنه ـ عليه السلام ـ يتحدث نيابة عن الناس جميعاً ، ويخاطب الخالق بلسانه نيابة عنهم ؛ لأنه إمامهم ، وربما قصد ـ عليه السلام ـ من الكسوة الدفء الذي يحصل عليه الإنسان منها ، بمعنى الإطمئنان إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بعد أن تعذرت عليه المذاهب ، ورأى أن لا ملجأ منه ـ سبحانه ـ إلّا إليه .

(وجائعاً فأطعمني ، وعطشاناً فأرواني) والإطعام معناه الرزق الذي

تكفل به المولىٰ ؛ لأنه لا يمكن أن يتصور إطعام بدون رزق ، وكذلك الإرواء له ملازمة بالإطعام ؛ لأن الجسم كما يحتاج إلى الطعام ، يحتاج إلى الماء . وقد قال ساجع العرب : إن الجوع مسغبة ، والعطش ملهبة .

وإذا تأملت في هذا الأسلوب وجدته كالبنيان المرصوص وكل كلمة منه قد أخذت برقبة أختها ؛ فالإطعام مثلاً لا تظهر فائدته وتعرف قيمته إلّا عند الجوع ، لأن الإطعام على الشبع ينعكس المقصود منه فيصبح محنة على الإنسان . وكذلك القول في العطش والإرواء فإنه لا يقدر الماء ويشعر بالحاجة إليه إلّا من كان عطشاناً ، أما غيره فربما نسي الماء ، ولم يشعر بالحاجة إلى الإرواء .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وذليلاً فأعزني) والذل بمفهومه الخاص هو الخضوع لمن لا يستحق ذلك ، والذل الذي ذكره في العبارة هو من النوع الخاص الذي يكون به الإنسان ذليلاً . أما الذل في مفهومه العام فهو يشمل هذا وغيره ، بمعنىٰ أنه قد يأتي نوع من الذل ولكنه يشمل هذا وغيره ، بمعنىٰ أنه قد يأتي نوع من الذل ولكنه لا يكون ذلاً ، وقد تعرّض القرآن الكريم لهذا النوع من الذل فقال ـ سبحانه ـ : **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾**(٢) . قال السيد الطباطبائي في الميزان : خفض الجناح كناية عن المبالغة في التواضع والخضوع قولاً وفعلاً ، مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف أمه لتغذيته ، ولذا قيده بالذل ، فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من أمهاتها ، فالمعنى واجههما في معاشرتك ومحاورتك مواجهة يلوح منها تواضعك وخضوعك لهما ، وتذللك قبالهما رحمة بهما .

---

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٢٤ .

هذا إن كان الذل بمعنى المسكنة ، وإن كـان بمعنىٰ المطاوعـة فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته أفراخه رحمة بها وحفظاً لها . وعليه يمكن القول بأن التواضع والطاعة للوالدين ليسا من الذل ، بـل هما من العـز المحض ؛ لأن الله قد أمـر بذلـك وطاعتـه عز ، وكـذلـك الـذل والخضـوع والخشوع لله ـ سبحـانه ـ ليس ذلاً وإنمـا هـو عـز محض لأنـه طـاعة ، فهـو وإن سمّاه في الآيـة ذلاً إلّا أن هذا الـذل نتيجتـه عـز ، لأن الإنسان إذا أطاع أبويه فمن البديهي أن يحبه أبواه ، وإذا كان محبوباً عنـد الأبوين صار عزيزاً بالضرورة ، وأحبه الله لأنه أطاعه في أمره بطاعتهما .

إذاً فمعنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (وذليلاً فأعزني) يعني بلسان حال الناس بعيداً عن الطاعة فقربني إليها ، وهذا ما ينطبق تمام الإنطباق على ما جاء عنهم ـ عليه السلام ـ : (من أراد عزاً بـلا عشيرة ، وهيبـة بلا سلطان فليخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته) .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وجاهـلاً فعرفني) الجهـل خلاف العلم والمعرفة ، والمعرفة المشار إليها في العبارة يعني معرفة الله ، والإنسان وإن كان يولد على الفطرة إلّا أنه يولـد وهو جـاهل بكـل شيء . قال تعـالى : **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[٣] فـالآية تقـول : إن نفوسكم خـالية من هـذه المعلومات التي أحرزتموها من طريق الحس والخيال والعقل بعد ذلـك . وهي تؤيد ما ذهب إليه علماء النفس ، أن لوح النفس خالية عن المعلومات أول تكونها ، ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً ـ كما قيل ـ وهذا في غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفاً (يعلم شيئاً) . والدليل على ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

(٣) سورة النحل ، آية : ٧٨ .

في خلال الآيات السابقة في من يرد إلى أرذل العمر ، **﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾** فإن من الضروري أنه في تلك الحال عالم بنفسه .

وقوله : **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** إشارة إلى مبادىء العلم التي أنعم بها على الإنسان ، فمبدأ التصور هو الحس ، والعمدة فيه السمع والبصر ، وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم ؛ وذلك لأن هاتين الحاستين أكثر إستعمالاً في حياة الإنسان ، ومبدأ الفكر هو الفؤاد .

وعلى ما تقدم يمكن القول في هذه العبارة أن الجهل في الصغر ، ثم يتطور الإنسان في مداركه شيئاً فشيئاً . فأول ما يبدأ الإنسان باستعمال حواسه ؛ لأنها أقرب إلى المادية ؛ ولأنه يصعب عليه استعمال العقل إستعمالاً منظماً في مرحلة الطفولة ، وإن حصل على المعلومات الحسية لأنه لا يستطيع أن يغربلها ويميزها ، فتراه في هذه السن يصدق الكثير من الخرافات والقصص الخيالية التي لا واقع لها ، ولو استطاع أن يتحكم في عقله لما صدق ذلك .

فإذا تخطىٰ مرحلة الطفولة تعوّد على إستعمال عقله شيئاً فشيئاً وإن كان بشكل فوضوي لكنه لا يعوزه التفكير .

وهكذا يتطور في معارفه شيئاً فشيئاً حتىٰ يصل إلى مرحلة القناعة باستخدام العقل ، ومعرفة دوره في سيرة الإنسان .

وفي العبارة إشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ يريد للإنسان أن يبلغ الغاية الأسمىٰ في العلم وهي المعرفة التي تختص بمعرفة الله ـ تعالى ـ وهي غاية الغايات .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ووحيداً فكثرني) فيحتمل فيه أمران .

١ ـ أن الكثرة تعني القوة ، والوحدة تعني الضعف ، ومعنىٰ ذلك أن الإنسان ضعيف مهما بلغت قوته ، ووحيدٌ مهما بلغت كثرة أعوانه ، وفقيرٌ مهما بلغت ثروته ، فلا يكون قوياً إلّا بالله ؛ لأنه هو القوي العزيز ، ولا يكون غنياً إلّا بالله ؛ لأنه هو الغني الحميد ، فهو في هذه العبارة يستمد قوته من الله ويعتز بعزته .

٢ ـ أن المقصود بذلك هو كثرة الأرحام ومن ثمّ كثرة العشيرة التي تعلق بها الإنسان وينتمي إليها ، فيعتز بها ويستند إليها لكثرتها .

وهناك إحتمالات أخرىٰ يتنبه إليها المتأمل اللبيب .

ثم قال : (وغائباً فردّني) والغائب عادة ما يكون تائهاً حائراً ذليلاً ، وذلك لعدم معرفته بالآخرين ، فإذا ما رجع إلى وطنه عادت إليه عزّته . فالوطن ومسقط الرأس يحن إليهما الإنسان بفطرته كما تحن الطيور إلى أوكارها . قال الشيخ عبد الحسين الحلّي ـ رحمه الله ـ في قصيدة له بعنوان الوطن :

لولا إنتزاحي عن قومي وعن وطني ... لم يجف جفني يوماً لذة الوسن
له صبوت وما من صبوتي عجب ... إني شربت هواه العذب في لبني
فارقته وبرغمي أن تباعدني ... عن قربه مهن جرت إلى محن
إن دام حزني فلا والله ما نظرت ... عيني إلى منظر من بعده حسن
إذا شجاني أني عنه مبتعد ... فإن ذكراه سلواني من الشجن

إلى أن يقول :

إن الغريب وإن عزت مكانته ... هيهات ينفك عن وجد وعن حزن
إني لأعذل من يبكي على أحد ... وليّ وأعذر من يبكي على الدمن
بها نشأت وفي أبياتها انتزعت ... تمائمي وبها أقتاد الهوىٰ رسني

لهـا تحملت مـا تفنىٰ النفـوس بـه   يـا حي مـا بقيت أوطـانـه وفنى
مـا للنفـوس بـلا أوطـانهـا ثمن   وليس للوطن المحبـوب من ثمـن

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ومقلاً فأغناني) فالقلّ كما ورد تفسيره في فصل اللغة هو قليل المال ، وهذا زيادة تفضل من الله ـ سبحانه ـ لأنـه قد تعهد للإنسان بالرزق ، وما زاد عن ذلك فهو تفضل وزيادة من الخير ، وهذا إعتراف بالنعمة ضمناً في هذا الإطار .

ثم قـال ـ عليه السـلام ـ : (ومنتصراً فنصـرني) والإنتصـار من الله ـ سبحانه ـ طلبه أولى من طلبه من الناس ؛ لأن القوة لله جميعاً ، والإنسان مهما قوي فهو ضعيف ، وطلب النصر من الضعيف الـذي لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة هو كمن يطلب الطيران من النوق . على أن طلب النصر من الإنسان ربما يكون مرفوضاً ؛ وذلك تبعاً للعلاقات الإنسانية المختلفـة من صداقة وعداوة وقرب وبعد ؛ لأن هذه العلاقات لها آثارها السلبية والإيجابية على صيغة الإستجابة لذلك الطلب .

أما النصر من الله فهو قريب كما وعد بذلك في كتابه المجيـد . قال ـ تعالى ـ : **﴿بل الله مـولاكم وهو خيـر الناصـرين﴾**[٤] وقولـه ـ تعالى ـ : **﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾**[٥] وسيوافينا قريباً بحث حول النصر وأسبابه إن شاء الله ـ في شرح النص اللاحق .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وغنياً فلم يسلبني) لأنه لا حاجـة له في المال ؛ ولأن ذلك لا يكون إلّا بدافع الحسد ، فـإن الحاسـد يتمنىٰ زوال النعمة للآخرين وقد أنـزل الله سورة كـاملة في القرآن أمـر الناس فيهـا أن

---

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٥٠ .

(٥) سورة الحج ، آية : ٣٩ .

يستعيذوا بالله من الحاسد قال تعالى : **﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم : قل أعوذ بربّ الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن النفاثات في العقد ، ومن شر حاسدٍ إذا حسد﴾** .

أما المؤمن فإنه يغبط ولا يحسد . والغبطة هو أن يتمنىٰ الإنسان خيراً كخير فلان ، ولكنه لا يتمنىٰ خير فلان ، أي أنه لا يتمنى إنتقال خير فلان إليه ويبقى ذلك صفر الأنامل ، بل يسأل الله أن يعطيه من فضله كما أعطى غيره .

ثم إنه لا يغيب عن أذهاننا بأن هذا الغنىٰ هو من الله أعطاه الإنسان فكيف يسلبه منه مرة أخرى ؟ ولكن هناك أسباب تدعو إلى سلب النعمة ، واسترجاعها من الإنسان مرة أخرىٰ ، إما لغرض التأديب ، وإما لغرض المحافظة على هذه النعمة ؛ وذلك فيما إذا قصر الإنسان عن القيام بحفظها وشكرها ؛ لأن شكر النعمة هو باب آخر يفتحه الإنسان لمضاعفة الغنىٰ وزيادة الخير ، قال ـ تعالى ـ : **﴿وإذ تأذن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنكم وإن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[٦] . وقد استدل بالآية على وجوب شكر المنعم ، وفيها أيضاً أن هذا التأذن ليس إلاّ نعمة للشاكرين منهم خاصة ، وأما غيرهم فهو نقمة عليهم وخسارة . وقد بين تعالى هذه الحقيقة ، وهي كون الشكر موجباً لمزيد النعمة ، والكفر لشديد العذاب .

ومن لطيف كرمه ـ تعالى ـ اللائح كما ذكره بعضهم في الآية اشتمالها على التصريح بالوعد ، والتعريض في الوعيد حيث قال : **﴿لأزيدنكم﴾** ، وقال : **﴿إن عذابي لشديد﴾** ، ولم يقل لأعذبنكم ، وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالباً .

وبعد أن عدد هذه النعم تفصيلاً إعترف بها إجمالاً ، وأن الله

ـ سبحانه وتعالى ـ يبتدىء بالعطاء قبل أن يسأله العبد ، وهذا غاية الرحمة والشفقة والعطف والمحبة بالإنسان ، وقد تقدم بحث ذلك في كلام سابق . وهذا الإجمال أما لأن النعم خارجة عن حدّ الإحصاء ، وأما للإعتراف بالعجز عن تعدادها وفي كلا الوجهين قوة .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (وأمسكت عن جميع ذلك فابتدأتني) معناه أنني عندما أمتنع عن السؤال بأي مانع كان ، لأي حاجة تبتدئني بالعطاء ، وإن لم أسألك ؛ لأنك عالم بحاجتي مصطلع على جميع أحوالي ؛ لأنك علّام الغيوب ، فأنت تعطي قبل السؤال ، وتنعم في هذا العطاء ، والعطاء مستمر لا ينقطع ، والرعاية دائمة منذ أن يفتح الإنسان عينيه على الدنيا حتى يطبقهما . وسواءً كان الإمساك عن غفلة أو عن عدم إعتقاد فإن ذلك كله لا يمنع من الإبتداء بالرزق والعطاء ، وقد تقدم الكلام في هذه المسألة وقلنا فيما هنالك بأنها لا دخل لها في الكفر والإيمان ، وقلنا أيضاً بأن الله عندما خلق الإنسان لم يكله إلى نفسه طرفة عين ، وقد بات هذا من المسلمات التي لا تحتاج إلى بحث بعد أن أسهب القرآن في ذكر ذلك ضمن الإطار العام للتفضل والإكرام والرحمة بالإنسان وغيره من الموجودات .

---

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٧ .

قال عليه السلام :

[فَلَكَ الْحَمْدُ يا مَنْ أَقالَ عَثْرَتي ، وَنَفَّسَ كُرْبَتي ، وَأَجابَ دَعْوَتي ، وَسَتَرَ عَوْرَتي ، وَذُنُوبِي ، وَبَلَّغَني طَلِبَتِي ، وَنَصَرَني عَلىٰ عَدُوي ، وَإنْ أَعُدَّ نِعَمَكَ وَمِنَنَكَ ، وَكَرائِمَ مِنَحِكَ لا أُحْصيها].

اللُّغَة

أقال : أقال الله عثرته ، ويقال أقاله يقيله إقالة . وتقايلا إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكه ، والثمن إلى المشتري إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما . وتكون الإقالة في البيعة والعهد . وفي الحديث أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم ، وأقال الله عثرتك وأقالكها . والعثرة الزلّة ، وعثر الفرس سقط وتعثر اللسان تلعثم ، والعثر الإضطلاع على سر الرجل ، والعاثور حفرة تحفر للأسد ليقع فيها للصيد . وقال الشاعر وأنشده إبن الإعرابي :

فخرجت أعثر في مقادم جبتي   لولا الحياء أطرتها إحضارا

نفس : فرّج والنفس بفتح الفاء الفرج من الكرب ، وتنفس الصعداء ، وكل ذي رئة متنفس ، والنفس خروج الريح من الأنف والفم ،

والتنفس إستمرار النفس . قال جرير :

تعلل وهي ساغبة بنيها   بأنفاس من الشبم القراح

كرائم : قالوا هي على غير قياس : إنه لكريم من كرائم قومه ، وإنه لكريمة من كرائم قومه . يقال رجل كريم ، وقوم كرم ، ونسوة كرائم .

والكريم من أسماء القرآن . قال تعالى : ﴿إنه لقرآن كريم﴾[1] وقال الشاعر يمدح الكريم :

كريم متى أمدحه والورىٰ   معي وإذا مالمته وحدي

منحك : المنحة المنفعة بما يمنحه . ومنحه أعطاه ، وأمنحت الناقة دنانتاجها .

قال أبو عبيد : المنحة عند العرب على معنيين .

أحدهما : أن يعطي الرجل صاحبه المال هبة ، أو صلة فيكون له .

والثاني : أن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زماناً وأياماً ثم يردّها .

البيان

الحمد في جميع الحالات عبادة ، والعبادة تجب على الإنسان وتنبغي له في جميع الظروف سرّائها وضرائها ، فإنه لا يحمد على السرّاء ، والضرّاء أحد سواه ـ سبحانه ـ وفي قوله ـ عليه السلام ـ : (فلك الحمد يا من أقال عثرتي) وما بعدها في هذه الفقرة التي أمامنا ، وما سوف يأتي في الأبحاث القادمة ذكر النعمة وتعدادها وهي ما ينبغي أن يحمد عليها . وهي إقالة العثرة .

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٧٧ .

وعثرات الإنسان في حياته لا تحصىٰ ، والأخطاء التي يرتكبها لا عن عمدٍ كثيرة ، ولكن هل ان العمد يعتبر من العثرات التي يقال عليها الإنسان ؟ وهل أن هناك فرقاً بين العمد والخطأ ؟ .

من البديهي أن هناك إختلافاً كثيراً ، وأن هناك مقاييس قد وضعها الشارع المقدس لتصرفات الإنسان ، وراعىٰ فيها ظروفه وأحاسيسه التي تكون غالباً هي السبب في هفوات الإنسان وزلّاته ، ولكن المتبادر إلى الذهن من كلمة العثرة هو الخطأ الذي يكون فيه الإنسان مغلوباً ، ولأن الخطأ هو الذي يقال أما العمد فإن حسابه يختلف عن حساب الخطأ .

وهذا ناتج عن إتجاهات النفس وانفعالاتها وتوجهها وحضور العقل عند مباشرة الفعل ، أي فعل من الأفعال كان ، فالعمد يأتي به الإنسان مع حضور جميع حوّاسه ، وعقله وشعوره . وأما الخطأ فإن الإنسان يكون فيه مغلوباً على أمره ، وإن قلنا بأن شعوره ومشاعره حاضرة يميز بها بين الغثّ والسمين إلّا أنه في غياب العقل لا يستطيع الإنسان أن يميز بين أفعاله .

إذاً فالمناط في ذلك بين الخطأ والعمد هو التوجه النفسي ، والشعور بالفعل عند صدوره وإعطائه حقه من التأمل .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ونفّس كربتي) فإن التنفيس عن الكرب هو الفرج من عند الله ، وهذه العبارة مربوطة بما قبلها ، وذلك أن الإنسان عندما يخطىء ، ويندم على خطئه ، ويعود إلى الله ويتوب إليه ، ويطمئن إلى إقالته عثرته ، فإن الله أولىٰ بأن يقبل التوبة وينفس الكربة ، ويقيل العثرة . وقد قلنا بأن الله عند ظن عبده ، فهو يقيله عثرته ، وذلك بأن يفتح له أبواب الفرج ، وينفس الكربات والغم ، وقد ورد في الجزء الأول تفسير ذلك في شرح قوله ـ عليه السلام ـ : (وللكربات دافع) .

إجابة الدعوة

أما إجابة الدعوة في قوله ـ عليه السلام ـ : (وأجاب دعـوتي) فقد ورد أيضاً من أول الدعاء قوله ـ عليه السلام ـ : « وهو للدعوات سامع » . وسماع الدعوة هو الإجابة ، والدعوة الغير مسموعة هي المهملة . وعلى كل حال فإن الدعوة التي يدعوها الإنسان بإخلاص فهي مجابة ولو بعد حين ؛ لأنـه قد وعـد بذلـك في قولـه ـ تعالى ـ : ﴿**وقـال ربّكم ادعوني أستجب لكم**﴾[٢] وهو لا يخلف وعده .

أمـا قولـه ـ عليه السـلام ـ: (وستر عـورتي وذنوبي) فقـد ورد تفسير السـاتـر والإحتمـالات الـواردة في هــذا الأسـلوب عنـدالبحـث في الفقـرة السابقـة في قـولـه ـ عليـه السـلام ـ : « وعـريـانـاً فكسـاني » وقد فصلنا هذه الإحتمالات فلا نطيل بإعادتها ، ولكنّا نضيف هنا فنقول : إن ستر العورة المقصود بها هو ما كان لديه من عيوب ، إن كـانت هناك ، وإلاّ فهي معدومة بلحاظ العصمة ، إلاّ أننا نقول كما كررنا القول سابقاً إنه يدعو ويسأل الله في ذلك اليوم نيابة عن الناس جميعـاً ؛ لأنه إمـامهم وهو

---

(٢) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

المسؤول عنهم .

إذاً فالمقصود من العورة هي الأخطاء والعيوب التي تفضح الإنسان كما يفتضح عند إنكشاف عورته[٣] .

وندرك هذا بقرينة إلحاق الذنوب في ذيل العبارة خصوصاً بلحاظ أن العورة مشتقة من العار ، والعار هو العيب ، ولا شك أن الذنوب هي من أكبر العيوب التي تشين الإنسان وتفضحه عند الناس وعند الله ، ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ بلطفه وتكرمه على عبده يستر عوراته ، ويغفر ذنوبه وزلّاته ، وهو خير الساترين ، وخير الغافرين .

---

(٣) ذكر المؤرخون إنكشاف عورة عمرو بن العاص في يوم صفين عندما بارز علياً ـ عليه السلام ـ ، وقد كشفها عن عمد لينجو بها ثم ولّىٰ بعد ذلك مهرولاً بعد أن أعرض عنه أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ تعففاً وتكرماً وقد قال عندما التفت من ورائه ورأىٰ فرس الإمام قد تعثرت بالقتلىٰ :

لم يعثر الفرس الميمون غرته ... سهواً وفي كفك اليسرى شكائمه
لكنه مذ رأىٰ الأملاك خاضعة ... لمجد علياك لم تثبت قوائمه

النصر وأسبابه

وفي مواصلة لعرض النعم وذكرها يقول ـ عليه السلام ـ : (وبلغني طلبتي) وبلوغ الطلب هو تحقيق الأمنية التي يتمناها الإنسان بتكثيف السؤال ، والإلحاح على الله بالمسألة ، وبلوغ الطلب لا يأتي إلّا بعد حصول الرضا من الله الذي وعد الإنسان بالإجابة ، ومن ثم يتحقق الطلب .

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر نعمة هي من أكبر النعم خافية ظاهرة . خافية لأن الإنسان لا يلتمس منها شيئاً مادياً ، وظاهرة ظهور الشمس ، لأنه لا يمكن أن يعيش بدونها فقال : (ونصرني على عدوي) ، والنصر على العدو باعتقاد أن الله هو الناصر ، يعني بالتالي النصر على أعداء الله ، لأن الله لا ينصر إلّا أولياءه .

وأسباب النصر تختلف باختلاف الحالات التي يكون فيها الإنسان متهيئاً بها ونستطيع أن نجمل بعضها فيما يلي :

١ ـ الحالة المادية : أو النصر المادي وذلك بسبب ما يكون عليه الإنسان من قوة عناد وسلاح أو أعداد من البشر هائلة ، تفوق الطرف الآخر

المحارب أضعافاً كثيرةً . وبذلك تكون المعركة غير متكافئة ، فبمقدار ما يكون النصر عند طرف تحل الهزيمة بالطرف الآخر ، وقد مر بنا ذلك في ص ٢٥٤ من هذا الجزء .

٢ : وقد تكون المعركة متوازنة ومتكافئة من حيث العتاد والسلاح والعدد ، ولكن أحد الطرفين في الحرب عارف بوضع الخطط العسكرية الشاملة التي يرسمها القادة لجنودهم ، والتي يكون الغرض منها هو الوصول إلى النصر من أقرب طريق ، والتقليل من عدد الإصابات والخسائر في صفوف الجنود والسلاح .

٣ ـ الحالة العقائدية التي تعطي الإنسان اندفاعاً إلى الأمام ، وترفعه عن مستوىٰ التفكير في الماديات الهابطة التي لا يزال الإنسان يحافظ عليها في كل حركاته وسكناته . وهناك نماذج حية نراها ماثلة في تاريخ الإسلام من أول نشأته ، كواقعة بدر الكبرىٰ ، والأحزاب وذات السلاسل وغيرها من الحروب التي انتصر فيها المسلمون إنتصاراً مؤزراً بسبب مواقفهم العقائدية الصلبة . وقد استعرض القرآن الكريم بعضاً من تلك الأسباب في كثيراً من الآيات مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة**﴾[٤] وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم**﴾[٥] وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾[٦] وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾[٧] . فالنصر في هذه الآية الأخيرة بمعنىٰ الإغاثة والإظهار على العدو ، والفتح هو فتح مكة ، وهو مسبب عن النصر ؛ لأنه

---

(٤) سورة المائدة ، آية : ١٢ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٢٦ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٦٠ .
(٧) سورة النصر ، آية : ١ .

لا يمكن بغير نصر ؛ أو هما شيئان متلازمان .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ أخيراً يتصاغر أمام هذا العدد الهائل من النعم ، سواءً ما ذكرها وما لم يذكرها ، ويعترف بالعجز عن إحصائها بعد أن أحصىٰ الكثير منها .

يقول ـ عليه السلام ـ : (وإن أعد نعمك ومننك وكرائم منحك لا أحصيها) وقد مرّ في ما مضىٰ من الأبحاث تفسير هذا المعنىٰ عندما تعرض ـ عليه السلام ـ في فقرة من فقرات الدعاء لذلك في نص الآية الكريمة : ﴿**وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[8] في بيان مفصل إلّا أنه ها هنا قد أضاف المنن وهي العطايا بدون عوّض ، وذكر كرائم المنح وهي العطايا التي يبتدىء بها المعطي بدون طلب ، وكلها داخلة ضمن عجز الإنسان عن الإحصاء لانها ليست من سنخ واحد ، وليست على شاكلة واحدة ، ولا من باب واحد ، وبكلمة أخيرة أن عطاء العبد منه ـ سبحانه ـ لا ينقطع طالما كان موجوداً يدب على وجه الأرض .

---

(٨) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤.

إلى هنا ينتهي الجزء الثاني من كتاب أصول المعرفة في شرح دعاء عرفة للإمام الحسين ـ عليه السلام ـ وقد صادف ذلك يوم الأحد الثاني من جمَادىٰ الآخرة ١٤١٠هـ الموافق ١٩٨٩/١٢/٣١م .

نسأل الله أن يمنّ علينا بالتوفيق لإكمال شرح هذا الدعاء الشريف إنه خير موفق ومعين .

فهرس المصادر

الكتاب	المؤلف
تفسير التبيان	للشيخ الطوسي .
تفسير الميزان	للسيد محمد حسين الطباطبائي .
البرهان	للسيد هاشم البحراني .
تفسير الكشاف	للزمخشري .
شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد .
تفسير البيضاوي	للبيضاوي .
مع الله في السماء	الدكتور أحمد زكي .
الطب محراب للإيمان	للدكتور جلبي .
تواريخ الأنبياء	للواساني .
لسان العرب	لابن منظور .
المتاجر والمكاسب	للشيخ حسين العصفور .
تنزيه الأنبياء	السيد المرتضىٰ .
التوحيد	للصدوق .
البراهين العلمية	للشيخ عبد الجبار الربيعي .

الكتاب	المؤلف
بحار الأنوار	المجلسي .
معجم البلدان	ياقوت ـ الحموي .
أخبار مكة	للأزرقي .
أم القرى	فؤاد رضا .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة التوحيد	٥
خطبة الكتاب	٧
قال ـ عليه السلام ـ: (الحمد لله حمداً يعدل حمد ملائكته. . . النص)	١٥
اللغة	١٥
البيان	١٨
بحث حول الملائكة	٢١
تفضيل الأنبياء والمرسلين على بعضهم البعض	٢٦
أفضلية نبينا محمد على سائر الخلق	٢٩
قال ـ عليه السلام ـ: (أللهم اجعلني أخشاك كأني أراك. . . النص)	٣٦
اللغة	٣٦
البيان	٣٨
كلام في الرؤية	٤١
الكلام في التقوىٰ	٤٩
الشقاء والسعادة	٥٤
قال ـ عليه السلام ـ: (أللهم اجعل غناي في نفسي. . . النص)	٥٧
اللغة	٥٧

الموضوع .... الصفحة

الموضوع	الصفحة
البيان	٦٠
اليقين ومراتبه	٦٢
١ ـ الرياء	٦٦
٢ ـ العجب	٦٧
النور والتمييز في حاسة البصر	٧١
إن العين فيها إحساسان للرؤية	٧٣
حاسة السمع المعقدة	٧٦
قال ـ عليه السلام ـ: (اللهم اشكف كربتي . . . النص)	٨٠
اللغة	٨٠
البيان	٨٣
تحمل الكربات	٨٣
ستر العورة	٨٦
الخطأ ومعناه	٨٧
الكلام في العصمة	٨٩
الدرجات العالية في الدنيا والآخرة	٩٥
قال ـ عليه السلام ـ: (أللهم لك الحمد كما خلقتني . . . النص)	٩٧
البيان	٩٧
تفسير الحياة	٩٨
تفسير الرحمة	١٠٣
قال ـ عليه السلام ـ: (ربِّ بما برأتني . . . النص)	١٠٥
اللغة	١٠٥
البيان	١٠٧
الحواس وسائر الأعضاء العاملة في الجسم	١٠٩
الحديث عن النشأة الأولى	١١٢

الموضوع	الصفحة
الصورة ووسائل تحسينها	١١٣
حكم الصور المجسمة	١٢٠
معنىٰ الإحسان	١٢١
العافية خير من السقم	١٢٤
الهداية والتوفيق	١٢٩
الإقتناء والغنىٰ	١٣١
قال ـ عليه السلام ـ: (صلِّ على محمد وآل محمد. . . النص)	١٣٩
اللغة	١٣٩
البيان	١٤١
الصلاة على النبي وآله	١٤١
لمحة عن بعض الحروب في الأرض	١٤٦
معنىٰ الكربات	١٤٩
قال ـ عليه السلام ـ: (أللهم ما أخاف فاكفني. . . النص)	١٥٣
اللغة	١٥٣
البيان	١٥٧
موارد الخوف	١٥٧
الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته	١٦٠
التواضع	١٦٧
التوكل والتواكل	١٧٤
قال ـ عليه السلام ـ: (إلىٰ من تكلني. . . النص)	١٧٧
اللغة	١٧٧
البيان	١٨٠
صلة الأرحام باختصار	١٨١
كلام في المستضعفين	١٨٢

الموضوع	الصفحة
الشكوىٰ من الغربة	١٨٦
قال ـ عليه السلام ـ: (أللهم فلا تحلل بي غضبك . . . النص)	١٨٨
اللغة	١٨٨
البيان	١٩٠
الغضب وأسبابه	١٩٢
النور	١٩٥
معنىٰ النور والضياء وكلام في الفرق بينهما	١٩٨
الغضب مرة أخرىٰ	٢٠٣
قال ـ عليه السلام ـ: (لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ . . . النص)	٢٠٦
اللغة	٢٠٦
البيان	٢١٠
معنىٰ الرضا والسخط	٢١٢
أسماء مكة وصفتها	٢١٧
المشعر الحرام	٢١٩
معنىٰ البيت العتيق	٢٢٢
حادثة الفيل	٢٢٤
لا يعطى الجزيل إلاّ الكريم	٢٢٩
التحذير من الغفلة في ما قال أمير المؤمنين (ع)	٢٢٩
عودة إلى الإعتراف بالنعم	٢٣٠
نسب الحسين الطاهر	٢٣٣
العلوي والحجاج	٢٣٧
الكتب المنزلة من الله	٢٤٠
تفسير بعض أوائل السور في حروفها المقطعة	٢٤١
قال ـ عليه السلام ـ: (أنت كهفي حين تعييني المذاهب . . . النص)	٢٤٥

الموضوع .... الصفحة

اللغة ٢٤٥
البيان ٢٤٧
قصة أصحاب الكهف في القرآن ٢٤٩
متىٰ يلجأ الإنسان إلى الله ؟ ٢٥١
الرحمة ٢٥٦
التأييد بالنصر ٢٥٩
قال ـ عليه السلام ـ: (يا من خص نفسه بالسمو والرفعة . . . النص) ... ٢٦١
اللغة ٢٦١
البيان ٢٦٤
بعض الصفات الإلٰهية ٢٦٤
ما هي خائنة الأعين ٢٦٨
قال ـ عليه السلام ـ: (يا من لا يعلم كيف هو . . النص) ٢٧١
اللغة ٢٧١
البيان ٢٧٣
الكيف والحال ٢٧٤
اختلاف الماهية ٢٧٨
صفة العلم ٢٨٢
الأرض ومركزها في الكون ٢٨٦
الغلاف الجوي ٢٩١
أكرم الأسماء ٢٩٤
قال ـ عليه السلام ـ: (يا ذا المعروف الذي لا ينقطع . . . النص) ٢٩٨
اللغة ٢٩٨
البيان ٣٠٠
المعروف من الله ٣٠٠

الموضوع	الصفحة

يوسف الصديق بين الحرج والفرج ٣٠٣
العبودية ظاهرة اجتماعية طبيعية ٣٠٥
يوسف في خضم الأزمات ٣٠٩
الحزن وابيضاض العين ٣١٤
أيوب أيام المحنة ٣١٨
من هو الذبيح ؟ ٣٢٣
زكريا بعد المشيب ٣٢٧
يونس في الظلمات ٣٢٩
نجاة بني إسرائيل بمعجزة موسى (ع) ٣٣٣
قوله ـ عليه السلام ـ: (يا من أرسل الرياح مبشرات . . . النص) ٣٣٩
اللغة ٣٣٩
البيان ٣٤٣
معنى التبشير بالرياح ٣٤٣
حركة الرياح وأسبابها ٣٤٥
الحلم على العاصي ٣٤٩
إيمان السحرة بعد طول الجحود ٣٥١
بين السحر والعلم ٣٥٦
الإعرابي صاحب الإبل وأبو جهل ٣٦٠
حكم السحر في الشريعة ٣٦٢
قال ـ عليه السلام ـ: (يا الله يا بديء لا بدء لك . . . النص) ٣٦٤
اللغة ٣٦٤
البيان ٣٦٦
الحي القيوم ٣٦٩
اعتراف بالتقصير في شكر النعم ٣٧١

الموضوع	الصفحة
قال ـ عليه السلام ـ: (يا من حفظني في صغري . . . النص)	٣٧٤
اللغة	٣٧٤
البيان	٣٧٥
مراحل حياة الإنسان وما يناسبها من الرعاية	٣٧٥
هل جزاء الإحسان إلا الاحسان	٣٨١
قال ـ عليه السلام ـ: (يا من دعوته مريضاً فشفاني . . . النص)	٣٨٦
اللغة	٣٨٦
البيان	٣٨٧
كلام في الرزق	٣٨٧
ما هو الذل ومتى يكون	٣٨٨
الجهل والمعرفة	٣٨٩
كلام في الوطن	٣٩٠
تعداد النعم	٣٩٢
قال ـ عليه السلام ـ: (فلك الحمد يا من أقال عثرتي . . . النص)	٣٩٥
اللغة	٣٩٥
البيان	٣٩٦
الحمد من العبد	٣٩٦
إجابة الدعوة	٣٩٨
النصر وأسبابه	٤٠٠
المصادر	٤٠٥